

نَهْجَاتُ الْقُرْآنِ

الجزء السابع
النَّبَوَّةُ الْعَامَّةُ فِي الْقُرْآنِ

أَسْلُوبٌ جَدِيدٌ فِي التَّفْسِيرِ الْمَوْضُوعِيِّ
لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

سَمَاحَةُ الْعَالِمَةِ الْمُحَقِّقَةِ الشَّيْخِ نَاصِرِ مَكَّارِمِ الشِيرَازِيِّ

بِمُسَاعَدَةِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْفُضَلَاءِ

سماحة العلامة المحقق
الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

نفحات القرآن

اسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم

الجزء السابع
النبوة العامة في القرآن

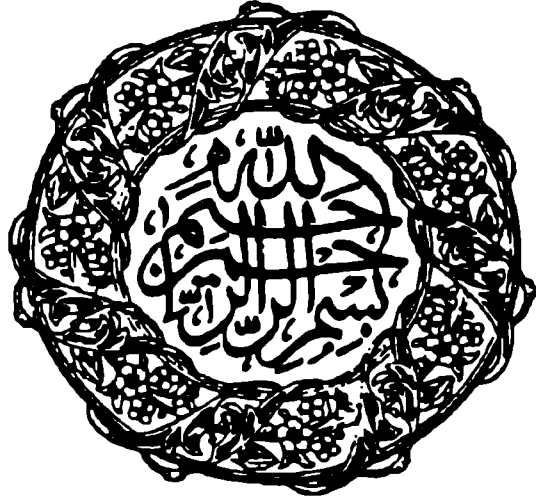
بمساعدة
مجموعة من الفضلاء



هوية الكتاب

- الكتاب نفحات القرآن / ج ٧
- المؤلف آية الله العظمى مكارم الشيرازي
- عدد النسخ ٢٠٠٠
- قطع وزيري ٤٠٠ صفحة
- المطبعة الحيدري
- الناشر مؤسسة أبي صالح للنشر و الثقافة

شابک ۹۶۴-۹۰۱۵۹-۶-۵



الاهداء:

الى الذين يعشقون القرآن .
الى الذين يريدون أن يشربوا من عين الحياة الصافية أكثر .
والى الذين يريدون ان يعرفوا القرآن ويفهموه أكثر .

بمساعدة العلماء الافاضل وحجج الاسلام السادة :

محمد رضا الآشتياني
محمد جعفر الامامي
عبد الرسول الحسيني
محمد الاسدي
حسين الطوسي
سيد شمس الدين الروحاني
محمد محمدي الاشتهاري

المقدمة

ما هو التفسير الموضوعي ؟
وماهي المشكلات التي يعالجها ؟

إن الجواب على هذين السؤالين له الاثر الكبير في فهم مواضيع مثل هذا الكتاب بشكل أصح وأفضل ، وما لم يتضح الجواب على هذين السؤالين لا يمكن معرفة الهدف الذي ترمي اليه مثل هذه الكتب .

اما بالنسبة للجواب عن السؤال الاول فنود ان نذكر بأن المدّة التي تنزل فيها القرآن المجيد دامت (٢٣) سنة ، وذلك نظراً للمتطلبات والظروف الاجتماعية المختلفة والأحداث المتنوعة ، فكان القرآن يسير وفقاً لتطورات المجتمع الاسلامي .

إن اكثر الآيات والسور التي نزلت في مكة كانت ترمي إلى تركيز دعائم الايمان وترسيخ الاعتقاد بالتوحيد والمعاد ، وكانت تختص بالهجوم الشديد والمستمر ضد الشرك وعبادة الاوثان ، بينما ركزت الايات والسور التي نزلت في المدينة - وذلك بعد تأسيس الحكومة الاسلامية طبعاً - على وضع القوانين الاجتماعية والعبادية والسياسية وتأسيس بيت المال والنظام القضائي الاسلامي والشؤون المتعلقة بالحرب والهدنة والجهد ضد المنافقين وامثال ذلك من

الامور التي كان الدين الاسلامي يواجهها .

ومن البديهي إن المسائل المذكورة لم توضع على شكل رسالة لبيان الاحكام الشرعية او على شكل كتاب منهجي كما هو المتعارف ، بل كانت الآيات تنزل وفقاً للمتطلبات والمناسبات والحاجات ، فإننا نرى مثلاً احكام الجهاد وفنون القتال واحكام المعاهدات والاسرى والفدية وامثال هذه الامور نزلت متفرقة وبشكل غير مرتب ؛ وذلك لانها نزلت مناسبة لكل غزوة ومتطلباتها ، كما هو الحال في وصفات العلاج التي يكتبها الطبيب الماهر ، فإنه يصفها للمريض في كل يوم بما يناسب حاله حتى يصل إلى الشفاء التام .

فلو فسرنا آيات القرآن الكريم في أية سورة من السور بالترتيب الذي نزلت عليه فهذا التفسير يسمى بـ « التفسير الترتيبي » ، واما اذا جمعنا الآيات المختصة في « موضوع » واحد من سائر سور القرآن ووضعناها على شكل فصول وفسرناها فهذا التفسير يسمى بـ « التفسير الموضوعي » .

فمثلاً اذا جُمِعَتْ كل آيات الجهاد التي نزلت خلال عشر سنين من السور المدنية ، او جُمِعَتْ الآيات الخاصة باسماء وصفات الله التي نزلت خلال (٢٣) سنة من جميع سور القرآن ، وُضِمَتْ إلى بعضها ، وفسرت بعضها بالبعض الآخر فإن هذا يسمى بالتفسير الموضوعي ، بينما لو قُسِرت كل آية في موضعها وبشكل مستقل فإن هذا هو التفسير الترتيبي .

إن كل واحد من هذين النوعين له مزايا وآثار بحيث لايمكننا الاستغناء عن احدها بالآخر كما يقول المثل « لكل مقام مقال » ، إن كلا النوعين من التفسير لازم وضروري للباحثين في القرآن الكريم . (ومن الطبيعي ان يُقدَّم التفسير الترتيبي في البداية على التفسير الموضوعي) .

مزايا « التفسير الترتيبي » :

تُعرف اغراض الايات ومفاهيمها من خلال زمان ومكان النزول ، مع ضمّها إلى ما قبلها و ما بعدها من الآيات ، ومن خلال القرائن الداخلية والخارجية ، وبدون هذا لا يمكن فهم معنى الآية بدقّة .

وبعبارة اخرى فإن التفسير الترتيبي ينظر بدقّة إلى كل آية في موضعها الذي نزلت من اجله ، ويأخذ بنظر الاعتبار صلّتها بحياة المجتمع الاسلامي وتطوره وتكامله ، وتكشف هذه الصلة بدورها عن مسائل كثيرة .

بينما في التفسير الموضوعي تخرج الآيات عن قالبها الجزئي وتأخذ موضعها في قالب كلي وتبتعدُ إلى حدٍ كبيرٍ عن موضعها الذي نزلت من اجله . وعلى ذلك فإن التفسير الموضوعي يمكنه ، أن يرفع الستار عن الامور

التالية :

١ - يجمع الابعاد المتشعبة في طبّات الآيات المختلفة للموضوع ، وينظر إلى المواضيع بشكلها المتعدد الابعاد ، وهذا ينتهي طبعاً باستخراج حقائق جديدة لتلك المواضيع .

٢ - يطرد الابهامات التي تُشاهد في بادئ الامر في بعض الآيات طبقاً للمبدأ القائل بأن « القرآن يفسّر بعضه بعضاً » .

٣ - يُمهّد للخوض في نظرية المعرفة الاسلامية بشكل عام وفي كل مسألة من مسائلها .

٤ - لا يمكن رفع النقاب عن الكثير من اسرار القرآن الخفية الا من خلال

التفسير الموضوعي ، ولا يتيسر الخوض في اعماق آياته - على قدر الطاقة البشرية - إلا بواسطته .

وبناءً على هذا فإن أيَّ مسلمٍ مهما بلغ من المعرفة والتعمق لا يمكنه الاستغناء عن كلا هذين النوعين من التفسير وبالرغم من ان التفسير الموضوعي كان موضع اهتمام منذ اقدم الأيام بل حتى في عصر أئمة الهدى عليهم السلام ، فقد كتب علماء الاسلام في هذا المجال كتباً جمّة ككتاب « آيات الاحكام » الذي يعتبر نموذجاً واضحاً لذلك ، إلا إنه يجب الاعتراف بأن التفسير الموضوعي لم يحضّ بالتطور اللائق به ، وهو لحد الآن يطوي مراحله الابتدائية ، ويجب ان يرقى إلى محلّه اللائق من خلال جهد وعطاء العلماء .

إن كتاب «نفحات القرآن» الذي بين يديك هو ابداع واسلوب جديد تماماً في التفسير الموضوعي للقرآن ، وقد خطى في هذا الموضوع خطى جديدة فاستقبل - والحمد لله - بشكل واسع ومستمر من قبل الكثيرين ونحن بعد في اول الطريق ، ونحتاج إلى عون ودعم اكثر من العلماء المسلمين والمفسرين المحترمين للوصول إلى الهدف الرئيس ، ونحن نتقبل دوماً الآراء البناءة من أهل الخبرة والاطلاع .

ونسأل الله دوام الهداية والتوفيق .

قم - الحوزة العلمية

ناصر مكارم الشيرازي

فلسفة بعثة الانبياء عليهم السلام

في

المنظور القرآني

فلسفه بعثة الانبياء في المنظور القرآني

القرآن الكريم والهدف من ارسال الرسل :

تمهيد :

إنَّ ارسال الرسل وانزال الكتب وبعبارة اخرى بعثة الانبياء الألهيين ﷺ ونزول الكتب السماوية ، لها علاقة مباشرة بالنظرة الكونية للقرآن الكريم .
حينما يقول القرآن الكريم : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات / ٥٦) ، أو ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (الانشقاق / ٦) ، تظهر بكل وضوح حاجة الانسان الماسة إلى القادة الألهيين لسلوك هذا الطريق الطويل المحفوف بالمخاطر والمخاوف باتجاه الكمال المطلق ، ذات الباري جلت قدرته ، وبدونهم سيقع الانسان حتماً في دوامة الضلال والضياع .

ولهذا السبب يُعدُّ الأنبياء ﷺ بمثابة « القادة » والكتب السماوية بمثابة « القوانين » ، التي تأخذ بيد الإنسان لتوصله إلى غايته وتخرجه من الظلمات .
وبعبارة اخرى ، لا يمكن تصور الحياة الاجتماعية للإنسان مجردة عن

هداية عالم الغيب والذات المقدسة ، لافي مرحلتي التقنين والتنفيذ ، ولا في مجال ضمان العدالة الاجتماعية . فالأنبياء ﷺ في الواقع يمثلون همزة الوصل بين عالمي الانسانية والغيب .

بعد هذه الاشارة العابرة نعود إلى القرآن الكريم ولنستمع خاشعين إلى الآيات الواردة في هذا المجال :

١ - ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١)

(الجمعه / ٢)

٢ - ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

(البقره / ١٢٩)

٣ - ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

(البقره / ١٥١)

٤ - ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾

(الحديد / ٢٥)

٥ - ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ

(١) قريب من هذا المعنى جاء في سورة آل عمران / ١٦٤ .

إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ... أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿

(الاعراف / ١٥٧)

٦ - ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿^(١)

(ابراهيم / ١)

٧ - ﴿وَمَا نُزِّلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿^(٢)

(الانعام / ٣٨)

٨ - ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴿^(٣)

(النساء / ١٦٥)

٩ - ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿

(البقره / ٢١٣)

١٠ - ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿

(ابراهيم / ٥٢)

١١ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُخَيِّبُكُمْ ﴿

(الانفال / ٢٤)

(١) قريب من هذا المعنى جاء أيضاً في (الحديد / ٥٧) و (الطلاق / ١١) و (ابراهيم / ٥) .
(٢) قريب من هذا المعنى بخصوص جميع الانبياء ﷺ جاء في (البقره / ٢١٣) و (الانعام / ٤٨) و (الكهف / ٥٦) وآيات اخرى .
(٣) قريب من هذا المعنى جاء في (طه / ١٣٤) و (القصص / ٤٧) .

تفسير وفذلكه (عشرة اهداف للبعثة) :

١ و ٢ - التربية والتعليم :

ورد في هذه الآيات عشر غايات لبعثة الانبياء ﷺ :

ففي الآيتين الاولى والثانية إشارة إلى هدفين رئيسيين من اهداف البعثة وفلسفة ارسال الرسل ﷺ ، ألا وهما « التربية والتعليم » .

اذ يقول تعالى اولاً : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ . ونظراً إلى كون التلاوة لآيات الحق تعالى بمثابة المقدمة بالنسبة للتزكية وتعليم الكتاب والحكمة ومحو آثار الضلالة والشرك ، يضيف تعالى قائلاً : ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ . صحيح ان الغاية الرئيسية من تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة هو تزكية وتطهير الروح والبدن والفرد والمجتمع ، وان تعلم الكتاب والحكمة له دور الطرقية ، وبمثابة مقدمة بالنسبة إلى التزكية ، لكنها مع ذلك تقدمت عليهما نظراً لأهميتها .

في حين أننا نجد الآية الثانية من آيات بحثنا التي تتعرض لدعاء ابراهيم عليه السلام في حق الأمة الاسلامية ، تقوم بتقديم « تعليم الكتاب والحكمة » على « التزكية » ، وتضع كلاً في مكانه الطبيعي له ، حيث تقول : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

أجل ، هذا هو طلب ابراهيم عليه السلام من الله تعالى للأمة الاسلامية واتباع محمد ﷺ ، حيث أبان الهدف من بعثة هذا النبي العظيم (وسائر الانبياء) بكل

وضوح .

إنَّ التأمل في هاتين الآيتين يكشف عن نكات جديدة بالاعتبار :

اولاً : العبارة الواردة في الآية الاولى دليل على معرفة الله تعالى من جهة ، وعلى النبوة الخاصة لنبي الاسلام ﷺ من جهة اخرى ، حيث تؤكد الآية بأن الله تعالى هو الذي بعث نبياً بهذه الخصوصيات وهذا لا يتم الا عن طريق القدرة الالهية فقط : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ ... ﴾ . وكذلك تقول بأنَّ النبي هو ذلك الشخص الذي ظهر من بين جماعة أميين ، لكنه على الرغم من ذلك فقد اصبح معلماً للمئات والآلاف ، ولقن أتباعه العلم والحكمة حتى ظهر من بينهم بعد فترة قصيرة أكابر العلماء الذين قاموا بتأسيس حضارة عظيمة مشرقة ، .

ثانياً : دار الحديث في كلتا الآيتين عن أربعة مواضيع « تلاوة آيات الله تعالى » و « تعليم الكتاب » و « تعليم الحكمة » واخيراً « التزكية والتطهير والتربية » .

إنَّ الحالة الطبيعية لهذه المواضيع الاربعة ، هي كما أشير اليها ، بأنه يجب ابتداءً أن يستأنس سمع الانسان بكلمات الحق تعالى ويتعرف عليها ليدرك بعد ذلك مضمون الكتاب من اعماق هذه الكلمات ، ثم يتعرف بعد ذلك على الحكمة أي الأسرار ، واخيراً يُطهر الروح والبدن .

هذا الترتيب الطبيعي ينعكس في الآية المرتبطة بدعاء ابراهيم عليه السلام : لكن « التزكية » قد تقدمت على « تعليم الكتاب والحكمة » في آية سورة الجمعة وكذلك الآية (١٦٤) من سورة آل عمران^(١) ، لكي تتبين هذه الحقيقة التي ترى بأن الهدف الرئيس من كل هذه المقدمات في تلك الآيات هو الطهارة والتقوى

(١) ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

وتربية الانسان ونمو المثل والقيم الاخلاقية والانسانية .

ثالثاً : نظراً لتقدم « التزكية » على « التعليم » في آيتين من القرآن الكريم وتأخرها عنه في آية واحدة ، يرد هذا السؤال وهو أيّ منهما يكون الاصل حقيقة والآخر فرع ؟

الجواب على هذا السؤال ليس بتلك الصعوبة كما تقدمت الإشارة الى ذلك لأن « العلم » له حيثية الطريقة المقدمة ، والهدف الرئيسي هو تربية الانسان وتزكية النفس وتكامل الروح . وبعبارة اخرى إنّ تلاوة آيات القرآن الكريم وتعليم العلم والحكمة كلها تهدف إلى هذا الهدف الأسمى وبناءً على ذلك تعدّ كل هذه مقدمة بالنسبة للتزكية التي تُعتبر ذي المقدمة . وما السبب وراء ذكر « التزكية » قبل « تعليم الكتاب والحكمة » في آيتين أخريين الا لبيان دورها الخطير هذا .

فضلاً عن ذلك ، فان كل واحد من هذين الأمرين يترك أثره على صاحبه ، أي إن الانسان لا يسعى وراء العلم مالم تتحقق مرحلة تزكية النفس . وما لم يتحقق العلم فسوف لن تحصل المراحل العالية من التزكية ، وبناءً على هذا فـ « التعليم » و « التزكية » لهما أثران متقابلان . كما يحتمل ان يكون الغرض من تنوع الآيات حول هذا الموضوع هو الفات النظر إلى هذا الأمر .

وينبغي ألا يخفى ان البعض من العلوم كالعلوم المرتبطة بالمعرفة بصورة عامة ومعرفة الله تعالى ونظائرها لها حيثية ذاتية وعينية ، أو بعبارة اخرى فهي مطلوبة بالذات ، في حين ان العلوم الاخرى ليس لها حيثية مقدمة فحسب . ولهذا يمكن ان يكون تنوع الآيات اعلاه إشارة إلى هذه الملاحظة ايضاً .

رابعاً : حول الاختلاف المحتمل بين « الكتاب » و « الحكمة » يعتقد البعض بأن الكتاب إشارة إلى القرآن الكريم ، والحكمة إلى الأحاديث والسنة

النبوية الشريفة ، او أنَّ « الكتاب » إشارة إلى مجموعة الاحكام والأوامر الالهية و « الحكمة » إلى أسرار تلك الأحكام وفلسفتها ، لأنَّ الاحاطة بتلك الأسرار تزيد من عزم الانسان على تنفيذها . كما إنَّ هناك احتمالاً آخر وجيهاً ايضاً وهو إنَّ ذكرهما معاً « الكتاب والحكمة » إشارة إلى مصدري المعرفة الرئيسيين أي « الوحي » و « العقل » .

خامساً : لفظة « الأميين » على حد قول الكثير من المفسرين ، إشارة الى أولئك الذين لا يجيدون القراءة والكتابة ويجهلون العلم والمعرفة على الإطلاق ، اي كأنما ظلوا كما ولدتهم أمهاتهم بالضبط لم يتغيروا قيد أنملة أبداً . وظهور النبي ﷺ بين قوم كهؤلاء هو دليل على عظمتة وصدق دعوته . لكن البعض من المفسرين اعتبر لفظة « الأميين » اشارة إلى اهل مكة التي كانت تسمى بـ « أم القرى » ، وربما قيل بأنَّ المراد من « الأميين » هم العرب وذلك لجهلهم بالقراءة والكتابة ايضاً .

لكن المعنى الأول اكثر تناسباً من تلك المعاني .

سادساً : إنَّ التعبير بـ « ضلال مبين » هو أفضل تعبير يعكس حالة العرب الجاهلية . فهم كانوا في ضلال ، وأي ضلال ، إنه ضلال مبين ظاهر بجميع أبعاده . ألم يكن وأد البنات وعبادة الأوثان والتعصبات القبلية المقيتة والحروب الدائمة والافتخار بالاغارة على الآخرين وامثالها ضلالاً مبيناً ؟ .

الآية الثالثة تشير ايضاً إلى مسألة التربية والتعليم التي حصلت عند المسلمين بواسطة نبيِّ الإسلام ﷺ مع هذا الفارق وهو التأكيد بصورة خاصة على العلوم والمعارف التي يستحيل كسبها بدون بعثة النبي ﷺ ، حيث تقول : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وتفسير هذه الآية كسابقاتها ، مع فارق وجود جملة في ذيلها تشير إلى ان نبيّ الأسلام ﷺ قد علّم الناس علوماً يستحيل الاطلاع عليها من دون الوحي . وهنا ينبغي ألا يفوتنا التفاوت الواضح بين جملة « لم تكونوا تعلمون » النافية لأمكانية التعلم و « لَمْ تَعْلَمُوا » النافية للعلم .

قال في « روح المعاني » بعد الالتفات إلى الجملة الأخيرة التي تشير الى العلوم التي لا يمكن اكتسابها إلا عن طريق الوحي على هذا فالجملة المشار اليها هي من قبيل ذكر الخاص بعد العام ^(١) .

لكن المرحوم الشيخ الطوسي في « التبيان » والشيخ الطبرسي في « مجمع البيان » سبقاه في التوجّه إلى هذه الملاحظة وأشارا إليها بعبارة مختصرة واضحة .

إنّ كتابنا السماوي القرآن الكريم يحتوي في الحقيقة على قسمين من العلوم ، فالقسم الأول هو من المعارف التي يمكن ان تكتسب عن طريق الاستدلال العقلي ، وإن كان القرآن قد عرض هذا القسم بشكل أكمل واكثر اطمئناناً من الاستدلال العقلي .

والقسم الآخر يستحيل اكتسابه بغير الوحي كما تقدم ، وهو الذي تم الاستناد عليه في الجملة الاخيرة (كالكثير من الحقائق المرتبطة بعالم ما بعد الموت والقيامة) ، او التواريخ المعتمدة للأقوام والأنبياء ﷺ السابقين والتي ضاعت على مرّ الزمن ، وكذلك العلوم والمعارف التي حُجبت عن انظار المفكرين في ذلك الزمان على أقل تقدير .

٣- إقامة القسط والعدل :

تَمَّت الإشارة في الآية الرابعة بشكل عام إلى أحد الأغراض الرئيسية من بعث الأنبياء ﷺ ألا وهو إقرار العدالة الاجتماعية ، وأنَّ نزول الكتاب والميزان بمثابة المقدمة له . يقول تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ .

لقد أُشير في هذه الآية إلى ثلاثة أمور بأعتبارها مقدمة لأقامة العدل . وهي « البيِّنات » التي تعني الأدلة كما لا يخفى ، والمشملة على المعاجز والأدلة العقلية على أحقية دعوة الأنبياء ﷺ وأخبار السابقين منهم ، و « الكتاب » الذي يشير إلى الكتب السماوية التي تحتوي على بيان المعارف والعقائد والأحكام والأخلاق ، و « الميزان » الذي يعني القوانين المميزة للخير من الشر والفضائل من الرذائل والحق من الباطل .

تمتع انبياء الله ﷺ بهذه القوى الثلاث التي تُمكنهم من دفع البشريَّة نحو إقرار العدالة . والملفُ للنظر هنا هو عدم نسبة إقامة العدالة إلى الأنبياء ، بل التصريح بأن المجتمعات البشرية تنشأ على نوع من التربية يدفعها بالنتيجة إلى إقامة العدالة بنفسها ! والمهم أيضاً هو ظهور هذه المسألة في المجتمع بصورة إرادية لا قهرية .

والتعبير بـ « الميزان » عن القوانين الألهية إنما هو لدورها المهم في المسائل الحقوقية المشابهة لدور الميزان في بيان وزن كل شيء كما هو عليه ، وإنهاء حالة الخلاف والنزاع القائمة . ونظراً لكون القوانين البشرية الوضعية نابعة من علم الانسان الناقص فلا يمكن الاعتماد عليها ولا يمكنها أبداً إقرار العدالة ، بل ينحصر تحقق هذا الأمر في القوانين الألهية النابعة من علم الله تعالى اللانهائي الذي لا يخالطه الخطأ والأشتباه ، ذلك العلم الذي تستند عليه النفس المؤمنة

وتركنُ اليه .

ويوجد أيضاً فريق لا يبالي بأي من هذه الأمور ، بل نراه يضع كل شيء تحت قدمه حفاظاً على مصالحه الشخصية ، فلا بد من مقاومة هؤلاء بقوة السلاح ، وما جملة « وانزلنا الحديد فيه بأس شديد » المتممة لهذه الآية الاشارة الى هذا الفريق الذي لا يعرف سوى لغة السيف .

ومع أن البعض قد ذهب إلى أن التعبير بـ « أنزلنا » يعني مجيء الحديد (الصخور الحديدية) إلى كرتنا الأرضية من غيرها ، لكن وروده في غير الحديد أيضاً لبعض من أنواع الحيوانات (الزمر / ٦)^(١) والألبسة التي تغطي بدن الإنسان (الأعراف / ٢٦)^(٢) يبين ان المراد منه هو الخلقة والأبداع الألهي في نفس الأرض ، ونزول هذه الموهبة الألهية من مقام الربوبية الشامخ إلى مقام الانسان الداني .

كما يُشاهد هذا التعبير أيضاً في المحاورات اليومية ، فحينما تصدر أوامر أو تبعث هدية من رئيس دولة مثلاً إلى مساعديه يقال بأن هذه الأوامر أو الهدية قد جاءت من المراتب العليا ! .

٤ - حرية الإنسان :

وأشير في الآية الخامسة إلى بُعد آخر من أبعاد فلسفة بعثة الأنبياء ﷺ ، ألا وهو نجاة الإنسان من مخالب الأسر والاستبداد ، يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ

(١) ﴿ وَآنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ... ﴾ (الزمر / ٦) .

(٢) ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (الاعراف / ٢٦) .

يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ» .

إنَّ القرآن الكريم يقيم عدة أدلة على أحقية النبي ﷺ بذكره لهذه الاوصاف . الأول : كونه أمياً ، فهل يمكن عرض كتاب كهذا أو علوم كهذه من قبل شخص لم يحضر حلقات الدرس ، والآخر : هو شهادة الأنبياء ﷺ السابقين على صدقه ، والثالث : إنسجام تعليماته مع أوامر العقل (اذ يستحيل ايجاد مذهب ورسالة لها مثل هذا الأنسجام مع حكم العقل ، والدعوة إلى الحسنات والنهي عن السيئات والتوجه نحو الفضائل ومقاومة الرذائل في محيط مليء بالخرافات والجهل والجاهلية والفظاظة) والدليل الرابع : بيان حرية الإنسان والسعي لانقاذه من مخالب الأسر فطالما كَبَّلَ الحكام الماديون الانسان بالأغلال والقيود لتقوية مكانتهم ، وأجازوا أنواع العذاب في حقه ، بل قد سلبوا حريته بأسم الحرية ، ولم تكن هناك مدرسة تنادي بخلاص الإنسان من ظلم الطواغيت وتحريره سوى مدرسة الانبياء ﷺ .

والجدير بالذكر هو أن كلمة « إصر » على وزن (مِصر) التي تعني عقد الشيء وحبسه وقهره على حد قول الراغب في مفرداته وقد فسرها البعض بالحبس المؤكد أيضاً ، ثم استعملت في لوازم هذا المعنى ^(١) (مثل العهد والميثاق وثقل الذنوب والحبل الذي تربط به الخيام وأمثال ذلك) وجاءت هنا كناية عن أنواع القيود التي تُثقل كاهل الانسان .

و « الأغلال » جمع « غل » وهي مشتقة في الأصل من مادة « غَلَلَ » المأخوذة من النفوذ التدريجي للأشياء كنفوذ الماء الجاري وسط الأشجار .

(١) مفردات الراغب ومقاييس اللغة والتحقيق في كلمات القرآن الكريم .

ونظراً لكون « الغل » تلك الحلقة التي تحيط بالرقبة او بهامع اليد والرجل مجتمعة فقد سُميت « غلا » وأحياناً يطلق عليها « الجامعة » لنفس ذلك الغرض أيضاً .
أكثر ما أستعمل القرآن الكريم هذه المفردة فيما يتعلق بـ « طوق العنق »
ولذا قالوا : هي الأغلال التي في أعناق الكفار .

على أية حال ، فقد وردت هنا كناية عن أغلال الأسر . والغريب إنَّ الكثير من المفسرين قد اعتبر « الإصر » و « الأغلال » إشارة إلى التكاليف الشاقة التي فرضها الله تعالى على اليهود ، وإنَّ نبيَّ الإسلام ﷺ قد رفعها بشريعته السهلة السمحاء في حين انه لا يوجد أي دليل على هذا التقييد والتخصيص ، إذ أنَّ للآية مفهوم أوسع وأشمل لكل أنواع الأحمال المعنوية الثقيلة والتي منها :
قيود الأسر .

قيود عبادة الأوثان والخرافات والعادات والتقاليد الخاطئة .

قيود الجهل والضياح .

قيود أنواع التفرقة والحياة الطبقيّة .

قيود القوانين الخاطئة .

وقيود الأسر والاستبداد بين أنياب الطواغيت .

لقد أعاد نبيُّ الإسلام ﷺ وسائر الأنبياء ﷺ الحرية الواقعية إلى الانسان وذلك برفعهم لهذه الأثقال وفكّهم لتلك القيود والأغلال عنه ، فقد دعوه الى حرية التفكير والتأمل والتحرر من أطماع واهواء النفس ، التحرر من قبضة الحكام الظالمين والتحرر من حبال الشياطين والطواغيت والتحرر من سيطرة الخرافات والالوهام وعبادة غير الله تعالى .

من المسلمَّ عدم إرتياح الطواغيت لتحرر الآخرين وذلك لرغبتهم في تسخيرهم لتحقيق اغراضهم الشخصية ولازالت في عصرنا الحاضر الذي يدوي

فيه شعار حرية الإنسان في أقصى نقاط المعمورة تفرض على الإنسان تلك القيود والأغلال والأحمال الثقيلة التي تعود إلى العصر الجاهلي بعناوين جديدة . فالقوى العظمى تسعى دائماً وبصورة علنية للسيطرة على الشعوب واسترقاقها وتسخيرها مستخدمة كافة الوسائل سواء العسكرية أو الاعلامية أو بنشر الوان المفاسد الاخلاقية ، وقد بلغ ظهور هذا الأمر اليوم حدّاً يستحيل انكاره بل لا يكاد يخلو منه التأريخ المعاصر هنا وهناك وهو يسعى لتحطيم شعارات الحرية الخلاية .

أجل فإنّ أحد الاغراض الرئيسية وراء بعث الأنبياء ﷺ هو انقاذ الإنسان وتخليصه من أسر العبودية المقيتة .



٥ - النجاة من الظلمات :

وذكر في الآية السادسة الهدف وراء البعثة ونزول القرآن المجيد وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، يقول تعالى : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ .

و«الظلمات» نظراً لورودها بصيغة الجمع فأنها تتمتع بمفهوم واسع وشامل لكل انواع الظلمات : ظلمة الشرك والظلم والجهل وهوى النفس ، وأنواع الحجب التي تُسدل على قلب الإنسان والظلمات التي تخيم على المجتمعات . فالهدف من نزول الكتب السماوية هو إخراج الإنسان من كلّ هذه الظلمات والأخذ بيده نحو نور التوحيد والتقوى والعدل والأنصاف والأخوة و... واللطف هنا مجيء «الظلمات» بصيغة الجمع و«النور» بصيغة المفرد ، وذلك لأنحصار طريق التوحيد والحق في واحد ليس إلا ، وهو ذلك الخطّ

المستقيم الذي يربط بين المبدأ والمعاد دون طرق الضلال المتشعبة . فنور الإيمان والتقوى هو أساس الوحدة والاتحاد ، أما ظلمات الشرك وإتباع الهوى والطغيان فهي السبب الأساس في الاختلاف والحيرة والضياع .

وحصر بعض المفسرين « الظلمات » بـ « الشرك » ، و « النور » بـ « التوحيد » فقط لا يستند إلى دليل ، إذ ليس ما ذهبوا إليه إلا أحد المصاديق الواسعة للآية . وبناءً على هذا فأحد أهداف البعثة هو نجاة الإنسان من الظلمات الفكرية والعقائدية والاخلاقية والعملية ، وهدايته نحو النور والحياة الواقعية .

ويمكن أيضاً إيراد هذا الهدف في أهداف التربية والتعليم وإقامة العدل والحرية ، أو العكس ولكن نظراً لورود كل هدف على حدة في القرآن الكريم ، فقد راعينا عرضها بصورة مستقلة أيضاً .

والنور والهداية لا يختصان بالقرآن الكريم فحسب بل قد ورد تعبير « النور » في حق النبي ﷺ أيضاً في (الأحزاب / ٤٤)^(١) .

والتعبير بـ « الناس » على ما ذهب إليه تفسير الميزان ، هو لبيان إنَّ الهدف من بعثة نبي الإسلام ﷺ هو لهداية عامة الناس (في كل زمان ومكان ما دامت السماوات والأرضون) والتعبير بـ « بأذن ربهم » هو لبيان أنَّ هداية الأنبياء ﷺ هي في الواقع جزء من « ربوبية الباري جلّت قدرته » وفي مساره الذي يرتضيه هو ، انسجام الربوبية في عالم التشريع مع ربوبيته في عالم التكوين .

(١) ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (الاحزاب / ٤٤) .

٦ - البشري والانذار :

مع ان الترغيب بانواع الهبات المادية والمعنوية الالهية و الترهيب والاذنار من العقاب الشديد النفسي والبدني هما الطريق إلى التربية والتعليم ، والعامل المساعد للأخراج من الظلمات إلى النور ، لكن نظراً لتركيز القرآن الكريم عليهما كثيراً يمكن اعتبارهما أحد أهداف ظهور الأنبياء ﷺ .

وفي الآية السابعة من آيات البحث تمت الإشارة إلى هذا الأمر إذ قال تعالى : ﴿ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ .

هذه الآية ونظائرها التي تعتبر « بشارة » و « إنذاراً » هي بمثابة برنامج رئيسي للأنبياء ﷺ ، وتعد أيضاً رداً على أولئك الذين يعتبرون الأنبياء ﷺ آلهة ويرجون منهم اظهار كل أنواع القدرة الالهية ، وعلى أولئك الذين تنكروا لدعوتهم وخالفوهم في المسير إذ يؤكد الله تعالى بأن وظيفة الأنبياء ﷺ هي البشري والاذنار فقط ، أما باقي الأمور فهي موكولة إليه تعالى وبأن الهداية مرتبطة بالناس أنفسهم كما في الآية : ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ففي الواقع يمكن حصر كل الدوافع الإنسانية في هاتين الجملتين المعروفتين : « جلب المنفعة » و « دفع الضرر » . (الأعم من المادية والمعنوية) . وقد ركزت « البشارة » و « الانذار » عليهما ، كما أنهما بمثابة الأساس الذي تعتمد عليه كل تربية إلهية وبشرية مادية ومعنوية .

البشارة لا تكفي لوحدها وكذلك الانذار ، بل لابد من حاكميتهما معاً على حياة الإنسان وفي كل مراحل التربية منذ نعومة أظفاره حتى الرmq الأخير . والذي يلتزم بأحدهما دون الأخرى سيفشل في برامجه ، اذ كما أن التشويق يعدّ عاملاً محرّكاً ، فكذلك التهديد يعد رادعاً قوياً بالنسبة للمعاندين .

٧ - إتمام الحجة :

من الطبيعي إنَّ فريقاً من المتكبرين والمعاندين الذين يرون دعوة الأنبياء ﷺ مخالفة لأغراضهم الشخصية يمتنعون عن قبولها ويقفون منها موقفاً سلبياً ، فلولم يبعث الله تعالى نبياً لاحتمل ادعاؤهم يوم القيامة قبول الرسالة على فرض وجود النبي وانهم سيؤمنون به ويجاهدون في سبيله وو...

ولهذا السبب ، يعدّ إتمام الحجة على هذا الفريق وكل المخالفين أحد أهداف بعثة الأنبياء ﷺ ، وإتمام الحجة هذا يعكس العدل الألهي أولاً ، ويقطع الطريق أمام إدعاءات الكذابين الجوفاء ثانياً ، أو بعبارة أدق ينقل مسألة إستحقاق هذا الفريق للعقاب من مرحلة « الأستعداد والقوة » إلى المرحلة « الفعلية » .

ولذا قال تعالى : ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ . كما ورد نظير هذا المعنى في آيتين أخيرتين يتحد مضمونهما في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ (طه / ١٣٤) وورد قريب من هذا المعنى في سورة (القصص / ٤٧) أيضاً^(١) .



٨ - رفع الاختلاف :

المجتمعات البشرية كانت ولا تزال تعاني الاختلاف وتحترق بناره ، وتُضَيِّعُ المزيد من القدرات والأمكانيات الهائلة بسببه ، تلك الأمكانيات التي لو

(١) ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وضعت في مكانها المناسب لغدت الدنيا جنة الفردوس .

ومن جهة أخرى فإنَّ عجز الناس عن رفع الاختلاف الناشيء بينهم أمرٌ جلي ، لأنَّ علمهم بالحقائق من كافة الجهات محدود بالاضافة إلى التكبر الذي يحول دون التنازل للغير . أما الانبياء ﷺ الذين ينبع علمهم من بحر علم الله تعالى اللامتناهي والذين يفوقون مستوى البشر ، فإنَّهم يتمكنون من أداء دور فعال في حل تلك الاختلافات وازالتها .

صحيح أنَّ عالم الماديات هو عالم الحُجب ، اذ لا يمكن رفع الاختلاف كلياً بين الناس بأيّ طريقة ، ولكنّه من المؤكد إمكان إزالتها نسبياً في ظل تعاليم الانبياء ﷺ .

ولذا أشارت الآية التاسعة من البحث إلى هذا الهدف ، قال تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُخَكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ .

و « الأمة » في الأصل على ما ذهب اليه الراغب في مفرداته كل جماعة يجمعهم أمرٌ ما ، إمّا أن يكون دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع قسرياً أو اختياريّاً ، وجمعها أُمم .

لكنَّ هذه اللفظة وردت بمعنى العقيدة أيضاً (الزخرف / ٢٢ و ٢٣)^(١) وأحياناً جاءت بمعنى نفس الزمان (يوسف / ٤٥)^(٢) و (هود / ٨)^(٣) ، وفي

(١) ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثِرِهِم مُّقْتَدُونَ * وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثِرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ .

(٢) ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ .

(٣) ﴿ وَلَئِن أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَخْبِئُهُ الْآيُومَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

الآية مورد البحث يبدو أنَّ « الأمة » جاءت بمعنى الجماعة الواحدة .

لكن ماهي هذه الأمة الواحدة التي عاشت في بداية الخلقة ياترى ؟ وما هي عقيدتها ؟ يوجد بين المفسرين حديث طويل وعريض حول هذا الموضوع ، ولهم احتمالات عديدة في تفسير هذه الأمة ومصيرها ، واهمها ثلاثة احتمالات :

الأول : أنَّها كانت أمة مهتدية ، وكانت هدايتها نابعة من الفطرة الالهية المكنونة لديها ، ثم اختلفت ذلك الاختلاف الناشيء من علمها المحدود ، وذلك لعجز أحكام الفطرة والمستقلات العقلية عن الأخذ بزمام الأمور لوحدها . ومن هنا بعث الله تعالى الأنبياء ﷺ إلى البشرية لتخليصها من مشكلة الاختلافات الناشئة من الجهل ومحدودية معرفتها .

فجاء الأنبياء ﷺ ووضعوا حداً لهذه الاختلافات وبيَّنوا الحقائق ، لكنَّه ظهر بعد ذلك إختلاف آخر نشأ من البخل والظلم والفساد . وهنا أيضاً شملت الألفاف الالهية المؤمنين المخلصين ، فسلخوا الطريق إلى الحق مهتدين بنور إيمانهم وتقواهم إلى أن بلغوا الصراط المستقيم ، بينما بقي الآخرون غارقين في ظلمات الاختلاف .

وطبقاً لهذا التفسير ، فالأمة الواحدة التي ظهرت أولاً كانت على الحق ، لكنَّ محدودية إدراك العقل البشري تسببت في الاختلافات . ثم أعلن الأنبياء ﷺ عن خاتمة هذه الاختلافات عن طريق الوحي المعصوم من الخطأ ، لكنَّ هوى النفس والميول والتكبر والعجب كان السبب وراء بروز إختلافات جديدة . ولم ينبج من هذه الاختلافات سوى المؤمنون الصالحون .

والدليل على هذا التفسير هو مضمون الآية التي تذكر نوعين من الاختلاف في الأمة ، الاختلاف الذي كان السبب وراء بعثة الانبياء ﷺ لرفعه ،

والأختلاف الذي ظهر بعد نزول الكتب السماوية والبيانات . أمّا إصرار بعض المفسرين على كون هذه الأمة الواحدة ضالّة منحرفة بمجموعها منذ البداية لا ينسجم مع لحن الآية وفطرة الإنسان التوحيدية التي يصرح بها القرآن (خصوصاً تلك الفطرة الملموسة عند الناس السذج في أوّل الخلق الذين لم تكن الميول والرغبات النفسانية قد هيمنت عليهم بشكل خطير بعد) .

أما فيما يتعلق بالعصر الذي استوعب المجتمع البشري الأول الذي عبر عنه القرآن بـ « الأمة الواحدة » ، فقد ذهب البعض إلى أنّه إشارة إلى الفترة ما قبل قيام نوح عليه السلام وبعد هبوط آدم عليه السلام وبناءً على هذا فـ « الأمة الواحدة » هي نفس تلك الأمة التي ظهرت منذ زمن تناسل ذرية آدم عليه السلام ، والتي كان الإيمان والتوحيد حاكمين عليها إلى أن اتسعت فيها آثار الشرك يوماً بعد آخر ، بسبب الجهل وقلة المعرفة ، مما هيأ الأرضية المناسبة لرسالة نوح عليه السلام .

ومن الطبيعي أنّ إستثناءً من قبيل وجود « قابيل » بين أولاد آدم عليه السلام لا يحول دون إطلاق كلمة « الأمة الواحدة » على مجموعة أولاده . وهناك احتمالات أخرى حول هذا الموضوع لا تناسب بالغرض بحسب الظاهر .

على أية حال يستفاد من مجموع ما جاء حول تفسير الآية اعلاه بأنّ أحد أهداف بعث الأنبياء عليهم السلام هو رفع الاختلافات الناشئة من جهل الناس . ولا يخفى أيضاً أنّ الاختلافات الناشئة من هوى النفس والعُجب والتكبر ستبقى مابقي الإنسان بالرغم من أنّ الأنبياء عليهم السلام قد خفضوا من نسبتها بتعليماتهم القيّمة .

٩ - التذكر (بالنسبة للبديهيّات والمستقلات العقلية) :

تمتّ الإشارة في نفس هذه الآية إلى أنّ أحكام الأنبياء عليهم السلام وتعليماتهم

تؤيد أحكام العقل وتدعمها ، وهذه بنفسها أحد أهداف بعثتهم .
وتوضيح ذلك أنَّ الإنسان يدرك الكثير من « حقائق » الكون وكذلك « ما ينبغي » و « ما لا ينبغي » بواسطة عقله . لكنَّ هناك وساوس مزمنة كامنة في هذه الإدراكات العقلية ، خصوصاً إشكالات السوفسطائيين أو الطوائف المنكرة للحسن والقبح العقليين وأمثالها التي تؤدي إلى إضعاف العقل وبالتالي النظر إلى هذه الإدراكات والمستقلات العقلية نظرة سلبية .

وهنا يستوجب اللطف الإلهي إرسال الأنبياء ﷺ ليؤكدوا ضمن دعوتهم إلى الله تعالى صحة هذه الإدراكات العقلية وعلى أنَّ الفتن الواقعية إنما هي من فعل العقل البشري ، وذلك من خلال بياناتهم النابعة من الوحي السماوي ، ويقطعوا الطريق أمام الوسوس التي تعترض هذه الإدراكات .

هذا هو الذي عبَّر عنه القرآن بـ « التذكر » . يقول تعالى في الآية مورد البحث : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ والتعبير بـ « الذكر » كثير جداً في القرآن ، ومجموع ما ذكر إثنان وخمسون مرّة في مختلف الآيات والتي تشير أغلبها إلى القرآن الكريم .

أمّا التعبير بـ « ذكر » (مخاطبة النبي بصيغة الأمر) فقد جاء في ستة موارد ، وتعبير « يتذكر » في ثمانية موارد ، و « تذكرون » في سبعة عشر مورداً ، و « يتذكرون » في سبعة موارد ، وما أكثر مشتقات هذه المادة في القرآن الكريم والتي تُبين بمجموعها بأنَّ قسماً عظيماً من تعليمات الأنبياء ﷺ لها صبغة تذكيرية وإعادة المنسيات إلى الأذهان على أقل تقدير .

يُستفاد من كلمات بعض أرباب اللغة أنَّ « الذكر » لا يعني العلم والمعرفة ، بل يعني « إعادة الأطلاع على الشيء » ، يقول الراغب في مفرداته بعد مقارنته بين « الذكر » و « الحفظ » : « التفاوت بينهما هو أنَّ الحفظ يقال إعتباراً بالأحراز ،

والذكر يقال إعتباراً بالأستحضار» ، ثم يضيف قائلاً : الذكر ضربان : ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن ادامة الحفظ .

وهذا التعبير يُبيِّن أنَّ الذكر هو في كل الأحوال نوع من الألتفات المستأنف للشيء الذي كان ساكناً في الذهن سابقاً ، سواء كان بعد النسيان أم لا . وقد ورد «الذكر» بمعنيين أيضاً في «مقاييس اللغة» : الأول إشارة إلى الجنس المذكر في قبال الجنس المؤنث ، والثاني ما يقابل النسيان .

إنَّ هذه التعابير القرآنية يمكنها أن تكون إشارة إلى ما ذكر أعلاه ، وهو أنَّ الإنسان يدرك سلسلة من الحقائق عن طريق العقل ، كما ويحصل على القسم الأعظم من (ما ينبغي) و (ما لا ينبغي) الذي يُعدُّ من المستقلات العقلية كحسن أنواع الأحسان وقبح أنواع الظلم والفساد . لكنَّ الشك والترديد يراود هذه البديهيات أحياناً بسبب وساوس الشياطين .

وهنا يأتي دور الأنبياء ﷺ لمساعدة الناس وتأيد هذه الإدراكات العقلية ، إذ يبطلون مفعول هذه الوسوس ، أو بعبارة أخرى يعيدون هذه الأمور الى الأذهان .

بعض الفلاسفة كأفلاطون وأتباعه يعتبرون العلوم الأنسانية ضرباً من الذكريات ، ويعتقدون بأنَّ الروح الأنسانية قبل نزولها إلى هذا العالم كانت تدرك كل هذه الحقائق ولكن حجب عالم المادة تسببت في نسيانها ^(١) وبناءً على هذا فالتعلم والتعليم سواء أكان عن طريق الأنبياء والرسل ﷺ أم عن طريق التجربة وشرح الأستاذ لا تخرج عن كونها ضرباً من التذكر والتذكير ليس إلا .

ومن البديهي عدم وجود دليل واضح يدعم هذا الادعاء بهذه السعة ، بل

(١) لمزيد من الاطلاع راجع « سير حكمت در أوروبا » الجزء ١ الصفحة ٢٣ ، مبحث فلسفة أفلاطون .

الصحيح هو ما تقدّم أعلاه من أنّ قسماً من معلومات الإنسان تحصل عن طريق الفطرة أو العقل ، وأحياناً تودع في زاوية النسيان والأهمال ، أو تجد الوسواس طريقها إليها فمهمة الأنبياء ﷺ حينئذٍ بالإضافة إلى تعليم الناس مسائل جديدة ، تقوية بنية مثل هذه الأحكام الواقعية وتصفيتها من الوسواس التي تخالطها .

كما يستفاد من الآية أعلاه أنّ دور الأنبياء ﷺ يكمن في أربعة أشياء الأول إبلاغ الدعوة الألّهيّة للبشرية جمعاء والثاني إتمام الحجة ، والثالث الأّذار (والتبشير) ، وأخيراً التعليم والتذكير وقد تمت الإشارة إليها في الآيات السابقة أيضاً .



١٠ - الدعوة إلى الحياة الأنسانية :

تمّت الإشارة في الآية الحادية عشرة من آيات بحثنا إلى ملاحظة مؤيّدّة من قبل الأهداف المتقدمة ، وهي أنّ الانبياء ﷺ يدعون البشرية إلى حياة واقعية كاملة جامعة قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ .

وهذا التعبير هو أقصر وفي نفس الوقت أشمل تعبير ورد بحق دعوة نبي الاسلام ﷺ (ودعوة كافة الأنبياء ﷺ) والذي يؤكد على إنّ هدف البعثة هو الحياة في كافة أبعادها : المادية والمعنوية والثقافية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والاجتماعية .

مع ان الحياة في آيات القرآن قد وردت بمعنى الحياة النباتية (الحديد /

(١٧) (١) وأحياناً الحياة الحيوانية (فصلت / ٣٩) (٢) ، لكنّها وردت هنا بمعنى الحياة الأنسانية ، قال تعالى (في بعض المؤمنين الذين آمنوا :) « أو من كان ميتاً فأحييناه ... » (الأنعام / ١٢٢) .

وبناءً على هذا فلو رأينا البعض يعتبر الآية المعنية ناظرة إلى « الجهاد » لوحده باعتباره الأساس لحياة الأمم ، أو « الأيمان بالله » أو العلم والمعرفة أو الحياة الأخروية ، فهم في الواقع إنما يحددونها في بعض مصاديقها فحسب ، وإلا فمفهومها أوسع وأشمل من هذه كلها .

والملفت للنظر أنّ الحياة في هذه الآية قد فسّرت في الروايات (٣) بمعنى ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام ، وهي في الحقيقة أحد مصاديقها الهامة وذلك لأن ولايته عليه السلام هي السبب للدعوة إلى الإسلام في كافة المجالات ، فولايته دعوة إلى العلم والزهد والتقوى والأيثار والأخلاص .

ثمرة البحث :

بالرغم من إمكان إدغام الأهداف العشرة أعلاه في بعض الأحيان في ستّة وهي (التعليم ، وتهذيب النفس وإقامة القسط والحرية وإتمام الحجة ورفع الاختلاف) ، لكن نظراً لأهمية الموضوع فقد تطرق إليها القرآن كلّ على حده . وعند الجمع يبدو واضحاً للعيان أنّه لولا وجود الأنبياء عليهم السلام وأديانهم المقدسة

(١) ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُخِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .
(٢) ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

(٣) نور الثقلين ، الجزء ٢ الصفحة ١٤١ الحديث ٥٠ و ٥٢ .

في المجتمع البشري منذ اليوم الأوّل ، لما علم مصير الإنسان ، وما هو العالم المرعب الذي ينتظرنا اليوم لو إبتعد الإنسان كلياً عن دعوة الانبياء ﷺ وحلّت القيم القاسية المظلمة المادية محلّ القيم الألهية الواردة في دعوة الانبياء ﷺ ونحنُ نشهد آثارها متجسدة في الكثير من الدول حتى يومنا هذا ؟ ! .

كما يمكن الاستنتاج من الشرح أعلاه أنّ الدين والمذهب على خلاف ما يراه الكثير من البسطاء وضعفاء النظر ، أنّه لم يَعدْ مسألة شخصية خاصّة ، بل حقيقة لها وجودها ودورها الفاعل في كافّة أبعاد حياة الإنسان ، وأنّها تضيف على كافّة شؤون الحياة صبغة إلهية وإنسانية .

إنّ الشعار الذي ترفعه اليوم كل القوى العظمى في العالم أي الدول التي يصطلح عليها بالمتطورة ، هو الحفاظ على منافعها الخاصة فإنّ كلّ خطوة تخطوها تعلن بكلّ صراحة أنّها إنّما تخطوها لأجل المنافع المادية للدولة . فليس من الغريب كون عالم كهذا بؤرة للقلاقل ومركزاً للصراعات وانواع الظلم والأعتداء ، ونقض العهود والاستعمار وإستثمار المستضعفين ، وذلك لأنّ الهدف الرئيسي هو حفظ المنافع الشخصية والوطنية لا حفظ المثل والقيم كالعدالة الاجتماعية واقامة القسط والحرّية والأخلاق الإنسانية . إذ أنّ مثل هذه القيم لا توجد إلا بمعية دعوة الانبياء ﷺ لا غير .

توضيحات :

١ - فلسفه بعثة الرسل في الروايات الإسلامية :

ما تقدم في الآيات أعلاه حول أسباب بعثة الانبياء ﷺ وأهدافها ، قد تم ذكره في الروايات الإسلامية بتعابير أخرى لا تخلو بنفسها عن فائدة قصوى . وكنموذج على ذلك يمكن التأمل في البعض من الروايات أدناه والتي تنظر كل واحدة منها إلى هدف واحد أو أكثر :

١ - جاء في الحديث : عندما أعلن النبي ﷺ عن دعوته . جاء أشراف قريش إلى أبي طالب وقالوا له : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك يتهمنا بالسفّه ويطعن في آلهتنا ويفسد شبابنا ويحدث التفرقة بيننا لو كان ينبغي مالا لجعلناه أغنى رجال قريش أو جاهاً لأمرناه علينا ! فذهب أبو طالب إلى النبي ﷺ وأخبره بذلك ، فقال ﷺ : « لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي مَا أَرَدْتُهُ ، وَلَكِنْ كَلِمَةً يُعْطُونَهَا يَمْلِكُونَ بِهَا الْعَرَبَ وَتَدِينُ بِهَا الْعَجَمُ وَيَكُونُونَ مُلُوكًا فِي الْجَنَّةِ .

فَقَالَ لَهُمْ أَبُو طَالِبٍ ذَلِكَ . فَقَالُوا نَعَمْ وَعَشَرَ كَلِمَاتٍ . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ : تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْبِي رَسُولُ اللَّهِ » (١) .

هذا الحديث يكشف بكل وضوح أن قبول دعوة الأنبياء ﷺ يُعدّ في الحقيقة نصراً في الدارين وعزاً وحريةً وحياةً راضية مرضية .

٢ - وفي حديث آخر عن هشام بن الحكم عن الإمام الصادق عليه السلام روي

(١) نور الثقلين الجزء ٤ الصفحة ٤٤٢ ، الحديث ٧ في ترجمة علي بن ابراهيم الجزء ٢ الصفحة ٢٢٨ .

انه ﷺ وفي معرض الرد على سؤال أحد الكفار والزنادقة حول الغرض من بعثة الأنبياء ﷺ قال « إِنَّا لَمَّا أَثَبْنَا أَنَّ لَنَا خَالِقًا صَانِعًا مُتَعَالِيًا عَنَّا وَعَنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ ، وكان ذلك الصانع حكيمًا مُتَعَالِيًا لم يَجْزْ أَنْ يَشَاهِدَهُ خَلْقُهُ ، ولا يَلَامِسُوهُ ، فيبَاشِرُهُمْ وَيَبَاشِرُوهُ . وَيُحَاجُّهُمْ وَيُحَاجُّوهُ ثَبِتَ أَنْ لَهُ سَفَرَاءَ فِي خَلْقِهِ يُعَبِّرُونَ عَنْهُ إِلَى خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ وَمَا بِهِ بَقَاؤُهُمْ وَفِي تَرْكِهِ فَنَآؤُهُمْ » (١) .

٣- ورد في نهج البلاغة بيان جذاب لأمر المؤمنين ﷺ حول فلسفة بعثة الأنبياء ﷺ حيث يقول : « قَبَعَتْ فِيهِمْ رُسُلَهُ ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَائَهُ ، لِيَسْتَأْذُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ » : (٢) .

٤- وفي حديث آخر جاء عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّمَا بَعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ (٣) . وقريب من هذا المعنى ورد في حديث آخر عنه ﷺ انه قال : بَعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ (٤) .

٥ - جاء عن الإمام علي عليه السلام في كتاب فروع الكافي أَنَّهُ خَطَبَ ذَاتَ مَرَّةٍ فَقَالَ فِيمَا قَالَ : أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ عِبَادِهِ إِلَى عِبَادَتِهِ وَمِنْ عُهْدِ عِبَادِهِ إِلَى عُهْدِهِ ، وَمِنْ طَاعَةِ عِبَادِهِ إِلَى طَاعَتِهِ ، وَمِنْ وَلَايَةِ عِبَادِهِ إِلَى وَلَايَتِهِ ، بِشِيرٍ وَنَذِيرٍ وَدَاعِيٍّ إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٥) .

(١) الكافي الجزء ١ الصفحة ١٦٨ ، كتاب الحجة باب الاضطرار إلى حجة الحديث ١ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبه ١ .

(٣) طبقات ابن سعد الجزء ١ الصفحة ١٩٢ (ط . بيروت) .

(٤) كنز العمال الجزء ١١ الصفحة ٤٢٠ الحديث ٣١٩٦٩ .

(٥) فروع الكافي الجزء ٨ الصفحة ٣٨٦ الحديث ٥٨٦ .

٢- الغاية من بعث الرسل في منظار العقل :

الف - عجز الإنسان عن التقنين الدقيق :

هناك علاقة قوية وواضحة جداً لبعثة الانبياء ﷺ مع مسألة الهدف من خلق الإنسان ، ولا يمكن لأحد الجمع بين الإيمان بالله وبين إنكار حكمته في كل الكون خصوصاً خلقه الإنسان بناءً على هذا فلا بد من وجود هدف وراء خلق الإنسان ، وليس هذا الهدف سوى تربية مخلوق كامل يشع منه نور من صفات جمال الحق وجلاله ، ويليق بنيل القرب الألهي .

وبديهي أن تربية موجود كهذا بدون تخطيط دقيق ومسبق في كافة أبعاد الحياة غير ممكن ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فهذه البرامج ليست بتلك السهولة التي يمكن للإنسان الأحاطة بجميع أبعادها مستعيناً بعقله الناقص ولعدم تمكن الجميع من التعامل مع الوحي الألهي بصورة مباشرة .

ويُفهم من هذه المقدمات التي أُشير إلى كل منها بصورة مختصرة ، بدهة أن يختار الله تعالى نواباً من قبله ليحملوا مشعل الهداية الألهي إلى المجتمع البشري ويأخذوا بأيديه من الظلمات إلى النور ، ومن النقص إلى الكمال ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الانحراف إلى التقوى ومكارم الاخلاق . ولا يخفى ان عدم تحقق هذا المعنى يؤدي إلى عبثية خلق الإنسان وانتفاء الغاية والهدف .

وحيث أن الإنسان مدني بالطبع مستأنس بالحياة الجماعية ، فقد زرع الله تعالى حب مثل هذه الحياة في باطنه ليقوده عن طريقها نحو الهدف الأسمى ، إذ أن محدودية القوة البدنية والفكرية للإنسان المنزوي لا يمكن إنكارها . فلو عاش لوحده بعيداً عن أفراد نوعه لما وجدت هناك حضارة ولا إختراع وإكتشاف ولا

علوم ومعارف ، إذ أنَّ تراكم عقول وأفكار وتجارب الأنسان هي السبب وراء ظهور قوة عظيمة وتوفير الأرضية المناسبة للحركة التكاملية في تمام الجوانب المادية والمعنوية وبسرعة خاطفة .

فلو عاش الأنسان على إنفراد لبقى لحد الآن في العصر الحجري ، ولما تعلم القراءة والكتابة على اكبر الظن ، فضلاً عن كل هذه العلوم والأختراعات والأكتشافات . وخلاصة القول هي أنَّ أكبر انجازين للأنسان هما حرية التفكير ، والتمتع بالابتكار والخلقيّة ، فضلاً عن الرغبة في حياة إجتماعية في المرحلة المتقدمة .

لكنَّ من الواضح جداً أنَّ الحياة الجماعية مع كل ما تحمله من بركات هي السبب من جهة أخرى وراء خلق المشاكل والمصادمات والقتلاقل وتضارب الأهواء الشخصية . وإنَّ طيَّ المسير التكاملي إنَّما يتسنى لذلك المجتمع الذي تشخص فيه واجبات كل فرد وحقوقه . ومن هنا تظهر الحاجة إلى سنِّ القوانين الإجتماعية وتنظيم حقوق أفراد المجتمع فالقانون هو الذي يُعين واجبات كل فرد بالضبط كما يعين حقوقه ، وأخيراً يقدم خطة القضاء على المشاكل وحل الخصومات ويُبين كيفية مواجهة التخلفات والانحرافات .

وبناءً على هذا فالحياة الجماعية بدون القانون السليم والنظام الصحيح هي أسوأ من الحياة الفردية بعدة مراتب ، وذلك لزوال منافع المجتمع وبسبب التناقضات .

ولبَّ الكلام يكمن في السؤال عن الطرف الذي يسنُّ هذه القوانين ، فهل هو الانسان أم الخالق ؟.

ويمكن الأجابة على هذا السؤال بتحليل مختصر : وهي ان المقنن الكامل يجب أن يتمتع بالشروط أدناه ليتمكن من سنِّ أفضل قانون :

١ - يجب قبل كل شيء ان يكون المقنن خبيراً بالإنسان عالماً بكل أسرار بدنه ونفسه وعواطفه وغرائزه وميوله وأهوائه وأمنيته وفطرته وإدراكاته العقلية ، وكذلك محيطاً بكل الأصول الحاكمة على الروابط التي تجمع الناس مع بعضهم البعض ليتمكن على ضوءها من وضع قوانين تنسجم معها .

٢ - يجب أن يكون له إطلاع تام بالماضي والمستقبل البعيدين ، ليقف على جذور مسائل اليوم المعقدة من خلال الماضي ، ويتمكن من تقييم آثار قوانين اليوم على مستقبل الحياة البشرية ، نظراً لأستحالة إمكانية حل مشاكل اليوم مع الجهل بجذورها الماضية ، كما هو الحال تماماً في إستحالة فائدة قوانين اليوم مع عدم الأخذ بنظر الاعتبار مضاعفاتها في الغد (تأمل جيداً) .

٣ - المقنن المناسب يجب أن يتمتع بـ « علم كامل » ليتمكن عن طريق قوانينه من إخراج كل القابليات والأمكانات المغمورة في داخل أفراد المجتمع إلى حيّز الوجود ، ويضيف الفعلية على ما هو كامن في طبيعة الإنسان بالأماكن والقوة ، ويغذي المجتمع باكبر قدر ممكن من الأنجازات بأقل ثمن يكلف طبيعة الحياة الجماعية .

٤ - يجب أن تكون القوانين ذات جنبه واقعية لا خيالية ، ومتمتعة بضمان تنفيذها بشكل واف من قبل مؤيديها ، وبعيدة عن التعقيد ليسهل على الجميع إدراكها .

٥ - المقنن الحقيقي هو الذي لا يرتكب ذنباً وخطأ وسهواً ، فضلاً عن ضرورة كونه رحيماً بأولئك الذين تُسن لهم القوانين ، وحازماً قوي الإرادة وشجاعاً في نفس الوقت .

٦ - المقنن اللائق من ليست له مصلحة شخصية في ذلك المجتمع ، لأنها إنما تشغل فكر المقنن وتجلبه نحوها ، إذ أنه لو تمكّن على سبيل المثال من

إجتنب آثارها الظاهرة للعيان لعجز عن الوقوف على آثارها الغامضة بالتأكيد .
 وإنَّ اكبر معضلة لعالم اليوم ، والتي تسببت في خلق المواجهات والمشاحنات
 الدامية هي هذه القوانين التي تُسنُّ من قبل ما يصطلح عليهم بمفكري كل
 مجتمع على حده ، إذْ كُلُّ واحد منهم لا يأخذ بنظر الاعتبار سوى منافعِهِ
 الشخصية أو منافع أتباعه ووطنه وبديهي أنَّ مثل هذا التكبر والأنانية وضيق
 النظر لا يحمل معه سوى زيادة في حدة الصراعات والمواجهات .

وهل ياترى تتوفّر هذه الحثيات السِّتُّ المتقدمة أعلاه في غير ذات
 الباري جلّت قدرته ؟ الذي لا نهاية لعلمه بالماضي والمستقبل المحيط بجذور
 وأسرار كلّ شيء وكل موضوع ونتائجه .

الذي لا يجد الخطأ والسهو والأشتباه طريقاً إلى ذاته المقدسة .

وأخيراً هو الذي لا يحتاج لشيء ولا لأحد لضمان منفعه .

ومن هنا نستدل على نقص سوءٍ عاقبة كلّ قانون غير قانون الله تعالى ، بل
 كل حكم دون حكمه تعالى زائل لا محالة ولا يمكن الاعتماد عليه . وحينما
 ندقق النظر القويم نجد أنَّ كل مشاكل الانسان ومعضلاته نابعة من رغبته في سنِّ
 قانون لنفسه إعتماًداً على علمه المحدود ، وبدوافع هوى النفس ! وهذا هو أحد
 الأدلة العقلية على لزوم بعثة الأنبياء ﷺ .

ب - التنسيق بين التكوين والتشريع :

يمكن توضيح مسألة لزوم بعثة الأنبياء ﷺ عن طريق المنطق أيضاً ببيان
 آخر وهو أنَّ إلقاء نظرة واحدة على عالم الخلقة كافية لادراك حقيقة أنَّ خالق
 الكون ولغرض إيصال كلّ موجود إلى كماله النسبي ، قد وضع تحت تصرفه كلّ

ما يحتاجه لذلك وأزال عن طريقه كل الموانع ، ولم يقتصر على اللوازم الضرورية لطبي هذا الطريق ، وإنما منحه ما يحتمل كونه عاملاً مساعداً لبلوغ هذا الهدف وإن لم يكن ضرورياً . فالطائر الذي خلق ليطير مثلاً ، نراه يتمتع بهيكل يسهل مهمة الطيران من كافة الجهات فضلاً عن أجنحته القوية التي تكسبه قدرة عظيمة على التحليق عالياً .

وعندما منح الإنسان عيناً لمشاهدة المناظر المختلفة ، فلم يكتف بالاعضاء الضرورية التي تستحيل الرؤية بدونها ، بل وضع تحت اختياره الكثير من الأعضاء التكميلية إذ زوّد العين بـ « الأهداب » للحؤول دون دخول ذرات الغبار ، ووضع في سقف الأجفان « غدداً دهنية » لتبقى رطبة دائماً وجهاز العيون بـ « غدد دمعية » ليبقى سطح العين رطباً دائماً لئلا تحدث حركة الأجفان أدنى جرح فيها ، وأوجد « الحاجبين » كالسد فوق العينين لأكمال عملهما ومنع نزول العرق من الجبين عليهما ، وزوّد كرة العين بـ « عضلات » تمكنها من الحركة الى الجهات الست بحرية .

كما إنّ بالأمكان الوقوف على الكثير من هذه النماذج في عالم الخليفة كله .

وهنا يرد هذا السؤال وهو أنّه هل يمكن للخالق الذي قد وضع كل هذه الوسائل المتطورة تحت تصرف الموجودات في عالم التكوين (الخلق) ان يفيض النظر عن بعث الانبياء ﷺ ودوره المهم في طريق تكامل النوع البشري وتحقيق الهدف من حياته في كافة أبعادها المادية والمعنوية كما تقدم ويحرم المجتمع الانساني من هذه الموهبة العظيمة ؟ ! .

أشار الشيخ الرئيس ابن سينا في كتاب « الشفاء » إلى هذه الحقيقة بعبارة مختصرة وتمثيل رائع حيث قال :

« فَحَاجَةُ الْإِنْسَانِ إِلَى هَذَا «بَعَثِ الرُّسُلِ» فِي أَنْ يَبْقَى نَوْعُ الْإِنْسَانِ وَيَتَحَصَّلَ وَجُودُهُ ، أَشَدُّ مِنْ الْحَاجَةِ إِلَى إِبْنَاتِ الشَّعْرِ عَلَى الْحَاجِبِينَ وَتَقْوِيمِ الْأَخْمَاسِ مِنَ الْقَدَمَيْنِ وَأَشْيَاءَ أُخْرَى مِنَ الْمَنَافِعِ الَّتِي لَا ضَرُورَةَ فِيهَا فِي الْبَقَاءِ ... فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْعِنَايَةُ الْأَزَلِيَّةُ وَتَقْتَضِي تِلْكَ الْمَنَافِعَ وَلَا تَقْتَضِي هَذِهِ الَّتِي هِيَ أُسُهَا. » (١) .

وقد بيّن هشام ابن الحكم التلميذ المعروف للأمام الصادق عليه السلام هذا الاستدلال بشكل آخر لـ « عمرو بن عبيد » العالم السني المعروف وقد سبق ابن سينا بذلك ، ومن جملة ما ذكر في هذه المحاوره : « .. قلت :- لا بدّ من القلب والأيّ لم تستيقن الجوارح ؟ قال : نعم فقلت له :- يا أبا مروان فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يُصحح لها الصحيح ويتيقن به ما شك فيه ، ويترك هذا الخلق كلّهم في حيرتهم وشكّهم واختلافهم . لا يُقيم لهم إماماً يردّون اليه شكّهم وحيرتهم ويُقيم لك إماماً لجوارحك تردّ اليه حيرتك وشكّك ؟! قال : فسكت ولم يقل لي شيئاً » (٢) .

ج - التربية العلمية :

الطريق الثالث الذي يمكننا ان نسلكه من أجل الحصول على تحليل منطقي لمسألة بعث الرسل هو الذي له جانب نظري قبل أن يكون له لحاظ عملي ، والشرط في موفقية المربّي في مهمته ان يتمكن من الظهور كقدوة حسنة

(١) الشفاء ، الألهيات المقال العاشر ، الفصل الثاني الصفحة ٤٤١ .

(٢) أصول الكافي الجزء ١ (كتاب الحجة ، باب الاضطرار إلى الحجة ، الحديث ٣ الصفحة

بالنسبة لتعليماته من الناحية العملية فضلاً عن التربية اللازمة ، وأن يعكس كل مسائل التربية من خلال صفاته وأخلاقه وتصرفاته . ولا يمكن هذا إلا أن ينتخب الأنبياء ﷺ من جنس البشر كقدوة حسنة ، ويعكسوا صفات الإنسان الكامل وسلوكه من الناحية العملية ليقتردي بهم الناس ، ويخطوا خطاهم ويطوروا هذا الطريق المليء بالعثرات والعقبات بقيادتهم .

وبعبارة أخرى : هناك في وجود الإنسان شيء أسمه روحية « المحاكاة » أي أنه ينجذب بصورة لا إرادية نحو ما يراه في أفراد جنسه ، وهذا الأحساس طبعاً لا يبلغ مرتبة الدافع القهري بل هو بمثابة الأرضية المناسبة لحركة إرادية كما هو الحال في الظمأ فإنه لا يجبر الإنسان العطشان على شرب الماء لكنه يعد بمثابة الأرضية لذلك .

حينما يأتي الأنبياء ﷺ أو الأئمة المعصومون ﷺ من جنس البشر بالتعليمات الإلهية الجامعة اليهم ويطبقون هذه التعليمات عملياً ويعكسون الفضائل الإنسانية بالتقوى والصدق يحصل باقي البشر على أرضية مناسبة لاكتساب مثل هذه الصفات .

ولذا فالقرآن الكريم يصرح بضرورة كون النبي ﷺ من جنس البشر ، كما أنه لو كان هنالك ملائكة يعيشون في الأرض لوجب ظهور أنبياء من جنسهم بينهم ، وذلك رداً على أولئك الذين يصرون قائلين لماذا لم يكن النبي ﷺ من جنس الملائكة أو لماذا لم يصطحبه ملك على أقل تقدير ؟ يقول تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قُلُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ (الاسراء / ٩٤ و ٩٥) .

يبدو أن التعبير بـ « ملائكة يمشون مطمئنين » لبيان هذه المسألة وهي أنه

حتى لو كان هناك ملائكة يعيشون في الارض متسالمين لبعثنا اليهم ملكاً من جنسهم كقائد يقودهم بالرغم من إنعدام الخصومات فيما بينهم ، نظراً إلى أن مهمة الأنبياء ﷺ لا تنحصر في إنهاء حالة التخاصم وإقامة القسط والعدالة الاجتماعية ، بل تعد كل هذه مقدمة لطى طريق الكمالات المعنوية للتقرب الى الله تعالى .

على أية حال فقد ورد ما يشبه هذا المعنى في لباس آخر في سورة (الانعام / ٩) كأجابه على تذرع المشركين ، حيث قال تعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ .

كما ان هناك ملاحظة جديرة بالاعتبار ، وهي أن القرآن يؤكد على كون نبي الاسلام ﷺ أو سائر الأنبياء ﷺ قدوة ومثالاً يقتدى به ويوصي الناس بضرورة الاقتداء بهم في برامجهم العملية ، يقول تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الاحزاب / ٢١) ، ويقول في موضع اخر : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ (الممتحنة / ٤) ، كما تكرر نفس هذا المعنى في الآية السادسة من نفس هذه السورة .

على أية حال فمسألة التربية والتعليم عن طريق الاقتداء بالقادة الألهيين مؤيدة بالتحليل المنطقي والآيات القرآنية ايضاً .

٣ - أسلوب المخالفين :

في قبال الأدلة الكثيرة على لزوم بعث الانبياء ﷺ المتقدمة ، والتي نالت قبول الأكثرية القاطعة من العقلاء في العالم ، نجد أن مذهب البراهمة ^(١) نفى

(١) مذهب البراهمة هو من أقدم المذاهب المعروفة التي ظهرت في المشرق ، ومركزه

ضرورة بعث الانبياء ﷺ من الأساس ، بل اعتبرها مستحيلة وغير معقولة ، لأعتقاده بكفاية ما يعينه العقل للانسان ! وقد نقل الشهرستاني في كتاب « الملل والنحل » بعضاً من شبهاتهم حول هذا الموضوع وقال :

الف - ان الذي يأتي به الرسول لم يخل من أحد امرين : فإما أن يكون معقولاً وأما أن لا يكون معقولاً . فأن كان معقولاً فقد كفانا العقل التام بادراكه والوصول اليه ، فأى حاجة لنا إلى الرسول وإن لم يكن معقولاً فلا يكون مقبولاً ، إذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الأنسانية ودخول في حد البهيمية .

ب - قد دل العقل على أن الله تعالى حكيم والحكيم لا يتعبد الخلق إلا بما تدل عليه عقولهم ، وقد دلت الدلائل العقلية على أن للعالم صانعاً عالماً قادراً حكيماً ، وأنه أنعم على عباده نعماً توجب الشكر ، فننظر في آيات خلقه بعقولنا ونشكره بآلائه علينا ... واذا عرفناه وشكرنا له إستوجبنا ثوابه وإذا أنكرناه وكفرنا به إستوجبنا عقابه فما بالناس نتبع بشراً مثلنا ؟ ! .

ج - إن اكبر الكبائر في الرسالة إتباع رجل هو مثلك في الصورة والنفس والعقل ، يأكل مما تأكل ويشرب مما تشرب حتى تكون بالنسبة اليه كجماد يتصرف فيك رفعاً ووضعاً ، او كحيوان يصرفك أماماً وخلفاً ، أو كعبد يتقدم اليك أمراً ونهياً ، فاي تفوق له عليك ؟ وأية فضيلة أوجبت إستخدامك ؟ ، وما دليله على صدق دعواه ؟ وما فضل حديثه على غيره ؟ ولو أنهم جاؤا بأشياء تفوق العادة ، فإن هناك من يخبر عن المغيبات أيضاً .

الأصلي « الهند » . قال الشهرستاني في كتاب « الملل والنحل » ، هذا الاسم مأخوذ من اسم « براهيم » مؤسس هذا المذهب ، في حين ان « فريد وجدي » يقول في « دائرة المعارف » بأن هذا الأسم مشتق من اسم أحد آلهتهم الكبيرة أي « براهيم » ، والبراهمة وفضلاً عن إنكارهم للنسبة يعتقدون بنوع من التثليث أي الآلهة الثلاثة .

د - قد دل العقل على أنَّ للعالم صانعاً حكيماً ، والحكيم لا يتعبد الخلق بما يقبح في عقولهم ، وقد جاء اصحاب الشرائع بمستقبحات من حكم العقل : كالأحرام والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار وأمثالها ، فما فائدتها ؟ لماذا حَرَّموا بعضاً من طعام الإنسان وحلَّلوا ما يكون مضرّاً ؟ ^(١) .

الجواب :

يمكن الأجابة عن الشبهات أعلاه بقليل من الدقة :

الف - يجب ألا ننسى أن معلوماتنا وإدراكاتنا العقلية ما هي إلا قطرة من محيط عظيم وغيض من فيض بالنسبة إلى مجهولاتنا ، وهذه الحقيقة يعترف بها جميع العلماء والمفكرين أعم من الألهيين والماديين .

فمن يقول أنَّ رسالات الأنبياء ﷺ إما أن تكون موافقة لعقولنا أو مخالفة ، فإنه يُفْهَم من كلامه أنَّ العقل يدرك كل شيء لكنَّ الأمر ليس كذلك ، بل هناك شق ثالث أوسع من صاحبيه ، وهو تلك الأمور التي ليس لنا علم بها أصلاً ولا يمكننا نفيها ولا إثباتها ، لكنَّ حينما يثبت إجمالاً عن طريق الأدلة التي سنشير إليها فيما بعد بأنَّ الانبياء ﷺ يتكلمون نيابة عن الله تعالى ويُخبرون من علمه اللامحدود فإنه سوف لن يبقَ هناك مجال سوى قبولها والاذعان بصحتها .

فاشكال البراهمة الأول يشبه قولنا بعدم لزوم التوجُّه إلى الأستاذ والاستفادة من علمه وتجربته ، لأنَّ ما يقوله الأستاذ إما أن يكون موافقاً لعقلي التلميذ أو لا ، ففي الحالة الأولى لا حاجة للذهاب وفي الحالة الثانية لا يجب

(١) الملل والنحل ، الشهرستاني ، الباب الرابع ، آراء الهند ، الفصل الاول - البراهمة - الصفحة ٢٥٠ .

التسليم وقبول قول الأستاذ .

وبديهي أن هذا الكلام طفولي لا يخفى جوابه على أي مفكر ، فالأستاذ إنما يعلم التلميذ أشياء يعجز عقله عن نفيها أو إثباتها بالإضافة إلى ذلك فقد يلتبس الامر علينا فنقع في الشك والاضطراب احياناً في مسائل عرفناها بصورة صحيحة فلا ندري هل فهمناها بصورة صحيحة ام لا ؟

و بدون شك فاننا سنطمئن ونتيقن اذا ما أيّدناها الانبياء وصدّقوها ، لذا فنحن محتاجون إلى الانبياء في كل الامور سواء علمناها او لا نعلمها (فتأمل) .

ب - صحيح أننا نعرف الله تعالى بالأدلة العقلية ، وأن حكم العقل هو الذي يفرض علينا شكر نعمه ، لكنّ هذا لا يكفي ، فطريق السعادة والكمال الانساني مليء بالعقبات والمخاطر ، ولا بدّ من وجود اشخاص مجهزين بالقوة الالهية والأمدادات الغيبية ليأخذوا بأيدينا عند اجتيازنا لهذه المخاطر .

نحن لا نفتدي بأنسان مثلنا أبداً ، بل بأنسان له إطلاع واسع جداً ، وعلمه متصل بعلم الله اللامحدود عن طريق الوحي ، وإتباع شخص كهذا منطقي جداً .

ج - مما تقدم أعلاه يتضح الجواب على الأشكال الثالث أيضاً ، إذ أن إطاعتنا لأوامر الأنبياء ﷺ والوقوف رهن إشارتهم لتقواهم التي لا مثيل لها والتي لمسناها فيهم .

نحن نضع أحياناً قلوبنا وعقولنا التي تعدّ أهم وأعز أعضاءنا تحت تصرف الجراح الذي نثق به ، فينهال عليها بمشرطه ، وحينما نوافق على تخديرنا من

قبله ليفعل ما يريد ، فهل يُعدُّ هذا العمل حماقة ؟ .

بديهيٌّ إنه ليس كذلك طبعاً ، فعلم ومعرفة الطبيب الجراح من جهة ، وحسن ظنِّنا بعمله من جهة أخرى ، يبعثان على التسليم له بلا قيدٍ أو شرط ، ولا يخفى أن الأنبياء ﷺ الإلهيون يفوقون الطبيب علماً وتقوىً بكثير .

د - أي أمرٍ غير منطقي يوجد في تعليمات الأنبياء ﷺ ؟ فهل مراسم الحج والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمرات والأحرام هي خلاف العقل ؟ إنَّ تأملاً بسيطاً في فلسفة هذه الأعمال يكشف عن مدى حكمتها ، وكيف أنَّها تربي الإنسان تربية صالحة .

فنحن نخرج عند الأحرام من قشر عالم المادة ، ونترك كل الفوارق القومية والعرقية والطبقية جانباً ونقف كلنا سواسية ونترك كل ما يشغل القلب جانباً ولو مؤقتاً ، ونتفرغ لـ « معرفة وجودنا وخالقنا » في عالم معنوي خالص .

والجمرات الثلاث تمثل الشيطان ، إذ نرميه بالحصى سبع مرات متعاقبة ، وبهذا نعلن عن رفضنا واستيائنا للأعمال والأفكار الشيطانية .

وعند السعي بين الصفا والمروة نتذكر سعي « هاجر » تلك المرأة الطاهرة المؤمنة وجهدها لنجاة وليدها « اسماعيل » ، فنطوي المسافة بين الصفا والمروة عدة مرات .

وقصاري الحديث إن الأعمال التي ننجزها يعتبر كل واحدٍ منها مثلاً لبرنامج تربوي مسبق ، وعند الانتهاء نشعر بأننا قد حصلنا على شخصية جديدة ومعرفة جديدة عن الله تعالى وعن نفوسنا ، ذلك الأحساس الذي يحصل لكل إنسان بعد مراسم الحج .

إن تحريم الأنبياء ﷺ بعض المواد الغذائية مثل « الخمر » و « لحم الخنزير » إنما للاضرار الكامنة فيها والتي غفل الناس عنها سابقاً ثم اطلعوا عليها بالتدريج في هذا العصر . فنحن لانعرف شيئاً حلَّه الأنبياء ﷺ وتسبَّب في ضرر الإنسان مادياً أو معنوياً .

وخلاصة القول ، أنَّ هذه ألا شكالات الأربعة للبراهمة قد نشأت عن جهلهم بالانبياء ﷺ أو تعليماتهم من جهة و عدم معرفتهم لمدى قدرة العقل من جهة اخرى وبهذا نصلُ إلى نهاية البحث حول فلسفة « البعثة » .

الخصائص العامة
للأنبياء عليهم السلام

الخصائص العامة للأنبياء ﷺ

إنَّ مهمة هداية الخلق وتهذيب النفوس وتعليم الناس وتربيتهم وإقامة العدل وإزالة الاختلاف وتحرير الإنسان من مخالب الأسر مهمة شاقة وصعبة مما يجعلها تتطلب إستعداداً خاصاً من الناحية الجسمية والروحية والعلمية والاخلاقية .

ولهذا السبب لا يتسنى لكل انسان تحمل أعباء هذه المسؤولية ، إلا لمن حصل على القابلية لها في ظلّ تهذيب النفس من جهة والأمداد الإلهي من جهة أخرى ومن البديهي ان الفرد العادي غير الناضج لا يتمكن أبداً من تقبُّل مثل هذه المهمة الخطيرة .

والكلام هنا هو عن ماهية هذه الخصائص التي ينبغي توفرها لدى كل نبي ، ومن الطبيعي أنَّ الأنبياء ﷺ وأولي العزم وأصحاب الشرائع والسنن يجب أن يكون لهم النصيب الأوفى منها .

وهنا يسعى القرآن لمساعدتنا في ذكر هذه الخصائص فضلاً عن الأدلة العقلية .

بهذه الخلاصة نعود إلى القرآن ولنستمع خاشعين إلى الآيات الواردة في

هذا المجال :

١ - ﴿وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ اِبْرَاهِيمَ اِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾

(مریم / ٤١)

٢ - ﴿وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ اِسْمَاعِيلَ اِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾

(مریم / ٥٤)

٣ - ﴿اِذْ قَالَ لَهُمْ اٰخُوهُمْ نُوحٌ اَلَا تَتَّقُوْنَ * اِنِّیْ لَكُمْ رَسُولٌ اٰمِیْنٌ﴾
(الشعراء / ١٠٦ و ١٠٧)

٤ - ﴿اُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّیْ وَ اَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ اٰمِیْنٌ﴾

٥ - ﴿وَمَا اَسْأَلُكُمْ عَلَیْهِ مِنْ اَجْرٍ اِنْ اَجْرِیْ اِلَّا عَلٰی رَبِّ الْعٰلَمِیْنَ﴾
(الشعراء / ١٠٩)

٦ - ﴿وَ وَهَبْنَا لَهُ اِسْحٰقَ وَ یَعْقُوْبَ كُلًّا هَدٰیْنَا وَ نُوْحًا هَدٰیْنَا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِ دَاوُدُ وَ سُلَیْمٰنُ وَ اٰیُوْبَ وَ یُوْسُفَ وَ مُوسٰی وَ هٰارُونَ وَ کَذٰلِكَ نَجْزِی الْمُحْسِنِیْنَ﴾

(الانعام / ٨٤)

٧ - ﴿اَلَّذِیْنَ یُبَلِّغُوْنَ رِسَالَاتِ اللّٰهِ وَ یَخْشَوْنَهُ وَ لَا یَخْشَوْنَ اَحَدًا اِلَّا اللّٰهَ وَ کَفٰی بِاللّٰهِ حَسِیْبًا﴾

(الاحزاب / ٣٩)

٨ - ﴿قَالَ اِنِّیْ اَشْهَدُ اللّٰهَ وَ اَشْهَدُ اَنِّیْ بَرِیْءٌ مِّمَّا تُشْرِكُوْنَ مِنْ دَوْنِهِ فَکِیْدُوْنِیْ جُمِیْعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُوْنَ * اِنِّیْ تَوَكَّلْتُ عَلٰی اللّٰهِ رَبِّیْ وَ رَبِّکُمْ﴾

(هود / ٥٤ - ٥٦)

٩ - ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مَخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾

(مريم / ٥١)

١٠ - ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾

(آل عمران / ١٥٩)

١١ - ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

(البقرة / ١٢٤)

تفسير وفذلكة :

١ - صدق الحديث :

أول خصلة لكل نبي هي صدق الحديث ، وذلك لأنه يُخبر عن الله تعالى ، فمع عدم الأطمئنان بصدقه لا يمكن الاعتماد على كلامه ولذا فقد أكد القرآن على هذه المسألة عدّة مرات من جملتها أول آية من آيات بحثنا إذ يقول تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ . كما إن نفس هذا الوصف قد ورد بحق إدريس (مريم / ٥٦) ويوسف (يوسف / ٤٦) .

والملفت للنظر أنّ وصفه بـ «الصدق» قد سبق وصفه بـ «النبوة» في آيتنا هذه ، وهذا يبين إنّ أصل النبوة إنّما يركز على الصدق ، خصوصاً إنّ «صديقاً»

هي صيغة مبالغة للصدق^(١)، وتعني كثير الصدق أو الذي لا يكذب ابداً والذي يوافق قوله عمله، وبناءً على هذا فالأرضية المناسبة لتقبل النبوة المتوقّرة لدى جميع حملة الوحي الألهي هي «الصدق المطلق» ليتم من خلاله إيصال أمر الله تعالى إلى عباده بدون أيّة نقيصة.

طبعاً يمكن للناس اكتشاف هذه الخصلة في النبي ﷺ من خلال تتبع حياته السابقة كما هو الحال تماماً في أهالي مصر عندما عرفوا يوسف بـ «الصدّيق» وخاطبوه بـ «يوسف أيّها الصديق».



٢ - الالتزام بالعهود والمواثيق :

الكلام في الآية الثانية عن الصدق ايضاً لكن لا في القول بل في العهود والمواثيق واللطف هنا ايضاً هو ورود هذه الخصلة قبل الوصف بالرسالة والنبوة والتي تشير إلى صنعها الأرضية المناسبة لمقام النبوة، لأنّ القسم الأعظم من دعوة الأنبياء ﷺ إنّما يرتكز على أساس الوعود التي تعطى للمستقبل، ولو لم يكن النبي ﷺ صادقاً في وعوده لفقد الأساس لدعوته، قال تعالى في ذلك : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾. وبديهي إنّ من كان كاذباً في كل شيء حتى في وعوده لا يمكن أن يبلغ مقام الرسالة الشامخ وذلك لأنّ الشرط الاول لهذا المقام هو إيمان الناس باقواله ووعوده واختبارهم لصدقه في كافّة الميادين.

ولذا فحتى الأفراد المعدودون الذين لا يعتبرون مقام «العصمة» شرطاً

(١) يقول الزمخشري في الكشاف : الصدّيق من صيغ المبالغة وتعني الغاية في الصدق والتصديق بالآيات الألهيّة (الجزء ٣ الصفحة ١٨).

أساسياً للنبوة في كافة المجالات نراهم يعتبرون الصدق من بين الشروط .
وفيما يتعلق بكون «إسماعيل عليه السلام» صادق الوعد ، فقد جاء في الكثير من
كتب التفسير والروايات أن الله تعالى قد اعتبره «صادق الوعد» نظراً لعزمه على
الوفاء بالوعد حتى إنه انتظر شخصاً كان قد وعده في مكان ما لمدة سنة كاملة
وحينما جاء ذلك الشخص قال له إسماعيل : لقد كنت في انتظارك طيلة هذه
المدّة! (١) .

ولا يبعد أن يكون المراد من الانتظار لمدة سنة هو التردد على ذلك المكان
والتربص بين الحين والآخر لعودة ذلك الشخص لا المكوث هناك سنة كاملة
تاركاً كل أعماله ومشاغله الحياتية .

لكن هل ياترى إنّ إسماعيل هذا هو نفس «إسماعيل بن ابراهيم»
المعروف أم «إسماعيل بن حزقيل» الذي هو من أنبياء بني اسرائيل ، فهذا محل
بحث وقد اختار الكثير الأحتمال الأول ، لكن تم التصريح بالأحتمال الثاني في
البعض من الروايات الواردة في مصادر أهل البيت عليه السلام ، وذلك لوفاة إسماعيل
في حياة أبيه ابراهيم طبقاً لبعض الروايات ، وهذا لا يتلاءم والتعبير بالرسالة في
حقه في حين أنّ القرآن يقول في الآية أعلاه : «وكان رسولاً نبياً» . وما قيل بانه
كان يمتلك رسالة من قبل أبيه لهداية قبيلة «جرهم» من سكنة مكة لا يبدو
مناسباً أيضاً لان ظاهر الآية هو ان «إسماعيل» المذكور هنا كانت له رساله إلهية
لا رساله من قبل ابراهيم عليه السلام .

علاوة على ذلك فلو كان المراد هو اسماعيل بن إبراهيم عليه السلام لكان من
المناسب ذكره بعد إبراهيم عليه السلام في الآيات السابقة لا بعد موسى .
وعلى اية حال فلا اثر لهذا الكلام في بحثنا الذي يدور حول مسألة

(١) اصول الكافي الجزء ٢ الصفحة ١٠٥ الحديث السابع .

خصوصيات الأنبياء ﷺ .



٣ - الأمانة :

مقام النبوة والرسالة مقام يتطلب كلاً من « الصدق » و « الأمانة ». الأمانة في نقل الوحي وايصاله إلى الناس والأمانة في حفظ الأسرار الإلهية . والصدق والأمانة يعودان في حقيقة الأمر إلى أصل واحد غاية الأمر ان الصدق أمانة في الحديث والأمانة صدق في العمل ! ولذا يقول القرآن في ثاني آية من آيات بحثنا : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ - إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ - إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ . كما ان نفس هذا التعبير « اني لكم رسول أمين » قد ورد بحق كل من « هود » (الشعراء / ١٢٥) ، و « صالح » (الشعراء / ١٤٣) و « لوط » (الشعراء / ١٦٢) و « شعيب » (الشعراء / ١٧٨) و « موسى » (الدخان / ١٨) ، ومما لا شك فيه هو أن هؤلاء الأنبياء ﷺ وغيرهم من الأنبياء الإلهيين كانوا قد اثبتوا أمانتهم للناس عملياً كما قرأنا عن النبي الأكرم ﷺ أنه كان يلقب بـ « محمد الأمين » من قبل خاصة الناس وعامتهم وذلك قبل نزول الوحي ، ولذا كان ﷺ يستدل بسابقته هذه أمام المخالفين بانهم كيف لا يصدقون بانذاره فيما يتعلق بالوحي الإلهي مع علمهم واقرارهم بصدقه وامانته ؟ ! (١).

واللطيف هو أن القرآن قد ذكر هذا الوصف بحق جبرئيل حامل الوحي

(١) جاء في التواريخ في ذيل الآية « وانذر عشيرتك الأقربين » انه ﷺ صعد إلى جبل الصفا بعد نزول هذه الآية ودعا كلاً من « بني عبد المطلب » و « بني عبد مناف » فلما اجتمعوا حوله قال لهم ﷺ ، لو اخبرتكم بأن جيشاً عظيماً يتجه نحوكم بمحاذاة هذا الجبل فهل ستصدقونني ام لا ؟ فقال الجميع : بلى ! ما عرفنا فيك الكذب ابداً . فقال ﷺ : اذن فاعلموا اني لكم نذير من العذاب الإلهي . (الكامل الجزء ٢ الصفحة ٦٠).

الآلهي أيضاً حيث قال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ (الشعراء / ١٩٣ و ١٩٤) .

في الحقيقة حملة الوحي أعمُّ من الملك الذي يتوسط إبلاغ الوحي أو نفس الانبياء ﷺ بل وحتى الأئمة ﷺ ونواب المعصوم المسؤولين عن إبلاغ الوحي الآلهي أو حفظه : « أمناء الله في خلقه » ، وما وصف علي ﷺ وسائر الأئمة في زيارة أمين الله المعروفة السلام عليك يا أمين الله في أرضه إلا شاهداً آخر على هذا الأدعاء .

٤ - الرغبة والشفقة الفائقتان :

إنَّ الإنسان الذي يقود الناس ويتحمل مسؤولية هدايتهم وتربيتهم كمعلم صالح لهم هو ذلك الشخص الذي له رغبة شديدة بهذا العمل وشفقة واسعة بالناس ، بل إنه يعشقهم فلولا عشق الأبوين لو لدهما لما تحملا أبداً كل هذه المشاكل لرعايته وتربيته ، ولولا عشق الأنبياء ﷺ لهداية الناس لما وافقوا أبداً على تحمل أعباء هذا العمل الذي يفوق الحد ، ولما عرضوا انفسهم لأنواع المخاطر في هذا الطريق .

وقد أكَّد القرآن مراراً على هذه المسألة كما ورد في الآية الرابعة من بحثنا ونقلاً عن لسان « هود » نبي الله تعالى أنه قال لقومه المعاندين المتعصبين : ﴿ أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتٍ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ .

ونفس هذا المعنى ورد بتعبير أدق في حق النبي الأكرم ﷺ حيث يواسيه تعالى ويقول : ﴿ فَلَمَّا لَكَ بِأَخٍ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ .

كما جاء نظير هذا المعنى ايضاً في (الشعراء / ٣) ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ
أَنْ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿ناصح﴾ مأخوذة من مادة «نصح» وتعني على حد قول الراغب في مفرداته ، تحريّ فعل أو قول فيه صلاح صاحبه (أي أنه يشمل تحريّ الصلاح قولاً وفعللاً) . وقد جاء في القرآن أن نوحاً عليه السلام دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يتحمل أنواع المشقة لتبليغهم وهدايتهم وبالنتيجة لم يؤمن به خلال كل هذه المدة الأنفر قليل ، (ذكرت التواريخ ان عددهم لم يتجاوز نيفاً وثمانين نفرأ فقط) ، وبعبارة علمية بسيطة فان نوحاً قد تحمل مشقة إثنتي عشرة سنة تقريباً لهداية كل واحد منهم على إنفراد ، وبديهي أن تحمل مثل هذا التعب والمشقة لا يتحقق إلا في ظل الرغبة والعشق الشديدين لهداية الخلق .

٥ - الأخلص والأيثار الكامل :

من الصفات المهمة للأنبياء عليهم السلام التي أكّد عليها القرآن هي عدم توقعهم لأي نوع من المكافأة المادية والأجر في قبال دعوتهم إلى الله تعالى ودين الحق ، إذ نقرأ مثلاً في الآية الخامسة من آيات بحثنا حول أول نبي من أولي العزم أي نوح عليه السلام : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كما أن هناك آيتين أخريين بنفس هذا المضمون قد وردتا في حق نوح عليه السلام أيضاً (هود / ٢٩) و (يونس / ٧٢) .

وفي حق «هود» في موردين (هود / ٥١) (الشعراء / ١٢٧) .

وفي حق «صالح» في آية واحدة (الشعراء / ١٤٥) .

وفي حق «لوط» في مورد واحد (الشعراء / ١٦٤) .

وفي حق « شعيب » في مورد واحد (الشعراء / ١٨٠) .

وأخيراً فقد تكرر التأكيد على هذه المسألة في عدة مواضع من القرآن في حق نبي الأسلام ﷺ : (الأنعام / ٩٠) (سبأ / ٤٧) (الفرقان / ٥٧) (ص / ٨٦)^(١) .

على أية حال فتأكيد القرآن على مسألة أن أول كلام للأنبياء ﷺ الألهيين هو عدم توقعهم لأيّة مكافأة في مقابل جهودهم تلك يكشف عن إمكانية التعرف عليهم من خلال هذه الخصلة .

إنهم ﷺ كانوا يقولون ذلك ويعكسونه من خلال تصرفاتهم ، في حين إنّ المدعي زوراً ربّما يقول مثل قولهم لكنه لا يلتزم به عملياً أبداً .

ويحتمل أن ملكة سبأ حين أرادت إختبار سليمان عليه السلام وهل أنّه نبي صادق أم ملك ينبغي وراء تظاهره بالدعوة إلى الله تعالى منافع مادية ، قالت : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (النمل / ٣٥) اذ لو وافق سليمان عليه السلام على الهدية وفرح بها لا تضح أن له دافعاً مادياً ، بينما النبي من لا يهتم لزخرف الدنيا وزينتها وله دافع إلهي محض .

وعلى اية حال أن تصريح القرآن بهذه النكتة في حق ستة من أنبياء

(١) الجدير بالذكر هو أن القرآن الكريم يقول أحياناً في حق نبي الأسلام ﷺ : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ (الأنعام / ٩٠) ويقول أحياناً : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان / ٥٧) وفي موضع آخر يقول : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ . ولا يخفى أن هذه الآيات بمجموعها تبين أن مسألة مودة ذوي القربى إنما تعود فائدتها إلى الناس ، وهذه في الواقع بمثابة ترعة تصب في خاتمة المطاف في نهر مسألة « الامامة والولاية المنصوصة » التي عيّن الله تعالى لهداية الناس وللعمل بتعليمات نبي الأسلام ﷺ ، وبالنتيجة فكل منفعة تجنى من هذا الطريق إنما تصب في خير الناس ولأجلهم .

الله ﷻ ، الذين يوجد من بينهم إثنان من أولي العزم يثبت وجود هذه الحالة في كل الانبياء ﷻ ، ولا مناسبة لحصرها في خصوص هؤلاء الستة فقط ،

٦ - البر والأحسان :

من صفاتهم البارزة الأخرى هي الأحسان للصديق والعدو معاً ، فلقد كانوا في الحقيقة مظهراً لصفات « الرحمن » و « الرحيم » والفضل والأحسان للجميع . ولذا فقد نسب القرآن هذه الصفة إلى الكثير من الأنبياء ﷻ ومن جملة ذلك ما جاء في السادسة من آيات بحثنا بعد الإشارة إلى « إسحق » و « يعقوب » ولدي إبراهيم البارين اللذين وهبهما الله تعالى له في آخر عمره ، وكذلك « نوح » و « داود » و « سليمان » و « أيوب » و « يوسف » و « موسى » و « هارون » (عشرة من الأنبياء العظام) من بينهم ثلاثة من أولي العزم يقول تعالى : « وكذلك نجزي المحسنين » أي أنَّ إحدى الصفات البارزة التي كانت لديهم هي صفة « الأحسان » .

كما ورد نفس هذا المعنى أيضاً على أفراد في آيات متعددة من جملتها : ﴿ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ و ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ و ﴿ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ وأخيراً : ﴿ سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الصافات / ٨٠ و ١١٠ و ١٢١ و ١٣١ على التوالي) .

وهذا التكرار في التأكيد هو خير شاهد على ما تقدم أعلاه من ماهية المراد من البر و « والأحسان » الذي جاء في الكثير من الآيات وللمفسرين عبارات شتى فالبعض منهم كالمرحوم الطبرسي قد فسر « الأحسان » في الكثير من الموارد في

« مجمع البيان » بمعنى طاعة المولى جلّت قدرته بل قد صرّح أنه لو حصل هذا المعنى أي مقام العبودية والطاعة للآخرين لشمّلتهم مثل هذه العناية الخاصة أيضاً! .

لكنّ البعض الآخر مثل تفسير « روح البيان » قد فسر ذيل الآية الثمانين من سورة الصافات بمعنى الصبر والتحمل أمام أذى العدو وإعتدائه .
كما يحتمل أيضاً أنّ كل واحد من الأنبياء ﷺ قد برز في أحد فروع البر والأحسان نظراً إلى أنّ كل الطاعات والأعمال الحسنة تندرج تحت عنوان « الأحسان » ، الصبر والتحمل ، الطاعة والعبودية ، العفو والمغفرة ، وأمثالها .

٧ - عدم الخشية من غير الله تعالى :

نظراً لمتنع الأنبياء ﷺ بمقام رفيع في معرفة الله تعالى ، فقد كانوا يدركون جيداً أنّ الله تعالى هو المنبع الرئيسي لكل خير وقوة ولو أنّه تعالى دافع عن شخص لما تمكن العالم بأسره من إلحاق الضرر به .
وثمره هذه المعرفة هي الخوف من مخالفة أمر الله تعالى وحده عدم المبالاة بمن سواه كائناً من كان .

ولذا يقول تعالى في سابع آية من آيات بحثنا بعد أن أشار إلى عدد من الأنبياء ﷺ السابقين ، ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ .

إنّ هذه الخاصية منحت الانبياء ﷺ قدرة فائقة بأعتبارهم قادة إلهيين ، ومنحتهم صموداً أمام الأعداء اللجوجين بل هي في الواقع أحد أسباب موفقيتهم .

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه وهو أن الله تعالى خاطب نبي الإسلام ﷺ ،
 في آيتين سابقتين على هذه الآية (٣٧) في نفس سورة الأحزاب حول زواجه
 من زوجة زيد المطلقة وقال : « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » أي أنك
 تخاف غير الله فيما يتعلق بموضوع زواجك من هذه المرأة باعتبار أن زيدا هو
 ابنك بالتبني لا حقيقة ومن العار الزواج من زوجة الأب بالتبني عند عرب
 الجاهلية ، في حين أن الأنسب أن تخاف الله تعالى .

فهذا التعبير يبين أن النبي ﷺ على الرغم من كونه أفضل الانبياء ﷺ كان
 يخاف غير الله أيضاً في حين أن الآية (٣٩) تقول : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ
 وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ ، فكيف يتم التوفيق بين
 هذين التعبيرين ؟ ! .

إن الأجابة على هذا السؤال تتضح من خلال ملاحظة واحدة وقد ذكرناها
 في « التفسير الامثل » وهي أن خوف نبي الإسلام ﷺ هنا لم يكن على شخصه
 بل كان يخشى في الواقع ان يكون إقدامه هذا على نقض عادة الجاهلية تلك
 (زواجه من زوجة زيد المطلقة) سبباً في خدش مكانته وتزلزلها في أذهان عموم
 ذلك المجتمع باعتباره واحداً من الأنبياء ﷺ وبالتالي لا يتمكن من تحقيق
 أهدافه الألهية والأفالأقدام على عمل كهذا وسط ذلك المجتمع الذي تغمره
 الأمور العجيبة والغريبة لا أهمية له أبداً من الناحية الشخصية مهما كان مخالفاً
 لفكر الناس وعاداتهم .

كما إن تقارب محل الآيتين من بعض يمكن أن يكون شاهداً آخر على هذا
 المدعى ايضاً .

إذن فخوف النبي ﷺ في هذه القضية هو مصداق للخوف الألهي لا
 الشخصي (فتأمل جيداً) .

٨ - التوكُّل المطلق على الله تعالى :

إنَّ الأنبياء ﷺ كانوا يظهرون عادة بين أقوام قد غرقوا في الفساد الأخلاقي فضلاً عن الانحراف الفكري والعقائدي ، ولذا كانت دعوتهم لمحو هذه الآثار السيئة تواجه بثورة عنيفة من قبل ذلك المجتمع حتى أنهم كانوا يتخذون العزلة في بعض الأحيان والذي كان يُغذِّيهم بالقوة والمنعة لمواصلة تحقيق أهدافهم في مثل هذه الظروف هو مسألة التوكُّل على الله ، والتي نجد احد مصاديقها في قصة هود في الآية الثامنة من بحثنا :

إذ قال له قومه إنك لم تأتنا بدليل واضح ولن نترك آلهتنا لكلامك هذا ، بل لن نؤمن بك أصلاً ، ونحن نعتقد بأن آلهتنا قد غضبت عليك وسلبتك لبك ! لكنه صمد بجرأة وقال : ﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جُمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ .

حينما يواجه الإنسان بمخالفة شخص جاهل متعصب فإنه غالباً ما ينتابه الخوف والفرع فكيف بمواجهة شعب عظيم منحرف مع هذه العصبية والجهل وبدون عدد أو عُدَّة ياترى ؟ ! ويدهي ان لا يتيسر عمل كهذا الأبقرة إلهية تلك القدرة النابعة من التوكُّل والتوكُّل لا يأتي إلا من الإيمان بالله تعالى وحاكميته في كل أرجاء المعمورة .

والملفت للنظر هو عدم إبداء الأنبياء ﷺ لأي رد فعل تجاه تهديدات أعدائهم ، بل على العكس كانوا يحتقرون قدرتهم ويعرضونها للأستفهام ويفهمونهم بانهم لا يعبرون لكل ذلك المجتمع الوثني المعاند أيَّ إهتمام يذكر فهذا التوكُّل المنقطع النظير هو أحد خصائص الانبياء ﷺ .

٩ - الأخلص المنقطع النظير :

وصف « المخلص » ورد ذكره في القرآن مرة واحدة فقط ، وذلك في حق موسى بن عمران ﷺ فقد وصفه بالأخلص قبل وصفه بالرسالة والنبوة ، يقول تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مَخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ .

لكن نظراً لما ورد على لسان الشيطان في آيتين من القرآن : ﴿ لَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (الحجر / ٤٠) و (ص / ٨٣) ، ولبداهة كون الانبياء ﷺ من الذين يعجز الشيطان عن إغوائهم بأي حال من الاحوال يمكن إستنتاج شمولية هذا الوصف لكل الانبياء أعم من موسى ﷺ وغيره .

فما هو « الأخلص » ؟ إنَّ الأخلص مقام رفيع جداً يؤكد عليه علماء الأخلاق والعرفان كثيراً وهو أن يعتبر الإنسان ذات الباري جلّت قدرته هي المؤثر الحقيقي في عالم الوجود لا غير . وهذا نابع من المعرفة التامة لتوحيد الله تعالى ، فيتوجه العارف إلى الله تعالى بخالص نيته ويعتبر كل البواعث غير الألهمية عبثاً ، ويضع كل وجوده رهن من يملك كل شيء ، وأخيراً يرى كل ما سواه باطلاً فانياً .

إنَّ عملية تهذيب الإنسان من شوائب الشرك والهوى والبواعث الوهمية ، لها مرحلتان :

المرحلة الأولى : عن طريق تربية النفس على قدر طاقة الإنسان أي أنه يرى نفسه بعد اجتيازه هذا الطريق بالجد والسعي الحثيثين في زمرة « المخلصين » (الذين قاموا بتنقية أنفسهم) .

المرحلة الثانية : مرحلة تصفية الوجود الإنساني من الشوائب التي تخفى عليه لدقتها ، وهنا يأتي دور العناية الألهمية لمساعدة العبد في التخلص من تلك الشوائب والأخذ بيده إلى مقام المخلصين وهذا هو المقام السامي لأنبياء

الله تعالى ﷻ وأوليائه وخاصة عباده .

ولا يخفى أن آثار هذا الاخلاص تتجلى بكل وضوح في أعمالهم كما يمكن إدراك بلوغهم لهذا المقام من خلال حسن أقوالهم وتصرفاتهم بكل سهولة . وعلى أية حال فالاخلاص أحد الصفات البارزة لأنبياء الله تعالى ﷻ .

١٠ - اللبونة والمحبة وحسن الخلق :

إن مسؤولية الأنبياء ﷻ القيادية تفرض عليهم ضرورة مسايرة الناس ، واللين أمام غلظة وفضاظة الجهال المتعصبين قدر الأمكان ، وبعبارة أدق النفوذ في قلوب مختلف شرائع المجتمع عن طريق المحبة ، وهذا وصف آخر من أوصاف الأنبياء ﷻ :

يقول القرآن الكريم في عاشر آية من آيات البحث وخصوصاً فيما يتعلق بنبي الأسلام ﷺ : ﴿ فِيمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لَئِنْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ و « الفظ » و « غليظ القلب » لهما نفس المعنى تقريباً وهو الشدة والخشونة وقساوة القلب لكن البعض فرق بينهما وقال بان « الفظ » يعني الخشن في القول و « غليظ القلب » الخشن في العمل وذهب البعض الآخر الى أن « فظ » اشارة إلى الخشونة الظاهرية (الأعم من القول والفعل) و « غليظ القلب » اشارة إلى الخشونة الباطنية والقلبية والتي تعد المصدر الرئيسي لكل الخشونات .

والذي يقابل هذين الوصفين هو اللين والمحبة والهدوء قولاً وفعلاً مما يؤدي إلى استقطاب طبقات الأمة بشكل عجيب .

ويرى محققوا التاريخ أن وجود هذه الصفات في شخص نبي

الاسلام ﷺ كان له اكبر الأثر في الأسراع من مهمة تقدم دينه خصوصاً وسط مجتمع يدور فيه كل شيء حول محور الخشونة الفعلية كالقتل والأغارة فضلاً عن الخشونة في القول . ومن هنا فمن السهل الوقوف على الدور الفعال لهذه الصفة الأخلاقية للنبي ﷺ .

وهناك الكثير من الشواهد حول هذا الموضوع في تاريخ حياة النبي الأكرم ﷺ ، ولو تعرضنا لها كلها لخرجنا عن لبّ موضوع بحثنا لكثرتها ، لكننا سنكتفي بنموذج واحد فقط :

ففي معركة أحد التي وجهت فيها أكبر ضربة لكيان الاسلام والمسلمين بسبب عدم التزام فريق ممن كانوا جديدي عهداً بالاسلام وهروب فريق آخر ، فضلاً عن الجراح التي ائخت شخص النبي ﷺ بشهادة الكثير من أقطاب الاسلام نراه ﷺ بعد انتهاء المعركة حليماً مع المسلمين يكلمهم بلسان طيب ولم يُبد أي غضب بل كان يدعو لهداية أعدائه المجرمين أيضاً .

كما إن تاريخ باقي الأنبياء ﷺ يعكس أيضاً تمتعهم بهذه الفضيلة الإنسانية الخطيرة .

إنّ تصريح القرآن بأنّ « نوحاً ﷺ قد دعا قومه تسعمائة وخمسين سنة وأنه إستعان بكل الطرق والوسائل لهدايتهم على حد قوله ، إذ أنّه كان يدعوهم علناً أحياناً وأحياناً أخرى سراً ، ليلاً او نهاراً ، يذهب إلى بيوتهم أو يشاركهم في جلساتهم العامة في بعض الأحيان ، وإنّه لم يؤمن به طوال كل هذه المدة الا نفر قليل ، يعكس مدى مداراته لهؤلاء ، الوثنيين اللجوجين .

ولحن قوله الوارد في سورة نوح ﷺ يبين بكل وضوح استخدامه اسلوب الترغيب ، وانه لم يقدم على لعنهم والدعاء عليهم الا بعد ان يشك كلياً منهم ومن ذريتهم .

إنَّ الإنسان تصيبه الدهشة أحياناً عندما يرى ما لبعض الأنبياء من رافة وحسن الخلق ، فقد ورد عن « لوط » ﷺ مثلاً في القرآن الكريم إنَّه عرض بناته على قومه المذنبين للزواج منهن (بعد الايمان) أملاً في أنصرفهم عن أعمالهم الشنيعة تلك .

وعلى اية حال فإننا كلما تمعنّا أكثر في حياة هؤلاء العظام كلما وقفنا على إمتيازات أخلاقية أكبر لهم .



١١ - الفوز في المحن الشاقة :

تعرض الكثير من الأنبياء ﷺ خلال حياتهم لمختلف أنواع الاختبارات الشاقة ، وكانت صفاتهم البارزة هي تحمل أنواع الشدائد ، وعدم الغرور عند النصر ، وباختصار الفوز في الأمتحانات الألهية الصعبة .

فالنبي نوح ﷺ في فترته التبليغية البالغة تسعمائة وخمسين سنة ، وموسى ﷺ خلال خدمته لشعيب في مدين وخلال فترة تحديه الطويلة لفرعون وفترة انحراف بني إسرائيل عن التوحيد والخروج على أوامره وكذلك سائر الأنبياء مثل أيوب وعيسى ولوط وشعيب وهود وخصوصاً إبراهيم قد إبتلوا جميعاً في ساحات الأبتلاء هذه .

وقد جاء في الآية المعنية عن إبراهيم ﷺ إنَّه تعالى قد منحه مقام الأمامة المطلقة فضلاً عن مقام النبوة وذلك بعد فوزه في الاختبار قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾ .

وبالرغم من إنَّ الآية أعلاه قد أشارت إلى الأبتلاءات بشكل غامض ، لكن ذكر المفسرون فان هذه « الكلمات » (أي الأمور التي أختبر الله تعالى بها

إبراهيم) هي من قبيل الأستعداد لتقديم ولده قرباناً وأخذ زوجته وأبنة إسماعيل إلى أرض مكة القاحلة وإسكانهم فيها بأمر من الله تعالى ووقوفه الشجاع أمام عبدة الأصنام والهجرة المقرونة بالحرمان إلى المناطق التي لها إستعداد اكبر للأيمان وأمثالها .

ويرى بعض المفسرين أنَّ إبتلاءات إبراهيم قد بلغت الثلاثين مورداً^(١) ، لكن ما تقدم أعلاه هو أهمها . فهو في الحقيقة قد وضع « حياته » و« أمواله » و« مكانته » و« زوجته » و« ولده » و« وطنه الذي كان قد ألفه » والتي تشكل بمجموعها كيان الإنسان ووجوده في سبيل الله تعالى وخرج من بودقة الاختبار نقياً .

وعلى الرغم من إنَّ هناك حديثاً طويلاً للمفسرين حول تفسير « الكلمات » اذ اعتبرها البعض إشارة إلى مناقشاته الحادة مع عبدة النجوم والشمس والقمر وبينما اعتبرها آخرون إشارة إلى سلسلة من الأحكام الفرعية للدين ، الآن ما تقدم أعلاه هو أنسبها .



(١) نقل كل من المرحوم الطبرسي في « مجمع البيان » و الآلوسي في « روح المعاني » والقرظمي في تفسيره أنَّ هذه الخصال الثلاثين من شرائع الدين قد وردت في أربع سور من القرآن الكريم عشرة منها في سورة « براءة » « التائبون العابدون ... » وعشرة في سورة الأحزاب ، « إنَّ المسلمين والمسلَّات ... » وعشرة في سورة « المؤمنون » « قد أفلح المؤمنون الذين ... » أو في سورة « المعارج » « سأل سائل » . لكن يجب الالتفات إلى أنَّ الصفات الواردة في السور أعلاه ، لا تبلغ الثلاثين صفة من معنى ولا تتجاوز الثلاثين من معنى آخر فضلاً عن أنَّ تكرارها هو مما لا يمكن إنكاره ، وبناءً على هذا فقبول العدد (٣٠) لهذا الموضوع يبدو بعيداً بعض الشيء .

ثمره البحث :

يمكن الأستنتاج مما تقدم أعلاه أن الانبياء ﷺ يتمتعون بسلسلة من الأمتيازات الخاصة من وجهة نظر القرآن ، ولا نقول أن كل واحدة من هذه الصفات منحصرة بهم ، أو أنها تعكس النبوة لوحدها ، بل نقول بإمكان العثور عليها بمجموعها عند الأنبياء ﷺ ، وبأن لها أثراً عميقاً للتعرف عليهم لأنَّ إحدى طرق معرفتهم كما سيأتي تفصيله هي جمع القرائن المختلفة والتي من جملتها « خصائصهم الخلقية » .

شروط الرسالة

١- التقوى والعصمة

تمهيد :

نظراً لتحمل الرسل الالهيين وحملة الوحي أهم وأخطر المسؤوليات في عالم البشرية ، وهي مسؤولية هداية الانسان وتربية النفوس وتهذيبها وتنقيتها من كافة الشوائب الاخلاقية ، بالاضافة إلى تطهير المجتمعات البشرية من انواع الظلم والتعسف ، بطرق لا يمكنهم طيها اعتماداً على العقل والفكر والمعلومات الخاصة فحسب ، بل لابد والحالة هذه من تمسكهم بأعلى درجات « التقوى » ، والتي نطلق عليها منزلة « العصمة » التي لا يمكن ضمان أهداف الرسالة بغيابها . من المؤكد أن مهام العصمة لا يعني « العصمة من الذنب والمعصية » فحسب ، بل له فرع اخر لا يقل أهمية عن قرينه ، ألا وهو « العصمة من كل خطأ واشتباه وانحراف وضلال » . ولا يخفى ان تحقق الهدف من البعثة مرهون بامدادهم بالتأييدات الالهية من هذه الناحية .

ولكل من هذين الفرعين تشعبات اخرى ايضاً: كالعصمة من الذنوب كبيرها وصغيرها ، في فترة ما قبل النبوة وبعدها ، العصمة من الخيانة في تبليغ الوحي والرسالة و ...

كما يندرج في فرع العصمة من الخطأ ايضاً كل من « العصمة من الخطأ في

تلقى الوحي وابلأغه « ، العصمة من الخطأ في القيام بالفرائض الدينية والوامر الشرعية ، واخيراً العصمة من الإنحراف في الامور الدنيوية والشخصية .

هل تعود مسألة عصمة الانبياء في كل هذه الابحاث إلى هذين الفرعين ؟ وما هو الدليل على ذلك على فرض الصحة ؟ وما هو الدليل على الاختلاف الحاصل بينها لو وجد ؟ .

هذه صورة عن مسألة عصمة الانبياء اصولاً وفروعاً من الناحية المبدئية ، والتي ينبغي بيانها في ظل الآيات القرآنية والادلة العقلية نظراً لاهميتها الاساسية والمصيرية . وبهذه الاشارة الخاطفة نعود ثانية إلى القرآن ونستمع خاشعين الى الآيات الواردة في هذا الامجال :

١ - ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾
(البقره ١٢٤)

٢ - ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

(الحشر ٧)

٣ - ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾

(النساء ٨٠)

٤ - ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

(النساء ٦٥)

٥ - ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴿

(الاحزاب ٢١)

٦ - ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا﴾

(الاحزاب ٣٣)

٧ - ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ
الْمُخْلِصِينَ﴾

(ص ٨٢ و ٨٣)

٨ - ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي
وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ
عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾

(ص ٤٥ إلى ٤٧)

٩ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيِهِمُ اقْتَدِهْ﴾

(الانعام ٩٠)

١٠ - ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾

(النجم ٣ و ٤)

تفسير و فذلكة :

كيف يكون المذنبون دعاءً للتقوى ؟

ان الآية الاولى من آيات بحثنا ترفع الستار عن ثلاثة مواضيع :

الاول : الإبتلاءات الكبيرة التي ابتلي بها ابراهيم من قبل الله تعالى ، والتي

اجتازها بنجاح تام .

الثاني : المكافأة العظيمة التي نالها ابراهيم من الله في هذا الموضوع أي

مقام الامامة .

الثالث : طلب ابراهيم منح هذه الموهبة لبعض ذريته ، وجواب الله تعالى

له بأن الظالمين من ذريته لن ينالوا هذا المقام الرفيع ابداً :

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ

إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ .

أما فيما يتعلق بالقسم الاول فقد تقدم الكلام عنه بشكل وافٍ فيما مضى ،

كما أنَّ هناك حديثاً طويلاً فيما يتعلق بالقسم الثاني اي نيل مقام الإمامة الرفيع

وماهيتها .

هل الإمامة تعني « النبوة » ؟ في حين أنَّ هناك قرائن واضحة تدل على أنَّ

ابراهيم عليه السلام قد تطرق لهذا الشيء بعد وصوله لمقام النبوة ، وفي اواخر سنِّي

عمره ، حينما كان له أولاد وذرية كاسماعيل واسحق ، وعلى أمل امتداد ذريته

هذه إلى الاجيال اللاحقة ، ومن هنا فقد تمنى لهم أيضاً مقام الامامة ، اذ أنه وكما

نعلم لم يرزق ولداً لمدة مديدة ، حتى أنه اخذته الدهشة حينما بشره الملائكة

الموكلون بهلاك قوم لوط ، هو وزوجته بولد كما تقرأ : ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ

مَسْنَى الْكِبَرِ فِيمَ تُبَشِّرُونَ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾
(الحجر / ٥٥)

بل قد تعجبت زوجته ايضاً لهذه البشرى واستغربت قائلة : ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾
«هود / ٧٢» .

لكن الملائكة حذرته في الحال من تبعية اليأس من رحمة الله في كل الأحوال .

وبناءً على هذا فمن المستبعد جداً ان يكون المراد هو النبوة ، بل المراد هو الحكومة الالهية المطلقة على الاموال والانس والكل شؤون الحياة الانسانية ، او الحكومة الظاهرية والباطنية على الارواح والانس عن طريق التربية الظاهرية والباطنية لا يصلح الناس إلى الكمال المطلوب باذنه تعالى ، وعدم الاقتصار على رسم الطريق فحسب ، والذي يعد من مهام كل الانبياء .

على أية حال انه مقام يفوق النبوة ، ولم ينله الا البعض من الانبياء فقط .
واما فيما يتعلق بالموضوع الثالث وهو طلب ابراهيم هذا المقام لبعض اولاده ، وسماعه الجواب في الحال من ان هذا المقام هو نوع من التعهد الإلهي لا يناله الظالمون ، فالكلام فيه يدور حول المراد من « الظالم » معناً ومفهوماً .

يجب معرفة ما المراد بالظالم ؟ هل هو فقط ذلك الشخص الموصوف بهذه الصفة فعلاً ؟ مع انه يستبعد جداً بل يستحيل أن يطلب ابراهيم عليه السلام مثل هذا الطلب للظلمة من ذريته خصوصاً بعد اجتيازه لكل تلك الاختبارات الصعبة وشموله بمثل تلك العناية ، هذا الشيء غير معقول ابداً سواء كان هذا الظلم يعني الكفر كما يصرح بذلك القرآن الكريم : ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان / ١٣) ، او بمعناه الواسع الشامل لكل انواع الفسق والفجور والمعصية .

وبناءً على هذا فالمراد بـ «الظالم» هنا هو ذلك الشخص الموصوف بتلك الصفة ولو للحظة واحدة طول عمره مهما انقضى على تلك اللحظة من مدة، مثل هذا المصداق بحاجة إلى بيان .

وفي الحقيقة إن الله تعالى أراد ببيان هذا إيقاف إبراهيم على هذه الحقيقة، وهي أن مقام الإمامة رفيع بدرجة لا يناله إلا أولئك الذين يليقون لهذه (النعمة) العظيمة المنزهون عن كل أنواع الظلم والشرك والكفر والمعصية، وبعبارة أخرى المعصومون .

ولذا يقول الفخر الرازي حين يصل إلى تفسير الآية أعلاه: «هذه الآية تدل على عصمة الانبياء من وجهين :

الاول : انه قد ثبت أن المراد من هذه العصمة : الامامة . ولا شك أن كل نبي إمام، فان الامام هو الذي يؤتم به، والنبي أولى الناس بذلك، واذا دلت الآية على أن الامام لا يكون فاسقاً، فبأن تدل على أن الرسول لا يجوز أن يكون فاسقاً فاعلاً للذنوب والمعصية أولى .

الثاني : ان التعبير بـ «عهدي» لو كان يشير إلى النبوة فالقصد منه أن أحداً من الظلمة لا ينال مقام النبوة، وأن النبي يجب ان يكون معصوماً، ولو كان يشير إلى الامامة فدلالة الآية تامة ايضاً، لأن كل نبي إمام نظراً لاقتداء الناس به (في كل الامور بلا قيد او شرط) (١) .

مع ان كلام الرازي في تفسير الامامة لم يف بالمطلوب (كما تقدم اعلاه)، لكن اعترافه الصريح فيما يتعلق بالدلالة على لزوم عصمة الانبياء (والائمة) ملفت للنظر، والاشكال الوحيد الذي يمكن ايراده على هذا الاستدلال، هو ان عصمة الائمة هي المستوحاة من الآية اعلاه لا الانبياء (الائمة بالمعنى المتقدم).

لكن هذا الاشكال يمكن رده بالقول بان طلب ابراهيم مع أنه يدور حول مقام الامامة ، فلفظة «العهد» الواردة في جواب الباري جلت قدرته : ﴿لَا يَنْتَهِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ تشمل كلاً من « الامامة » و « النبوة » معاً ، لكون كل منهما عهداً الهياً لبداية شموله لهما كيفما فسرناه ، وموهبة كهذه لا تكون من نصيب الظالمين كما جاء في روح البيان ايضاً : وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الْكَبَائِرِ قَبْلَ الْبُعْثَةِ وَبَعْدَهَا ^(١).

في الآية الثانية يأمر الله تعالى المؤمنين كافة بأداء ما يأمر به النبي ﷺ واجتناب ما ينهى عنه ، وضرورة التقوى لانه تعالى شديد العقاب .
﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

التأمل في الآية يكشف عن أن المراد من ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ﴾ هو كل أوامر النبي ﷺ ، باعتبار ان نواحيه هي الطرف المقابل ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ . ومن هنا فقد صرح الكثير من المفسرين بعمومية مفاد الآية (كالطبرسي في مجمع البيان ، ابي الفتوح الرازي في روح الجنان : القرطبي في تفسيره ، والفخر الرازي في التفسير الكبير ، بالاضافة إلى العديد من المفسرين المعروفين ايضاً) ؟ .

وطبقاً لهذه الآية يجب التسليم المطلق في مقابل أوامر النبي ﷺ ونواحيه . ولا يمكن تصوّر التسليم والطاعة بلا قيد او شرط لشخص غير المعصوم ، اذ مع ارتكاب الخطأ او المعصية والذنب يجب على المؤمنين تنبيهه

على ذلك أو نهيه عنه فضلاً عن حرمة التسليم له .

كما ورد نظير هذا المعنى ايضاً بصيغة اخرى في الآية الثالثة من آيات بحثنا حيث تقول كحكم مطلق ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ .

الملفت للنظر هو ما قاله الفخر الرازي في تفسيره : من ان هذه الآية هي من اقوى الادلة على عصمة نبي الاسلام في كل اوامره ونواهيه ، وبأن كل ما يقوله هو عن الله تعالى ، لأنه لو اخطأ في شيء فلن تكون اطاعته اطاعة الله تعالى ، كما يجب ان يكون معصوماً في افعاله ايضاً ، لان الله تعالى قد امر باتباعه (بشكل مطلق)^(١) .

وكذلك فقد جاء نظير هذا المعنى ايضاً بقلب آخر في رابع آية من البحث حيث تقول : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ .

ومن الواضح عدم وجوب اطاعة القاضي عند ابتلائه بخطأ قطعي في حكمه ، وبناءً على هذا فوجوب اطاعة النبي الاكرم ﷺ في احكامه بلا قيد او شرط ، بل ضرورة الرضا الباطني والقلبي بحكمه والتسليم المطلق له ، وما اكدت عليه الآية اعلاه دليل واضح على معصوميته ، ولذا يصرح الفخر الرازي في ذيل هذه الآية بانها تدل على ان الانبياء ﷺ معصومون عن الخطأ في الفتاوى والاحكام ، لأنه تعالى أوجب الانقياد لحكمهم وبالف في ذلك الايجاب ، وبين أنه لابد من حصول ذلك الانقياد في الظاهر وفي القلب ، وذلك ينفي صدور

الخطأ عنهم ^(١) .

صحيح ان الآية قد نزلت في تحكيم نبي الاسلام ﷺ ، لكنها توجب اطاعته في كل شيء طبقاً للقرائن التي تحف بها . ولذا نقرأ في الحديث عن الامام الصادق عليه السلام : لَوْ أَنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللَّهَ ، فَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَآتَوْا الزَّكَاةَ ، وَصَامُوا شَهْرَ رَمَضَانَ ، وَحَجُّوا الْبَيْتَ ، ثُمَّ قَالُوا إِنَّا شَيْءٌ صَنَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا صَنَعَ خِلَافَ مَا صَنَعَ أَوْ وَجَدُوا مِنْ ذَلِكَ حَرَجًا فِي أَنْفُسِهِمْ لَكَانُوا مُشْرِكِينَ ! ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ... ^(٢) .

واضح ان هذه الآية لا تختص بزمن النبي ﷺ فقط ، بل هي قائمة إلى يوم القيامة ، وقد اشار البعض من المفسرين إلى ذلك ايضاً ^(٣) .

وبناءً على هذا فكل من خالف سنة النبي ﷺ القطعية وأحكامه ، أو وجد من ذلك حرجاً في نفسه أصبح مصداقاً لهذه الآية .

وبالجملة فالآيات الثلاث اعلاه هي بصدد بيان حقيقة واحدة بعبارات شتى ، ألا وهي ضرورة التسليم المطلق امام اوامر النبي ﷺ وأحكامه ، ولا يتم هذا الا بالقول بأنه معصوم .

الغريب هو أن بعضاً من مفسري أهل السنة قد استدل بما جاء في صحيح مسلم من أن النبي ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يَلْقَحُونَ (النخل) فقال : لَوْلَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ قَالَ فخرج شبيصاً (لم يثمر) ، فمرّ بهم فقال : مَا لَنَخْلُكُمْ ؟ قَالُوا قُلْتَ كَذَا وَكَذَا قَالَ : انتم اعلم بأمر دنياكم ^(٤) .

(١) التفسير الكبير الجزء ١٠ الصفحة ١٦٥ .

(٢) مجمع البيان الجزء ٣ الصفحة ٦٩ .

(٣) روح المعاني الجزء ٥ الصفحة ٦٥ .

(٤) جاء في صحيح مسلم في هذا الموضوع ثلاثة احاديث متفقة مضموناً وبعبارات شتى ، (راجع الجزء ٤ ، الباب ٣٨ الصفحة ١٨٣٥ الاحاديث ١٣٩ و ١٤١ باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون

ومن هنا فقد قسّم البعض منهم احاديث النبي ﷺ إلى قسمين : ما يقوله عن الله تعالى في المسائل الدينية والشرعية ، وما يقول عن نفسه في امور الدنيا ، فهو معصوم في الاول دون الثاني !!

لكننا نعتقد بضرورة طرح مثل هذه الاحاديث جانباً ، فهي من أجلى مصاديق الروايات المضادة لكتاب الله تعالى ، لأنه فضلاً عن اعتبار القرآن لكلام النبي ، وحديثه مقياساً للناس بشكل مطلق ، وكذلك تأييد جملة ﴿ وَمَا يَنْطَقُ عَنْ الْهَوَىٰ ﴾ (النجم / ٣) لما ذهبنا اليه ، كيف يمكن التصديق بان نبياً بكل تلك العظمة يدعو الناس إلى شيء من دون علم ، بحيث يكون سبباً لدمار محاصيلهم ثم يتنازل عن كلامه هذا ويقول لهم : انتم ادرى مني بامور دنياكم ، في حين أنه وبلا شك يعد من اذكى الناس وله اطلاع واسع بامور من قبيل تأبير النخل و... بل كيف يمكن لشخص يبدي رأيه رجماً بالغيب والعياذ بالله ان يكون رئيساً للحكومة الاسلامية مع كل عظمتها تلك .

ولهذا السبب لا نستبعد كون مثل هذه الاحاديث من الموضوعات التي حاكها المنافقون واعداء الاسلام ، وادخلوها بين طيات الكتب الاسلامية للخط من عظمة منزلة النبي ﷺ ، وعلمه وعقله وتعريضه للشك والريبة والاستفسار . عدم نقل هذا الحديث في الكثير من المصادر الاسلامية الاخرى ، يعدّ بنفسه دليلاً على عدم اطمئنان علماء الاسلام بمثل هذه الاحاديث الواهية ، والذي يدعو للعجب هو اعتمادها من قبل اشخاص كـ « المراغي » وصاحب « المنار » في تفاسيرهم ، في الوقت الذي يستشكلون على الكثير من المسائل الاخرى .

على أية حال فتقسيم اوامر النبي ﷺ هذا ، يفتح الطريق امام الذين في

نفوسهم مرض ، للتشكيك في كون أوامر النبي وفي شتى المجالات الاجتماعية والحياتية والبشرية ، هل هي من القسم الأول او الثاني ؟

لذا وكما سيأتي انشاء الله لو وجد الخطأ والاشتباه طريقه إلى شيء من كلام النبي ﷺ ، لما بقي هناك مجال الاعتماد على كافة احاديثه ، ولهذا نعتقد نحن بوجوب عصمة الانبياء والائمة من جميع الجهات .

الآية الخامسة تخاطب المسلمين وتقول لهم : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ .

« الاسوة » لها معنيان : فهي تارة تعني الاصلاح والعلاج ومن هنا قيل للطبيب « آسي » ، وتارة تعني « الغم والحزن » .

يعتقد البعض ان هذه المفردة لو كانت « معتلاً واوياً » لكانت بالمعنى الاول ، وبالمعنى الثاني لو كانت « معتلاً يائياً » .

كما احتمل ايضاً عودة كلا المعنيين إلى معنى واحد باعتبار ان الغم والحزن والاسى إنما يكون على ما فيه الصلاح والعلاج .

على أية حال فظاهر معنى الآية الخامسة هو الاقتداء والإقتفاء (باعتبار أن الاقتداء بالعظماء يعد من افضل طرق الصلاح) .

الملفت للنظر ان « الاسوة » كـ « القدوة » لها معنى مصدرياً وهو الاقتداء والمتابعة لامعنى وصفيّاً كما هو متداول اليوم ، وبعبارة اخرى فالقرآن الكريم لا يقول : النبي ﷺ قدوة لكم ، بل يقول : في وجوده قدوة حسنة (تأمل جيداً) .

التعبير بـ « لقد » للتأكيد ، وذكر « كان » اشارة إلى حقيقة كون النبي ﷺ

قدوة للمسلمين على مرّ الزمن .

مع أن المخاطب في هذه الآية (لكم) يشمل كل المؤمنين ، لكن جملة

﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ تفيد ان الاشخاص الذين

يتصفون بهذه الأوصاف ، وهي رجاء رحمة الله واليوم الآخر والذكر الكثير لله تعالى هم فقط أولئك الذين يتسنى لهم الاستفادة من هذه القدوة الحسنة .
وبالرغم من ان هذه الآية ناظرة إلى استقامة النبي ﷺ وشجاعته الخارقة في معركة الأحزاب : ولكن هذا لا يحدد مفهوم الآية نظراً لاطلاقه وخلوه من كل قيد او شرط .

الاجابة على سؤال :

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه وهو هل يمكن الاقتداء المطلق بلا قيد او شرط بمن لا يتمتع بمقام العصمة؟! والجواب واضح ، اذن فالامر بالاقتداء هذا خير دليل على حقيقة معصوميته ، وإلا لما جاز أن يكون قدوة في كل شيء ، ولكل شخص في أي زمان ومكان .

ومن هنا فالآية أعلاه متفقة مع الآيات التي تأمر المؤمنين بالطاعة النبي الاكرم ﷺ بلا قيد او شرط (الايات السابقة) .

ربما قيل بان التعبير بـ « الاسوة » قد جاء في القرآن في موضعين آخرين (الممتحنة / ٤ و ٦) وانه شامل للمؤمنين الذين كانوا مع نبي عظيم كابراهيم عليه السلام ، بالاضافة اليه ، بالرغم من عدم عصمتهم يقول تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ .

لكن التدقيق في الآية المزبورة يكشف انحصار الاقتداء والتأسي هنا في بُعد واحد فقط ، ألا وهو مسألة البراءة من المشركين ، اذ ان هناك طائفة من المسلمين في عصر النبي ﷺ حديثوا عهد لم يستسيغوا التنازل عن اقربائهم

ومعارفهم من المشركين بسهولة ، وهنا يقول القرآن : اقتدوا بآبراهيم وأصحابه بالاسلام الذين اعلنوا عن استيائهم من المشركين والبراءة منهم وآمنوا بمبدأ التوحيد .

كما أن الآية السادسة من هذه السورة تؤكد على هذا المطلب ايضاً ، وبناءً على هذا فالحديث لم يقصد منه مُطلق الاقتداء والتأسي فيما يتعلق بأصحاب ابراهيم عليه السلام (تأمل جيداً) .

والمخاطب في الآية السادسة هم اهل بيت النبي ﷺ اذ يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ .

جاء في مقاييس اللغة ان اصل « الرجس » هو « الاختلاط » ، ثم اطلق على الاشياء النجسة لاختلاطها بشيء اخر .

لكن « الراغب » فسّر أصل الرجس في « مفرداته » بمعنى « الشيء القذر » وقال إنه يكون على أربعة أوجه : أما من حيث الطبع ، وأما من جهة العقل ، وأما من جهة الشرع ، وأما من كل ذلك .

وقد ذكر البعض مصاديق او معاني عديدة لـ « الرجس » كالذنوب والشرك والحسد والبخل ، والقذارة ، النجس المختلط ، الصديد والجراحة ، الصياح الخارج عن الحد المتعارف ، الشك ، الكفر ، اللعن ، الرائحة الكريهة وامثالها .

يبدو أن « الرجس » في الآية اعلاه ونظراً لا طلاقها له معنى واسع شامل ، لكل انواع الذنب والشرك والبخل والحسد والفسوق الظاهري والباطني والاخلاق والعادات السيئة التي تشمئز منها النفوس . والحقيقة أن أهل بيت النبي ﷺ وبارادة من الله تعالى كانوا مطهرين من كل هذه الامور ، ولا شك أن

هذه الآية تثبت مسألة العصمة في شخص النبي ﷺ وأهل بيته (اما فيما يتعلق بالمراد من أهل البيت ومن هم ؟ فسيأتي الكلام عن ذلك انشاء الله تعالى) ، ان ارادته تعالى لا بد وأن تتحقق ، وإرادته في ابعاد الرجس عن هذه الاسرة لا يعني سوى « ضمان عصمتهم » مفهوماً ، لبداية كون الشرك والذنوب من أجل مصاديق الرجس والقذارة ، ولا شك أن نفي الرجس بشكل مطلق يشمل الذنوب ايضاً .

هل أن هذه الارادة تشريعية ام تكوينية ؟ وبعبارة اخرى ، هل أن الله تعالى أمر أهل البيت بعدم ارتكاب الذنوب والقبائح ، أم أنه تعالى زرع الطهارة في نفوسهم ؟ .

بديهي أن المراد ليس المعنى الاول ، نظراً لعدم انحصار الارادة التشريعية (التكليف بأداء الواجبات وترك المحرمات) بأسرة النبي فقط ، بل شمولها لكل الناس بلا استثناء في اجتناب الذنوب ، في حين أن كلمة « انما » تدل على اختصاص وانحصار هذه الموهبة في أهل بيت النبي ﷺ (تأمل جيداً) .

وبناء على هذا فـ « الارادة » هنا تنحصر بالارادة التكوينية ، لكن ليس بذلك المعنى الذي يستلزم القول بالجبر وأن أهل بيت النبي ﷺ مجبرون على العصمة ، لأن الانبياء والأئمة وكما سيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل لا يذنبون مع قدرتهم على ارتكاب الذنوب ، حيث ان الله تعالى قد منحهم سلسلة من المعارف والمبادئ الفطرية التي تدعوهم إلى الطهارة ، بالضبط مثل العاقل الذي تمنعه معرفته ومبادئه الفطرية من خروجه إلى الزقاق عارياً كما خلقه الله تعالى ، مع بداية قدرته على ذلك (سيأتي شرح وافٍ لهذا الموضوع في ذيل الآيات) .

من هم أهل البيت ؟ .

مع كون عبارة أهل البيت مطلقة ، لكن المراد هم أهل بيت النبي ﷺ بقرينة الآيات السابقة واللاحقة ، واتفاق علماء الاسلام والمفسرين على ذلك .
المهم هنا هو من المراد من أهل البيت ﷺ ، هل النبي الاكرم وعلي وفاطمة والحسن والحسين (هذه الانوار الخمسة المقدسة) فقط ، ام زوجات النبي ﷺ وباقي اقربائه ايضا ؟ .

عموم علماء الشيعة والبعض من علماء السنة اخذوا بالقول الاول ، في حين ذهب الكثير من علماء اهل السنة إلى القول الثاني^(١) .
ولاجل الوقوف على حقيقة المراد من أهل البيت في الآية الشريفة ، لابد من التأمل في الرويات الكثيرة المذكورة في ذيل هذه الآية عن الكثير من الصحابة عن النبي ﷺ .

١ - السيوطي وفي « الدر المنثور » الذي يُعدّ من أشهر كتب احاديث تفسير القرآن عن أهل السنة ، ذكر حوالي عشرين حديثاً في ذيل هذه الآية ، جاء في خمسة عشر منها أنها نزلت في حق الخمسة أهل الكساء أي النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ ، واللطيف هنا هو انتهاء عشر من هذه الروايات الخمس إلى النبي ﷺ وكون رواتها هم أم سلمة ، ابو سعيد ، عائشة ، سعد ، واصل بن أصةق ، أبو سعيد الخدري ، أنس ، ابو الحمراء (البعض من الروايات أعلاه ينتهي سندها إلى أم سلمة زوجة النبي ﷺ) .

في حين أنّ أربعة من هذه الاحاديث فقط تشير إلى أن الآيات ناظرة إلى

(١) جاء في « في ظلال القرآن » ان التعبير باهل البيت بشكل مطلق اشارة إلى أن البيت الحقيقي في العالم هو بيت النبي ﷺ ، « مثلما ان هذا التعبير قد ورد بشكل مطلق في حق بيت الله الحرام في البعض من آيات القرآن » وفي الواقع فان هذا التعبير هو نوع تكريم وتعظيم خاصين لاهل بيت النبي ﷺ .

زوجات النبي ﷺ ، والملفت للنظر هو أن أياً من هذه الاحاديث الاربعة لا ينتهي سنداً إلى النبي ﷺ ، بل قد نقلت عن ابن عباس وعروة وآخرين كما شهدوا على ذلك بأنفسهم ، فضلاً عن رائحة الوضع التي تشم منها ، اذ قد ورد في اربعتها ان المراد من الآية زوجات النبي ﷺ فقط ! في حين ان الخطاب بـ «كم» في جملة ﴿لِيُذْهَبَ عَنْكُمُ﴾ و ﴿وَيُطَهَّرَ كُمْ تَطْهِيراً﴾ ، الوارد بصيغة المذكر يبين ان هناك رجالاً مخاطبين في هذه الآية ايضاً ، على خلاف الآيات السابقة النازلة في خصوص نساء النبي ﷺ ، والتي استعمل فيها الضمير «هن» . اذن فالحديث القائل بأن المراد هو زوجات النبي ﷺ ، هو خلاف ظاهر القرآن ولا يمكن قبوله .



٢ - هناك العديد من الروايات في باب حديث الكساء بين طيات المصادر الاسلامية (وخاصة مصادر أهل السنة) التي يُستخلص منها هذا المعنى وهو أن النبي ﷺ ، دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهما السلام (أو أنهم حضروا عنده) وغطّاهم بردائه ، وقال طبقاً لرواية عن جعفر الطيار (ابن عم النبي ﷺ) اللَّهُمَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ أَهْلًا وَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي ، فَأَنْزِلْ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهَّرَ كُمْ تَطْهِيراً﴾ . وفي هذه الاثناء تقدمت زينب زوجة النبي ﷺ وقالت : أَلَا أَدْخُلُ مَعَكُمْ ؟ قَالَ مَكَانَكَ فَإِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ (١) .

هذا الحديث يصرح بعدم دخول زوجات النبي ﷺ في الآية اعلاه .

(١) شواهد التنزيل تأليف الحاكم الحسكاني الحنفي (من اقطاب علماء القرن الخامس الهجري) الجزء ٢ الصفحة ٣٢ الحديث ٦٧٣ .

الأهم من هذا هو الحديث الوارد عن عائشة بنفس هذا المعنى والذي تقول في خاتمته : فقلت يا رسول الله ألسنت من اهلك ؟ قال ﷺ : انك لعلني خير . ولم يدخلني معهم ^(١) .

كما أن نفس هذا المعنى جاء في صحيح مسلم ، غاية الأمر أن ذيل الحديث الذي يرتبط بطلب عائشة لم يرد فيه ^(٢) .

وورد نفس هذا المعنى في حديث آخر عن « أم سلمة » وانها قالت في ذيله : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَا مَعَهُمْ ؟ ! قال : إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ (لكنك لست منهم) ^(٣) .

ونقل « الحاكم » نفس هذا المعنى بصراحة أكبر في « مستدرك الصحيحين » عن أم سلمة انه ﷺ قال : إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي ^(٤) .

حديث أم سلمة هذا ورد في الكثير من الكتب المعروفة ، من جملتها ما جاء في « صحيح الترمذي » من أن النبي ﷺ حينما غطى علياً وفاطمة والحسن والحسين بردائه وقال : اَللّهُمَّ ! هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي فَأَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً ، فقالت أم سلمة : وَأَنَا مَعَهُمْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ؟ ! فقال النبي ﷺ : أَنْتِ عَلَى مَكَانِكَ وَأَنْتِ عَلَى خَيْرٍ (وان لم تكوني في زمرة أهل البيت في هذه الآية) ^(٥) .

هذه التعابير تُبين بمجموعها وبكل وضوح أن الآية لم تشمل أياً من زوجات النبي ﷺ ، لا « أم سلمة » ولا « عائشة » ولا سواهن . والذي يدعو

(١) نفس المصدر الجزء ٢ الصفحة ٣٨ الحديث ٦٨٣ .

(٢) صحيح مسلم الجزء ٤ الصفحة ١٨٨٣ (باب فضائل أهل بيت النبي) الحديث ٦١ .

(٣) ابن الاثير نقل هذا الحديث في « أسد الغابة » الجزء ٣ الصفحة ٤١٣ .

(٤) مستدرك الصحيحين الجزء ٢ الصفحة ٤١٦ (ط . حيدر آباد دكن) نقلاً عن « احقاق الحق » الجزء ٣ الصفحة ٥١٨ .

(٥) صحيح الترمذي الجزء ٥ ، كتاب تفسير القرآن ، الباب ٣٤ الصفحة ٣٥١ الحديث ٣٢٠ .

للاستغراب هو اصرار البعض من مفسري أهل السنة على شمول هذه الآية لزوجات النبي ﷺ مع عدم اكترائهم بكل هذه الاحاديث المعروفة المعتبرة .
والعجيب من الفخر الرازي المعروف بشروحه وتفصيلاته الوافية ودقة ملاحظاته عند تناول آيات القرآن ، هو مروره مرّ الكرام على هذه الآية التي يطول فيها الحديث من كافة الابعاد ، وتفسيره لها لفظياً بسطرين أو ثلاثة لا غير ؟ ! .
لماذا يبتلي عالم بمثل هذا التعصب الذي يعلق عليه أبواب الحقيقة مع ما تميّزه من قابلية واطلاع واسع ؟ !



٣ - الملاحظة الاخرى هي أنه : قد جاء في الكثير من الاحاديث ، والتي أشير إلى البعض منها فيما تقدم من أنّ النبي ﷺ وبعد نزول هذه الآية كان ينادي لمدة أربعين يوماً أو ستة أشهر أو ثمانية أشهر أو أكثر من ذلك عند صلاة الفجر ، أو كل الصلوات أو حين مروره ببیت فاطمة الزهراء ع : **الْصَّلَاةُ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ، وجاء في البعض منها أنّه ﷺ كان يقول : **السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ ... (١)** .

التفاوت الملحوظ في هذه الروايات من الناحية الزمنية لا أهمية له أصلاً ، اذ من الممكن أنّ « أنساً » قد شهد هذا الموقف ستة اشهر ، وابي سعيد الخدري ثمانية أشهر وغيرهما أكثر أو أقل ، اذ في الواقع كلّ يذكر المدة التي شهداها هو

(١) جاء هذا الحديث في «شواهد التنزيل» عن « انس بن مالك » الجزء ٢ الصفحة ١١ وعن « ابو سعيد الخدري » في نفس الجزء الصفحة ٢٨ و ٢٩ ، وفي « الدر المنثور » في ذيل نفس هذه الآية عن « ابن عباس » و « ابو الحمراء » .

بنفسه دون ان ينفي ما زاد عليها .

ولكن على أية حال فهذه الرواية دليل واضح جداً على أنّ النبي ﷺ ،
كان يريد بيان هذه الحقيقة لعموم المسلمين وترسيخها في اذهانهم ، وهي أنّ
هذه العائلة فقط دون سواها هي أهل بيته في هذه الآية .

والقاؤه الرداء على هؤلاء النفر من أهل بيته وتشخيصه لهم به ، وحجب
الآخرين حتى زوجاته من الدخول تحته انما هو لبيان أن مصاديق هذه الآية هم
أهل الكساء فقط .

نحن لا ندري لو أنّ احداً أراد تمييز أفراد معدودين من بين جمع كثير ،
ومخاطبتهم ، بحيث لا يعترض عليه الشكاكون ماذا ينبغي له ان يفعل ؟ ألا يكفي
لهذا الغرض القاء الرداء عليهم ، أو مخاطبتهم عند المرور بالقرب من منازلهم
لشهور متوالية !

ألا يدعو للاستغراب اهمال البعض لهذه الحقائق ، والاصرار على توسيع
دائرة تلك الفضيلة المهمة المحدودة بالخمس أهل الكساء لتشمل غيرهم ؟
والملفت للنظر ان الحاكم الحكّاني من علماء اهل السنّة المعروفين ، قد
ذكر أكثر من مائة وثلاثين حديثاً ! حول هذا الموضوع .

و « السيد علوي ابن ظاهر الحضرمي » يقول في كتاب « الْقَوْلُ الْفَضْلُ » :
« حديث أية التطهير هو من الاحاديث المشهورة المتواترة التي تقبلتها الامّة
الاسلامية .. واعترف بصحته سبعة عشر من كبار حفاظ الحديث » ^(١) .

اخر ما يتعلق بهذا الموضوع ، هو أنّ الكثير من الروايات الواردة بهذا الشأن
مذكورة في كتاب « فضائل الخمسة من الصحاح الستة » عن صحيح مسلم ،
صحيح الترمذي ، تفسير الطبري ، مستدرک الصحيحين ، ومسند الامام احمد

(١) رواية هذه الاحاديث ذكرها في الجزء ٢ من كتابه من الصفحة ١٠ إلى ٩٢ (٨٢ صفحة) فراجعها .

وخصائص النسائي ، وتأريخ بغداد ، ومسند أبي دواد ، وأسد الغابة ، وكتب أخرى يمكن الرجوع إليها لمزيد من الاطلاع والتعمق ولامكانية الحكم بشأنها بشكل افضل^(١) .



في الآية السابعة نواجه تعبيراً آخر يشير بدوره إلى مسألة عصمة الانبياء ايضاً ، وذلك حينما طرد الشيطان من رحمة الله تعالى (وبدأت عداوته مع الانسان) ، اذ يقول : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

هذا التعبير لا ينحصر بالآية اعلاه ، بل قد ورد نفس هذا المعنى ايضاً في سورة (الحجر / ٤٠) بتفاوت ضئيل : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .



وفي الآية الثامنة نرى هذا المعنى ايضاً بقلب آخر حيث يحكي تعالى عن فريق من الانبياء الكبار : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ .

وكما قلنا في خصائص الانبياء ﷺ فـ « المخلص » (بكسر اللام) هو الذي يسعى لتصفية قلبه وهي المرحلة الرفيعة من التقوى وطهارة القلب والمرحلة الأرفع والأسمى منها هي « المخلص » (بفتح اللام) وهو يختص باولئك الذين طهرهم الله تعالى من كل الشوائب والقبائح ، نتيجة سعيهم المتواصل لتهديب أنفسهم ، ولهذا يرتبطون بالله تعالى بكل وجودهم ، وبديهي ان الشيطان

(١) فضائل الخمسة من الصحاح الستة الجزء ١ الصفحة ٢٧٠ إلى ٢٨٩ .

لا يجد ضالته فيهم أبداً ، اذ لا مكان لغير الله في قلوبهم ولذا لا يفكرون بمن سواه ولا يتمنون غير رضاه .

من المسلّم أنّ صفة كهذه مرافقة لمقام العصمة ، وذلك لخروجهم عن دائرة طاعة الشيطان ، وبالشكل الذي يجعله لا يفكر في صرفهم أبداً . كما أنهم خالصون لله تعالى من ناحية الصفات النفسانية والميول والرغبات ، ولهذا السبب لا تدنسهم الخطيئة ولا يتبعون الهوى .

بديهي ان استثناء الشيطان لهم من ولد آدم ونقض يده منهم ، وعدم السعي لاغوائهم ، ليس لاحترام خاص يُكنّه لـ « المخلصين » ، بل ليأسه وقنوطه ويقينه بعجزه عن الوسوسة لهم .

صحيح أنّ الآيات أعلاه لاتصرح بخصوص الانبياء أو الائمة المعصومين ، لكن لفظة « المخلصين » وكيفما فسرناها تشمل الانبياء وأوصياءهم ، لعدم وجود أفضل منهم من بين عباد الله ، والملفت للنظر ان هذا التأيد الالهي المانع من ارتكاب المعصية والمتسبب للعصمة ، والذي يدور حول محور الاخلاص متجسد في قصة يوسف ايضاً ، يقول تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (يوسف / ٢٤) .

هذا التعبير يبين أنّ من يكون « مخلصاً » يتخلص من ثورة هوى النفس وطغيانه ، والوساوس الشيطانية ببركة الامدادات الغيبية ، وجملة ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ هي من قبيل القياس منصوص العلة ، الذي يضيف العمومية على مفهوم الآية .

مفهوم عصمة الانبياء في ظل الاخلاص يتضح من خلال مقاومة يوسف ، مع كونه شاباً أعزباً ، وصموده أمام أمواج الخطيئة المتلاطمة التي احاطت بزورق وجوده من كل حَدَثٍ وصوب ، وفي ظروف حساسة تفوق المتعارف

امام الوسوس الكثيرة ، التي أثارها تلك المرأة الجذابة ، ولذا نجد أن لاقطاب المفسرين عبارات تشير إلى مقام عصمة الانبياء في ذيل الآيات المذكورة ^(١) .



وفي الآية التاسعة خوطب نبي الاسلام ﷺ ضمن الحديث عن الانبياء السابقين ، كابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب وموسى وعيسى ، وفريق آخر من الانبياء الكبار بقوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدْيُهُمْ أُقْتَدِ﴾ ^(٢) . الملفت للنظر أنها تأمر النبي ﷺ بالاقْتداء بهدايتهم بلا قيد او شرط ! ، فهل يعقل عدم حصول أولئك الانبياء على مقام العصمة ثم يؤمر نبي الاسلام ﷺ بالاقْتداء بهم بلا قيد او شرط ؟ .

وبعبارة اخرى : في الآية أعلاه تمّ التأكيد أولاً على الهداية الالهية لهم ، ثم تمّ التفريع على ذلك بالقول : الآن وبعد ان شلتهم الهداية الالهية اقتد بهداهم (تأمل جيداً) .

ومن المسلّم أن المراد ، بالهداية الالهية هنا ليس رسم الطريق فحسب ، لعدم اختصاصه بالانبياء فقط بل لشموله لكل الناس حتى الكفار ، وعليه فالهداية المزبورة هي نفس معنى الايصال إلى المطلوب (وبلوغ المقصود) بعيداً عن أي خطأ وانحراف واشتباه ومعصية .

يقول المرحوم العلامة الطباطبائي في الميزان : ان هذه الآية خاصة بالمعصومين .

(١) راجع مجمع البيان للطبرسي ، البيان للشيخ الطوسي ، الميزان للعلامة الطباطبائي ، روح البيان للقرطبي ، وتفسير « في ظلال القرآن » في ذيل الآيات سورة البحث .

(٢) يجب الأيْفوتنا ان « الهاء » في لفظة « اقتده » ليست ضميراً بل هاء السكتة التي تلحق الكلام عند الوقوف على الحرف المتحرك .

بديهي ان المراد بهداية الانبياء هي تلك الاصول والمعارف التي بلغوها بانفسهم ، مضافاً إلى اصول تعليماتهم العبادية والسياسية والاخلاقية والتربوية . ولا منافاة لهذا مع نسخ قسم من تفاصيل أحكام شريعتهم ، كما أنّ تفسيرهم للهداية بمعنى الايمان أو الصبر وأمثالهما إنّما هو لاقتناعهم بما ذكره البعض من المصاديق .

وتوهم البعض بأنّ الآية أعلاه منسوخة بالآية ٤٨ من سورة المائدة : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ ليس في محله ، لأنّ هداية الانبياء التي تشكل الاصول العامة لتعاليمهم غير قابلة للتغيير ، ولا تتأثر بالتغيرات الجزئية للشرائع الناتجة عن الظروف الزمانية والمكانية ، ولذا يقول القرآن على لسان المؤمنين الحقيقيين : ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقره / ٢٨٥) .

زبدة الكلام هي أنّ الإقتداء بهداية الانبياء السابقين هو نوع من « التحقيق » لا « التقليد » كما يراه البعض ، لان التحقيق هو قبول الشيء بالدليل ، ومقام عصمة الانبياء وصدقهم هو بمثابة الدليل على حقانية ما يقولونه . ولذا فاستنباط صفات الله تعالى أو تفصيلات المعاد من القرآن ، هو في الحقيقة نوع من التحقيق لا التقليد ، وذلك لعدم انحصار الدليل بالعقل ، بل هناك الدليل النقلي الثابت عن طريق الوحي والمقبول كالدليل العقلي (تأمل جيداً) .

الآية العاشرة من آيات البحث اشارة إلى شخص النبي الاكرم ﷺ يقول تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ .

يُستفاد من هذا التعبير بكل وضوح إنّ النبي ﷺ لا يكذب ولا يخطأ في كلامه ابداً ، ولا سبيل عليه للضلال والانحراف ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا

غوى .

ولذا وعلى حد قول بعض المفسرين يستفاد من هذه الآيات بما لا يدع مجالاً للشك ، أَنَّ سَنَةَ النَّبِيِّ ﷺ هي كـ «الوحي المنزل» ^(١) .
 اما إلى ماذا يعود الضمير « هو » في جملة «إِنْ هُوَ إِلَّا وَخْيٌ يُوحَى» ؟
 الظاهر أنه يعود على « النطق » المستفاد من جملة «مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى» ، اي
 أَنَّ « كلامه وحي الهى » ، سواء أكان هذا الكلام آيات قرآنية أم أحكام ومواظ
 وحكم ، وامثال ذلك ، فكلها تتمتع بجذور الهيّة .

كما يستفاد من الآيات اعلاه ان المصدر الرئيسي للضلال والانحراف هو
 اتباع هوى النفس ، وَأَنَّ مَنْ يسيطر على هوى نفسه بشكل تام لا يعصى الله
 تعالى ، لَأنَّ تقواه تحفظه من الانحراف لإقترانها بوضوح الرؤية في كافة
 المراحل . وحين بلوغ المرحلة السامية ، يصل وضوح الرؤية بدوره إلى مرحلة
 الكمال ايضاً ، وبناءً على هذا لا يرتكب ذنباً ولا خطيئة (تأمل جيداً) .



ثمرة البحث :

لا يخفى عدم تساوي الآيات أعلاه في بيان كيفية وأبعاد عصمة الانبياء ،
 فبعضها يعتبرها عصمة من الذنب او الصون من الخطأ فقط ، والآخر يعتبرها
 عموميّة وشموليّة لكل الامور ، والبعض يتحدث عن نبي الاسلام ﷺ ،
 والبعض الآخر عن الانبياء السابقين ، بعضها يحض العصمة بعصمة القول ، بينما
 البعض الآخر يعتبرها شاملة للفعل ايضاً .

(١) يقول القرطبي في تفسيره : وفيها ايضاً دلالة على ان السّنة كالوحي المنزل في العمل . (الجزء ٩
 الصفحة ٦٢٥٥) .

لكنّ مجموع هذه الآيات يثبت هذه الحقيقة ، وهي ان الانبياء منزّهون معصومون من أي ذنب أو خطأ ، كما أنّ عصمة أهل بيت النبي ﷺ الثابتة بالآيات أعلاه ، هي ممّا لا يخفى وهو ما كنا بصددّه .

تنزيه الانبياء عليهم السلام

تنزيه الانبياء

توضيحات .

أول ما نتناوله في هذا البحث التعابير في آيات القرآن المجيد ، التي توهم لأول وهلة وكأنها دليل على صدور ذنب وخطأ من أولئك العظماء في بعض الاحيان .

سنذكر فيما يلي أهم الايات التي تحدثت حول هذا الموضوع ، طبقاً للترتيب التاريخي للانبياء .

١ - آدم :

نقرأ في سورة (طه / ١٢١) : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ .
وكذلك في (طه / ١١٥) : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِيبٍ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ .

نسبت الآية الاولى العصيان والغى إلى آدم ، والثانية نسبت اليه النسيان مع أن هذا لا يتناسب مع عصمة الانبياء وبعيد عنهم كل البعد .

الجواب :

هنالك أبحاث متنوعة للمفسرين منذ قديم الأيام وإلى الآن حول الاجابة على هذا السؤال ، قال بعض المفسرين ودون الالتفات إلى الادلة العقلية والنقلية ، ان المراد هنا هو صدور الذنب الكبير من آدم ، وصرح البعض بأن هذا إنما يرتبط بالفترة قبل نبوته ، كما حمل البعض ايضاً هذا العصيان على الذنوب الصغيرة ، ومر على هذه المسألة مر الكرام .

ورغم الآيات السابقة المرتبطة بعصمة الانبياء ، والمقام العظيم الذي وهبه الله تعالى لهم ، خصوصاً مقام خليفة الله وحجته فيما يتعلق بأدم ، إلا أنهم لم يستسلموا أبداً لمثل هذه التفاسير السقيمة ، بل ابتكر كل منهم حلاً للخروج من هذه المعضلة ، ويمكن قبول ثلاثة من مجموع هذه الحلول :

الف - كان نهي آدم نهياً اختبارياً مع الأخذ بنظر الاعتبار ان آدم كان قد خلق للعيش في الارض لا الجنة ، وأن فترة وجوده في الجنة كانت فترة اختبار لا تكليف ، إذن فاوامر الله ونواهيه هناك كانت لغرض اعداد آدم ، بحيث يتلاءم وحوادث المستقبل فيما يتعلق بالواجب والحرام .

وبناءً على هذا فقد خالف آدم امراً اختبارياً فقط لا امراً واجباً قطعياً .

في حديث للامام علي بن موسى الرضا عليه السلام وفي معرض رده على « علي بن محمد بن الجهم » ، الذي يعد من متكلمي ذلك العصر المعروفين ، وكان يعتقد بعدم عصمة الانبياء استناداً إلى بعض ظواهر الآيات القرآنية ، قال عليه السلام له : « ويحك يا علي اتق الله ولا تنسب إلى انبياء الله الفواحش ولا تتأول كتاب الله برأيك فإن الله عز وجل يقول : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ثم أضاف قائلاً : أما قول الله عز وجل في آدم عليه السلام : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ ، فإن الله عز وجل خلق آدم حجة في أرضيه وخليفته في بلاده ، لم يخلقه للجنة وكانت المعصية من

آدَمَ فِي الْجَنَّةِ لَا فِي الْأَرْضِ ، (وَالْجَنَّةُ لَمْ تَكُنْ دَارَ تَكْلِيفٍ بَلْ دَارَ إِبْتِحَارٍ) لَتَتِمَّ مَقَادِيرُ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَلَمَّا أَهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ وَجُعِلَ حِجَّةَ اللَّهِ وَخَلِيفَتُهُ عَصِمَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) .

ب - كان نهى آدم نهياً ارشادياً - يعتقد جمع أن أوامر الانبياء نواهيهم ومن جملتهم آدم ﷺ والتي لم تطبق ، كانت ذات جانب ارشادي ، مثل امر الطبيب للمريض بتناول الدواء الفلاني ، والاجتناب عن الطعام الفلاني غير المناسب . فمتى ما خالف المريض أمر الطبيب فسيضر نفسه ، لعدم اكترائه بارشاد الطبيب وتعليماته .

فمن الممكن هنا عصيان أمر الطبيب ومخالفتُهُ ، ولكن من المسلّم أن هذا سيكون على حساب صحة المريض ، ولا يعني الاستهانة بمقام الطبيب ابداً . وهكذا فقد قال الله تعالى لأدم : لا تأكل من هذه « الشجرة » والا فستطرد من الجنة ونعيمها ، وتلاقي المشقة والعذاب : ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ (طه / ١١٧ إلى ١١٩) .

وبناءً على هذا فقد عصى آدم نهياً ارشادياً ، لا امراً الهياً واجباً فواجه المصاعب ، كما ان التعبير بـ « العصيان » لا يחדش في عصمة آدم ابداً ، لو اخذنا بنظر الاعتبار القرائن الموجودة في سائر الآيات .

ومن هنا يتضح ايضاً تفسير جملة « فغوى » في ذيل نفس هذه الآية ، وأن المراد منها هو حرمانه من نعيم الجنة ، لا « الغواية » التي تعني التصرفات المنبثقة عن الاعتقادات الخاطئة ، او الامور التي تحول دون بلوغ الانسان لمراده . وعلى

آية حال فلو ان آدم لم يخالف هذا النهي الارشادي لمكث في الجنة فترة أطول .

ج - كان تركاً للاولى هذا الجواب له مؤيدون اكثر ليس هنا فقط ، بل في

كل الموارد التي ينسب فيها الذنب إلى الانبياء فإنها تفسر بهذه الطريقة .

توضيح ذلك : الذنب والمعصية على نوعين : مطلق ، ونسبي . والمراد

بالقسم الاول هو كل تلك الذنوب التي تعد ذنباً حين صدورها من اي شخص ولا

استثناء فيها ابداً ، كأكل المال الحرام والظلم والزنا والكذب .

اما الذنب النسبي فهو ذلك الذنب الذي يعد تصرفاً غير مرغوب فيه قياساً

بمقام وشخصية ومعرفة الاشخاص ، وما اكثر ما يعد صدور هذا الشيء من

الاخرين فضيلة فضلاً عن عدم اعتباره عيباً .

فمثلاً الصلاة المناسبة لشخص أمي ربما لا تليق ابداً بعالم عارف له تاريخ

علمي طويل ، او أن تبرعاً متواضعاً من عامل بسيط يكلفه أجره يومه لمشروع

خيرى عام كبناء مدرسة او مستشفى او مسجد يعد في نفسه عملاً خيراً بل اثاراً

كبيرة ، في حين انه لو تبرع احد الاثرياء المعروفين بنفس هذا المبلغ ، لتعرض

للذم والالتهام بضعف الهمة والبخل وهذا هو مصداق القول المعروف بين

العلماء والفضلاء من أن : حسنات الابرار سيئات المقربين .

وبناءً على هذا فما يصدر من الانبياء يسمى عصياناً لعدم لياقته منزلتهم

الرفيعة وإيمانهم ومعرفتهم قد يكون عين « الطاعة » حين صدوره عن غيرهم ،

فاداء الصلاة بقليل من حضور القلب يعد للشخص العادي فضيلة بينما يعد ذنباً

بالنسبة لنبي أو الإمام (ذنب نسبي لا مطلق) .

كل التعابير حول معصية الانبياء وذنوبهم سواء فيما يتعلق بآدم او بخاتم

الانبياء ﷺ ، والتي تلاحظ في الآيات والروايات ، يمكن ان تكون اشارة

إلى نفس هذا المعنى .

كما ويعبر احياناً عن هذا المعنى بـ « ترك الاولى » ، والمراد به ذلك العمل الذي يكون تركه اولى من فعله ، هذا العمل الذي يمكن ان يكون من « المكروهات » او « المباحات » بل وحتى « المستحبات » ايضاً ، فالطواف المستحب مثلاً ، ومع كونه عملاً حسناً مقبولاً ، لكن تركه والسعي وراء قضاء حاجة المؤمن أولى وأفضل « كما جاء في الروايات » .

الآن لو أنّ احداً لم يُقدم على قضاء حاجة المؤمن ، وذهب بدل ذلك للطواف حول بيت الله تعالى ، فقد ترك الاولى مع اتيانه بعمل مستحب بذاته ، ولا يليق هذا الشيء باولياء الله وانبيائه وائمة الهدى عليهم السلام . وتوهم البعض بأن ترك الاولى يطلق على الموارد المكروهة فقط ، الا أنّ هذا الوهم في غير محله بل هو خطأ محض . (فتأمل) .

على أية حال فمقولة الذنب النسبي وتحت عنوان ترك الاولى يمكن أن يكون جواباً حسناً لكل الأسئلة التي تثار حول الآيات والروايات التي تُنسب فيها الذنب إلى المعصومين .

الملفت للنظر أن التعبير بـ « المعصية » فيما يتعلق بـ « ترك المستحبات » قد ورد في الروايات الاسلامية ايضاً ، من جملتها الحديث المعتبر عن الامام الباقر عليه السلام في حديثه عن النوافل اليومية قال : ﴿ اِنَّمَا هَذَا كُلُّهُ تَطَوُّعٌ وَلَيْسَ بِمَفْرُوضٍ اِنَّ تَارِكَ الْفَرِيضَةِ كَافِرٌ وَاِنَّ تَارِكَ هَذَا لَيْسَ بِكَافِرٍ وَلَكِنَّهَا مَعْصِيَةٌ ^(١) .

كما أنّ معنى « العصيان » لغوياً وكما ذكره الراغب في مفرداته ، هو كل خروج عن دائرة الطاعة (سواء أكانت هذه الطاعة في الاوامر الوجوبية او

(١) تهذيب الاحكام (طبقاً كما نقله نور الثقلين الجزء ٣ الصفحة ٤٠٤ الحديث ١٦٥) .

الاستحبابية (١).

سؤال : يمكن ان يقال هنا صحيح ان للعصيان والذنب مفهوماً واسعاً بحيث يشمل احياناً ترك المستحب والاولى ايضاً ، وأنه يتفاوت بتفاوت الاشخاص ، لكن ما هي الحكمة من تكرار الله تعالى التعبير بالمعصية بحق انبيائه المكرمين في آيات القرآن المجيد ؟ .

جواب هذا السؤال ذكر في حديث لطيف نقله المرحوم الطبرسي في كتاب الاحتجاج عن امير المؤمنين عليه السلام ، وهو حديث طويل جاء في فقرة منه أن زنديقاً قال : إني أجد الله قد شهر هفوات انبيائه مثل ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (فما الحكمة من هذا ؟) .

فقال الامام عليه السلام : « وأما هفوات الانبياء عليه السلام وما بينه الله في كتابه و.... فإن ذلك من أدل الدلائل على حكمة الله عز وجل الباهرة وقدرته القاهرة ، لأنه علم أن براهين الانبياء تكبر في صدور اممهم ، وأن منهم من يتخذ بعضهم الها ، كالذي كان من النصاري في ابن مريم ، فذكرها دلالة على تخلفهم عن الكمال الذي تفرد به عز وجل (ولئلا يراود فكر الوهيتهم ذهن أحد ابداً) (٢) .



ثمرة البحث :

ما جاء عن آدم وكذلك سائر الانبياء من أنهم ارتكبوا الذنب والمعصية ، له ثلاثة اجوبة رئيسية تفي بالمطلوب مجتمعة أو منفردة ، ولا منافاة بينها في نفس الوقت ، اي ان هذه التعابير يمكن ان تنظر إلى ترك الاوامر الاختبارية والارشادية

(١) مفردات الراغب ، مادة « عصى » .

(٢) تفسير نور الثقلين الجزء ٣ الصفحة ٣٠٣ الحديث ١٧٣ .

وكذلك ترك الاولى . هذا بالنسبة لآدم ، امّا سائر الانبياء فيمكن ان تنظر إلى القسمين الاخيرين ، اي ترك الاوامر الارشادية وترك الاولى (تأمل جيداً) .

٢ - نوح عليه السلام :

تقرأ في قصة نوح : أنه حينما بدأ الطوفان بسبب الامطار الغزيرة المنهمرة من السماء ، والمياه المتدفقة من باطن الارض ، لم تمض مدة طويلة حتى أحاط الماء بكل مكان ، وأنّ نوحاً واصحابه ركبوا السفينة ، وتعرض ابنه للغرق لتمرده على أمر أبيه ، وعدم ايمانه الذي يعدّ شرطاً لركوب السفينة ، فنظر نوح إلى السماء وقال : « رَبِّي ! ان ابني من اهلي وانّ وعدك الحق » أي قد وعدتني بانقاذ أهلي ، فعوتب نوح على الفور بخطاب يقول له (انه ليس من اهلك) ! فَلِمَ تطلب ماليس لك به علم ؟ !

فاعتذر نوح وقال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تُغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

في هذه الآية يعتذر نوح لطلبه ماليس له به علم ، ويطلب من الله تعالى العفو والرحمة والمغفرة ، كما ويقول ايضاً : إن لم تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين .

السؤال هو كيف تتلاءم هذه المواضيع الثلاثة ومقام عصمة الانبياء ؟ .

الجواب : للإجابة على هذا السؤال يجب أولاً التدقيق في نوع الخطأ الذي

ارتكبه نوح ؟ هل كان ذنباً ، ام تصرفاً في حد ترك الاولى ؟ طبعاً كان الله تعالى قد

حذّر نوحاً من مغبة الشفاعة للظالمين (المشركين) لأنهم مغرّقون ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ (هود / ٣٧) .

ولكن هل أن نوحاً كان يعلم بأن ابنه من زمرة الكفار؟ ، اذ من الممكن وكما احتمله بعض المفسرين أن الولد كان يخفي حاله عن أبيه ، وما أكثر أولئك الابناء الذين نسمع بهم أونراهم يتظاهرون أمام آبائهم بالصلاح ، في حين ينتهجون نهجاً اخر في غيابهم .

مضافاً إلى ذلك ، وطبقاً للآية (٤٠ / سورة النور) ﴿ قُلْنَا اخْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ ^(١) ، فقد كان نوح يتصور ان ابنه سيكون من اهل النجاة ، اعتماداً على الوعد الالهي ، ولذا طلب من الله تعالى ذلك في الآيات مورد البحث : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (هود / ٤٥) .

في هذه الحادثة لا نشاهد أي مصداق للذنب والمعصية من نوح سوى ترك الاولى ، اذ كان ينبغي عليه ان يتحقق أكثر في حال ولده قبل ان يطلب من الله تعالى نجاته ، كما انّ تعبير نوح بالنسبة لولده حين ناداه وقال له : ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ ولم يقل (من الكافرين) قرينة على أن نوحاً لم يكن يعتبر ولده من الكافرين بل معهم .

كما قال البعض ايضاً أن نوحاً كان يعلم بكفر ابنه ، لكن حبه الشديد له (بالاضافة إلى حالة الاضطراب التي احاطت به عند حدوث الطوفان ، والتي كانت تفوق العادة) كان السبب وراء تجاهل نوح لوضع ابنه ولو مؤقتاً للجوء الى الله تعالى لانقاذه ، لكنه انتبه بعد الانذار الالهي واعتذر لتركه الأولى .



(١) يمكن ان يكون هذا التعبير اشارة إلى الآية ٣٧ من نفس سورة هود « عدة آيات قبل الآية مورد البحث حيث يقول تعالى : ﴿ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ ﴾ وان احداً من اجلى مصاديقها يمكن في زوجة نوح التي التفت بالكفار وان نوحاً بدوره لم يتعرض للحديث عن نجاتها ابداً .

٣ - ابراهيم عليه السلام :

هناك تعابير تبدو عند تفسيرها لاول وهلة وكأنها نوع من الذنب ، وردت حول هذا النبي العظيم الذي يتميز بمكانة خاصة حتى من بين الانبياء عليه السلام ، من حيث الايمان والاخلاص والايثار والشجاعة والصبر والاستقامة ، نقرأ في سورة (الانبياء / ٦٢ و ٦٣) أنه القى القبض عليه بعد تحطيمه للاصنام ومُثل في المحكمة فسأله ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ؟ .

فاجاب : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ .

وهنا يرد اشكال وهو أن ابراهيم عليه السلام كيف نسب عمله هذا إلى كبير الاصنام ، أليس هذا كذباً ؟ !

وفي نفس هذه الحادثة وعندما طلب منه المشركون الخروج معهم خارج المدينة للاحتفال بعيد الاصنام ، اعتذر من مرافقتهم بقوله : ﴿ اني سقيم ﴾ (الصافات / ٨٩) مع انه لم يكن مريضاً ، فكيف يتناسب هذا الكلام مع مقام عصمته ؟ كما نقرأ في سورة (الشعراء / ٨٢) ان ابراهيم يصرح بأنه يتمنى غفران ذنوبه ويقول : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ .

ألم يكن هذا الاعتراف دليلاً على صدور الذنب من ذلك النبي العظيم ؟ كما وأشكلوا عليه ايضاً أنه عليه السلام لماذا وقف موقفه مع عبدة النجوم والقمر والشمس بالرغم من ايمانه الخالص من أية شائبة من شوائب الشرك وقال بمقولتهم ﴿ هذا ربي ﴾ (الانعام / ٧٦ و ٧٧ و ٧٨) .

هذه هي المواضع الاربعة الواردة في القرآن المجيد والتي أثار كل واحد منها بدوره سؤالاً حول مقام عصمة ابراهيم وتنزيهه من الذنب والمعصية .

الجواب :

ذكر كبار المفسرين ورواة الحديث مطالب جملة للإجابة على هذه الاستفسارات الأربعة ، ولكن بعض تلك المطالب ليس لها أسانيد معتبرة ، والجواب الذي سنذكره هنا هو أنسب تلك الاجوبة ومُعتمدٌ عليه :

أما فيما يتعلق بالسؤال الأول فإن إبراهيم لم يقل أن كبير الاصنام قد فعل هذا ، انما قال : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ .

هذه العبارة يمكن ان تكون من باب « القضية الشرطية » ، أي أن إبراهيم قد نسب هذا العمل إلى كبيرهم بشرط نطقهم ، ولا يخفى عدم وجود الكذب في هذه القضية الشرطية .

هذا هو نفس ما نقل عن الامام الصادق عليه السلام في حديث أنه قال : ما فعله كبيرهم وما كذب إبراهيم ، وحينما استفسر السائل عن كيفية ذلك ؟ قال عليه السلام قال إبراهيم : (فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَكَبِيرُهُمْ فَعَلَ ، وَإِنْ لَمْ يَنْطِقُوا فَلَمْ يَفْعَلْ كَبِيرُهُمْ شَيْئاً ، فَمَا نَطَقُوا وَمَا كَذَبَ إِبْرَاهِيمُ) ^(١) .

كما ان نسبة إبراهيم هذا العمل إلى كبير الاصنام إنما جاء من باب الكناية ، التي هي أفضل من التصريح ، فلقد أراد أن يوقف عبدة الاصنام على خرافة عقائدهم عن هذا الطريق ، ويفهمهم أن هذه الاحجار والاشخاب الجامدة عاجزة حتى عن التفوه ولو بجملة واحدة وانها محتاجة إلى عبدتها ، فكيف يمكنها والحالة هذه من حل مشاكلهم ؟

وبعبارة اخرى فالكذب انما يكون فيما لو لم تكن هناك قرائن تدل على أن المقصود كناية ، وهنا تشير كل القرائن إلى أن إبراهيم لم يمكن جدياً في كلامه

(١) نور الثقلين الجزء ٣ الصفحة ٤٣٤ الحديث ٨٤ ، البحار الجزء ١١ الصفحة ٧٦ الحديث ٤ (باب عصمة الانبياء).

هذا ، بل كان يهدف للسخرية من أفكارهم ، وما أكثر أمثال هذه التعابير في المحاورات اليومية ، كما لو فرض وقوع سرقة ما في محيط محدود وسط اشخاص معينين ، وعند التحقيق ينفي كل منهم هذا الاتهام عن نفسه ، فيقول المحقق ، انت لم تفعل هذا وذاك لم يفعله و... حتماً قامت به ملائكة السماء ! وبديهي ان هذا الكلام لا يعتبر كذباً ، بل الهدف منه هو تكذيب اقوالهم الواهية التي لا أساس لها .

هناك احتمال ثالث ايضاً ، وهو انّ جملة « بل فعله » مطلقة ، وهي في الواقع اشارة إلى تحليل منطقي طبقاً لعقائد الوثنيين ، وهي أنّه الا تعتقدون انّ حادثة تحدث داخل المعبد لا يمكن ان تنتج عن جناية من خارجه ، وذلك لحكومة الاصنام على كل شيء وكل فرد ، ومهما كان فهو من داخل المعبد ، وحيث ان كبير الاصنام اكثرهم قوة ومنعة ، بالاضافة إلى وجود الفأس في عنقه (يقال ان ابراهيم وضع الفأس على رقبته) ، فضلاً عن كونه الصنم الوحيد الذي لم يلحق به أي أذى .

اذن بناءً على هذا فالقرائن تشير إلى أنّه قد فعله ، وهذا نظير التحاليل التي يستخدمها المحققون لمعرفة الجاني عن طريق تتبع آثاره وبصمات اصابعه ، حينما يدخلون في محيط قد وقعت فيه جريمة ، غاية الامر انّ هذا التحليل كان مطابقاً لعقائد الوثنيين لغرض ادانتهم عليها .

وفيما يتعلق بالآية الثانية فلا دليل اصلاً على أنّ ابراهيم لم يكن مريضاً حقاً ، فهناك علة في بدنه غاية الامر انها لم تكن بتلك الخطورة التي تقعه عن نشاطه البدني بالمرّة ، وتستفحل عليه بحيث تمنعه حتى عن تحطيم الاصنام ، وما اكثر المرضى المشغولين باعمالهم طول النهار ، خصوصاً تلك التي تبعث على ترسيخ العقيدة كتحطيم الاصنام لبطل التوحيد كابراهيم ! هذا اولاً .

وثانياً مع أنّ « السُّقْم » و « السَّقْم » هو المرض المختص بالبدن ، لكنه قد يكون في النفس ايضاً كما صرح به البعض من اصحاب اللغة ، وبديهي ان روح ابراهيم كانت متعبة وكالمريضة في ذلك الجو المليء بالشرك . اذن فقوله اني سقيم اشارة إلى الجانب النفسي .

ثم ان الامراض النفسية حين تشتد حدتها تظهر مضاعفاتها السلبية حتى على البدن ايضاً . وقد اصبحت هذه المسألة اليوم من المسلمات ، والقرآن الكريم ايضاً يخاطب النبي الاكرم ﷺ في سورة (الكهف / ٦) : ﴿ فَلَمَّا كَانَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ .

كما ان بعض من المفسرين قال بأن لإبراهيم عليه السلام مرضاً (كالحمى المزمنة) ينتابه بين الفينة والاخرى ، وان مراده من جملة ، اني سقيم هو اقتراب زمن هذا المرض فانا معذور من مرافقتكم ، كما ان الجملة التي قبلها : ﴿ فَتَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴾ دليل على هذا المدعى ، لان النظر إلى النجوم انما يكون لحساب الوقت اي للوقوف على زمن ظهور ذلك المرض .

وفيما يتعلق بالآية الثالثة ، فالجواب هو نفس ماتقدم تفصيله في الآيات المتعلقة بآدم عليه السلام ، وهو ان مراد ابراهيم من « الخطيئة » هو « الذنب النسبي » و « ترك الاولى » و ﴿ حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ^(١) .

لكن ما هو « ترك الاولى » بالنسبة لإبراهيم ياترى ؟ قال البعض : ان المراد به هو كل تلك الحالات التي تتسبب في غفلة الانسان عن الله تعالى بأي نحو كان ،

(١) مع ان « الخطيئة » مأخوذة من مادة الخطأ والتي تعني في الاصل الزلات الصادرة من الانسان لكنها اتسعت تدريجياً لتطلق على كل ذنب يشمل العمدي وغيره ، واستعمالها في الذنب غير العمدي واسع جداً ، لكن « الاثم » يطلق على الذنوب العمدية ، وهو يعني في الاصل : الشيء الذي يشني الانسان عن عزمه ، وحيث ان الذنب يحول دون بلوغ الانسان للمنزلة الرفيعة ويمنع عنه الكثير من الخيرات والبركات فقد سمي « اثمًا » .

كالاشتغال بشؤون الحياة مثل الاكل والشرب وامثالها التي يعتبرها اولياء الله ذنباً لغفلتهم عن الله تعالى ولو بهذه الدرجة ^(١) .

وفيما يتعلق بالآية الرابعة ، أي اشارة ابراهيم إلى النجم والقمر والشمس والسماء ، ووصفه اياها « هذا ربي » فللمفسرين فيه اقوال وآراء كثيرة ايضاً ، اقواها انّ نقول بأنّ ابراهيم كان في مقام الحوار والاستدلال مع مختلف الاقوام من عبدة النجم والقمر والشمس (بقرينة الآيتين اللتين تحفان بهذه الآية ، واللّتين تتعرضان لحوار ابراهيم واحتجاجه على الوثنيين) .

وبناءً على هذا فقد وقف ابراهيم بوجه هذه المجاميع الثلاث كل على حده ، اذ وافقهم على آرائهم في اول الامر ، (وعلى سبيل الفرض لحين أقول هذه الكواكب السماوية لكي يتبينّ لهم خطأهم ، بالضبط مثلما نواجه القائلين بسكون الارض وحركة الشمس حول الارض فنقول لهم حسناً ، كما تقولون ، لكن هل تعلمون اية دائرة عظيمة يستلزمها كلامكم هذا لقدور الشمس التي تفصلها عن الارض تلك المسافة البعيدة ، وبأية سرعة عظيمة للدوران حول الارض دائرة كاملة كل ٢٤ ساعة ، وثبوت هذه السرعة لمثل هذا الجرم السماوي من المستحيلات ، اذن ، يتضح من ذلك بطلان فرضيتكم ، (فتأمل جيداً) .

هذا هو أحد أفضل الطرق التي يمكن استخدامها لابطال نظريات الخصم ، أي الوقوف معه اولاً ، وموافقته (على سبيل الفرض) ، دون اثاره روح المعصية والعناد عنده ، ثم ايقافه على نتائجها الفاسدة ، كما قال البعض ايضاً ان استخدام جملة « هذا ربي » أمام هؤلاء القوم كان بمثابة « استفهام » ، ذلك الاستفهام الذي يعدّ مقدمة لابطال نظرياتهم عند غروب وافول تلك الكواكب .

اما القول بان ابراهيم قد نطق بهذه الجمل لتحقيق بنفسه ولا مانع من

قبول الانسان لمختلف الاراء مبدئياً واختبارها ، فلا يبدو صحيحاً لان جملة :
 ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ تبين أنه كان بمثابة الاحتجاج على تلك
 الاقوام المخالفة لا التحقيق بنفسه .

وقول البعض تأييداً لهذا الادعاء بأن ابراهيم لم ير صفحة السماء إلى تلك
 اللحظة بصورة جيدة ، لأن والدته كانت قد ربتة في غار خارج المدينة خوفاً من
 عيون نمرود ، فيبدو كلاماً بعيداً جداً ، اذ كيف يعقل ان يبقى ابراهيم في الغار
 طوال سنين عديدة منذ طفولته وحتى ريعان شبابه ولا يخرج منه ولو لمرة
 واحدة . لا ليلاً ولا نهاراً؟! هذا الكلام اقرب إلى الاسطورة من الواقع ^(١) .

فضلاً عن ان هذه الآيات قد وردت على الفور ، بعد الآية التي تتعرض
 للحوار الجدّي لابراهيم مع آزر حول مسألة نفي الاصنام ، أي ان ابراهيم كان قد
 بلغ مقام التوحيد الرفيع واليقين الراسخ قبل ذلك ، وإن الله تعالى كان قد اطلعه
 على ملكوت السماوات وشرع ابراهيم عليه السلام بعده بتبليغ الآخرين لا التحقيق
 لنفسه .



الملاحظة الجديرة بالاعتبار هي أنّ ابراهيم ولبيان بطلان ربوبية هذه
 الكواكب الثلاثة ، أورد دليلاً يعدّ من أدق البراهين الفلسفية ، في الوقت الذي
 يسهل على الجميع استيعابه ، فيقول في هذا الدليل بأنّ « الرب » يجب ان يبقى
 على اتصال دائم بمخلوقاته ، وبناءً على هذا فالموجود الذي يغرب فينقطع نوره

(١) ذلك الذي جاء في عيون اخبار الرضا عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام من ان ابراهيم خرج من
 مخبئه والتقى بثلاث طوائف من المشركين (نور الثقلين الجزء ١ الصفحة ٧٣٥) .
 بعد في ذاته دليلاً على خلاف هذا الادعاء فضلاً عن دعمه له « تأمل جيداً » .

وبركاته لساعات طوال ، لا يمكن ان يكون رباً لهذه الموجودات .

فضلاً عن ان الشروق والغروب المستمرين لهذه الاجرام السماوية ، دليل على خضوعها لقانون ما ، وكيف يتسنى للموجود الواقع في قبضة القوانين الكونية ، والطبيعية ان يكون حاكماً على هذا العالم وخالقاً له ؟ !

بالاضافة إلى ان « الحركة » بذاتها موجود « حادث » ، وبناءً على هذا فالشيء المتحرك مخلوق وحادث حتماً ، ومثل هذا لا يمكن ان يكون موجوداً ازلياً ابدياً (هذا هو نفس الشيء الوارد في البراهين الفلسفية تحت عنوان « العالم متغير » و « كل متغير حادث ») .

وبناءً على هذا فقد كان لحوار ابراهيم ثلاثة مفاهيم مختلفة ومثيرة ، ولا يمكن الاستغناء عنها لابطال الوهية النجم والقمر والشمس .

٤ - يوسف عليه السلام :

اما في شأن النبي يوسف عليه السلام فنحن نواجه بعض الآيات التي تبدو لاول وهلة غير متلائمة ومقام عصمته ، من جملتها في سورة (يوسف / ٢٤) : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا اَنْ رَّآى بُرْهَانَ رَبِّهٖ كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ اِنَّهٗ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِيْنَ ﴾ .

اذ في البداية يتصور القاريء ان هذه الآية تجعل من يوسف شريكاً لزليخا في قصد المعصية .

الجواب :

يكفي التمعن في نص هذا الآية لرفع هذه الاشتباه ، لأن القرآن يقول : ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ومنهوم هذا الكلام هو بالضبط أنه لم يقصد المعصية لأنه رأى برهان ربه .

ما هو المراد بهذا البرهان ؟ (علماً أنَّ البرهان يعني كل دليل قوي ومحكم يتبنى بيان الحقيقة وإيضاحها ، وهو مأخوذ من مادة « بره » التي تعني إبيضُّ) . للمفسرين هنا احتمالات متعددة ، أفضلها هو القول بأن المراد من برهان الرب ، هو اطلاعه على أسماء الله تعالى وصفاته وكونه تعالى عالماً قادراً سميعاً بصيراً .

أو بعبارة أخرى المراد بالبرهان هو الامدادات الالهية ، والتأييدات الربانية التي تسرع لنجدة المؤمنين والمتقين في اللحظات الحرجة والمصيرية ، اذ تمدهم بالقوة امام جنود الشيطان ووساوس النفس .

الدليل على هذا الكلام هو ما جاء في آخر الآية حيث يقول تعالى : ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ .

يتضح من هذا الكلام أنَّ عباد الله المخلصين مشمولون بالالطاف والعنايات الالهية الخاصة ، في مثل هذه اللحظات الحساسة ، والتي هي في الواقع ثمن ايمانهم الخالص واعمالهم الطاهرة .

وهنا نقل بعض الغافلين خرافات تحت عنوان « الروايات » لا تكاد تخرج عن حد الاسرائيليات ، وذهبوا بيوسف طبقاً لها إلى حافة الهاوية والاقدام على ذلك العمل الفاحش إلى أنَّ منعه جبرئيل من هذا العمل بضربه على صدره ! او رؤيته لشبح ابيه يعقوب وهو يعرض على يديه لهذا العمل ! .

وهذا كلام لا علاقة له بالقرآن مطلقاً ، وخرافات لا تستحق الاجابة عليها ، وذيل الآية التي تعتبره من عباد الله المخلصين خير دليل على بطلان مثل هذه

الاحتمالات الفاسدة ، وذلك طبقاً لآيات القرآن التي تصرح بأن لا سبيل للشيطان اليهم .

ثاني مورد اثير حول يوسف عليه السلام ومقام عصمته ، ما ورد في الآية السبعين من سورة يوسف عليه السلام ، أنه حينما شدّ رجال اخوته وضع كيله الخاص في رحل أخيه ، ثم اذن مؤذن : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ ، فهل يجوز ان يقوم الانسان بعمل ما ، ويتهم بريئاً وخاصة اذا كان ذلك البريء اخاه ؟ وهل يعقل ان المؤذن قد نسب هذه النسبة (نسبة السرقة) إلى اخوة يوسف بدون علم يوسف ، واطلاعه ؟ ولماذا رضي النبي المعصوم باتهام الابرياء بمثل هذه التهمة ؟ !

وحاولوا احياناً توسيع دائرة الاشكال فقالوا لماذا لم يكشف يوسف عليه السلام النقاب عما جرى له بسرعة ليطلع اخوته على حقيقة الامر وليوصلوا خبر حياته وعظمة مكانته الى أبيه الشيخ ؟ ، ليرتاح ويتخلص من ألم الفراق الذي أضناه كثيراً ، فهل انّ مثل هذا التصرف يتناسب مع الوضع الذي كان يعيشه ذلك الأب المسن ؟ ثم ما هي عقوبة السارق في ذلك الزمان ليقبّل اخو يوسف عندهم كـ «عبد» بتهمة السرقة ؟ هل كان هذا حكماً الهياً ، ام سنّة اهل مصر الخرافية ؟ لو كانت سنّة اهل مصر ، فلماذا وافق يوسف على تطبيق هذا الحكم الجائر بحق اخيه ؟ .

الجواب :

من الممكن العثور على اجوبة هذه الاسئلة بشكل واضح ، من خلال الآيات في سورة يوسف وقرائن اخرى . أولاً :

يبدو حسب الظاهر أنَّ هذا الشيء قد تمَّ بموافقة نفس « بنيامين » (اخ يوسف الاصغر) ، اذ انَّ آيات هذه السورة تشهد كاملاً على ان يوسف قد عرّف نفسه لبنيامين قبل ذلك ، فعلم بنيامين ان هذه الخطّة قد وضعها يوسف للاحتفاظ به عنده ورضي بذلك .

ثانياً : إنَّ القائل « انكم لسارقون » مجهول ؟ غاية ما نعرفه عنه انه كان من مستخدمي يوسف ، وحينما وجدوا الوعاء المخصوص داخل متاع أحد اخوة يوسف تيقنوا من كونه هو السارق ، وبديهي ان ارتكاب عملٍ ما من قبل احد الافراد في مجموعة واحدة ، يعرض كل اعضاء تلك المجموعة لخطاب : انكم قمتم بهذا العمل .

على أية حال فهذا الكلام والتشخيص أنما يتعلق بمستخدمي يوسف دونه ، بل الشيء الوحيد الذي قام به يوسف هو وضع الوعاء في رحل اخيه لاثارة ذلك الاتهام ، الذي كان السبب وراء خلاص وراحة اخيه الذي وافق على ذلك ، كما تقدم .

ثالثاً : هذا المخطط بمجموعه سواء فيما يتعلق بالاخوة او الاب ، كان اتماماً لاختبار الهي لهم . وبعبارة اخرى كان يوسف طبقاً للامر الالهي الذي تلقاه عن طريق الوحي سبباً لاختبار مقاومة يعقوب مقابل فقد ولده الثاني الذي كان شغوفاً بحبه ، ولتتم من خلال ذلك دائرة تكامله ومكافأته وثوابه ، كما تم هنا وضع الاخوة ثانياً في بودقة الاختبار ، لمعرفة مدى استعدادهم للايفاء بالعهد الذي عقده مع ابيهم في عدم ترك « بنيامين » وحيداً ؟ وليُعرف من جهة اخرى الاشخاص الذين قالوا : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ (يوسف / ٧٧) (يقصدون يوسف) .

الخلاصة أنَّ قصة يوسف عليه السلام مليئة بالاختبارات ، سواء فيما يتعلق

بيوسف ، او ابيه ، او اخوته . وفي الاية ادناه اشارة إلى هذا الشيء :

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ (يوسف / ٧٦) .

كما أنّ هذا التعبير يكشف النقاب عن السؤال الاخير ايضاً ويجيب عليه ، من انّ تطبيق خطة « عبودية السارق » كان أمراً الهياً إلى يوسف (لا كمال الامتحان المزبور) في خصوص هذا المورد « تأمل جيداً » . وبناءً على هذا فلا نجد في البين اشكالاً يمكن توجيهه إلى هذا النبي العظيم فيما يتعلق بمقام العصمة .



٥ - موسى عليه السلام :

هنالك آيات قرآنية في مختلف السور مرتبطة بمقام عصمة موسى عليه السلام ، وقد تعرضت للاستفهام ايضاً :

١ - نقرأ في الآية السادسة عشرة من سورة القصص أنّ موسى عليه السلام وبعد صراعه مع أحد اعدائه (اتباع فرعون) ، الذي كان في شجار مع رجل من بني اسرائيل ، وتوجيه ضربة قاضية اليه اردته قتيلاً ، توجه إلى الله تعالى وقال :

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

«ألم يكن التعبير بأنني ظلمت نفسي وطلب العفو والمغفرة من الله تعالى ، دليلاً على ارتكاب الذنب ياترى ؟» .

ثم إنه ورد في الآية التي قبلها أنّ موسى وبعد قتله لعدوه قال ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ (القصص / ١٥) .

وبعد هذه الحادثة وحينما بلغ موسى مرتبة النبوة ، وجاء إلى فرعون

يدعوه إلى الله ، عاتبه فرعون وقال : ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ، قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (الشعراء / ١٩ و ٢٠) .

صحيح أن موسى لم يكن قد بلغ مرتبة النبوة في ذلك الوقت ، ولكن نظراً لضرورة تمتع الانبياء بمقام العصمة حتى قبل النبوة ، فالتعبير بـ « الضالين » يبدو غير مناسب هنا بعض الشيء .



الجواب :

اولاً ، وقبل كل شيء يجب البحث في ماهية هذا القتل الذي لم يكن بقصد وتصميم مسبقين ، وهو مما يصطلح عليه بقتل الخطأ ، هل كان جائزاً أم لا ؟ !

لا شك أن هذا العمل لم يكن معصية ، مع الاخذ بنظر الاعتبار ذلك الموقف المعادي الذي كان يتخذه قوم فرعون الظالمين من بني اسرائيل ، حتى انهم كانوا يذبحون ابناءهم الرضع ويحتفظون ببناتهم للخدمة ، بل كانوا قد أذاقوهم أقسى أنواع الظلم والعذاب ، حتى اصبحوا مصداقاً للتعبير القرآني : ﴿مُفْسِدٌ فِي الْأَرْضِ﴾ ، خصوصاً ان موسى كان في مقام نصرة المظلوم والدفاع عنه ، اذن فجواز قتل هذا الفرعوني الظالم هو مما لا شك فيه على اقل تقدير ، فكيف يمكن الخدش في مقام عصمة موسى في مثل هذه الحال .

اذن فالذي يحتمل كونه مخالفاً للوجدان يكمن حتماً في ترك الاولى المتجسد في كيفية تصرف موسى (لا اصل تصرفه) .

يبدو ان مراد موسى ﷺ من : « ظلمت نفسي » هو الوقوع في المشقة ، باعتبار ان قتله لأحد الاقباط ليس بتلك السهولة التي يتناساها اتباع فرعون ، ولا

يخفى أن ترك الاولى يعني العمل المباح ذاتاً ، إلا أنه يُحرم صاحبه من العمل الافضل .

وجملة : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ اشارة إلى اصل نزاع القبطي والسبتي (الفرعوني والاسرائيلي) ، اي أن نزاعكم الاعمى التافه هذا هو من عمل الشيطان .

اذن ، فطلب المغفرة من الله إنما هو لتركه الاولى ، وقد ورد نظيره في القرآن الكريم بحق آدم وحواء ايضاً ، حيث انهما قد أوقعا نفسيهما في المشقة وذلك بتركهما للاولى ، وأكلهما من الشجرة الممنوعة ، فطلبوا المغفرة لذلك « الأعراف / ٢٣ »^(١) .

اما التعبير بـ « الضالين » المأخوذ من مادة « الضلال » التي تعنى في الاصل ترك الطريق السوي ، فله معنى واسع ولا ينحصر بمعنى الاعراض عن الدين والحق فقط ، بل يصدق بحق شخص كموسى عليه السلام الذي عرض حياته للخطر بقتله لذلك الفرعوني ايضاً ، وبعبارة اخرى فقد ترك طريق السلامة ، وسلك طريق ذات الشوكة ، ولذا لم يتمكن من البقاء في مصر بعد تلك الحادثة فغدى مشرداً في البوادي والجبال إلى ان وصل ارض « مدين » ، وشملته اللطاف الالهية في خاتمة المطاف ، حيث تربى هناك ولعدة سنين على يد شعيب ، وتهياً لتحمل مسؤولية الرسالة .

لا يخفى ان البعض يعتقد بان معنى « الضلال » هنا هو عدم الاطلاع ، اي لم أعلم بأن تلك الضربة ستقضي على الرجل . وبناءً على هذا فالقتل المزبور يعد مصداقاً لقتل الخطأ لا العمد . لكن المعنى الاول يبدو أنسب ، رغم أن فرعون قد يفهم من كلام موسى عليه السلام شيئاً آخر ، ولذا اقتنع بذلك ولم يعلق عليه بشيء .

(١) ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

٢ - في الآية ١٤٣ من سورة الاعراف نواجه هذه الملاحظة ، وهي أنَّ موسى عليه السلام طلب من الله تعالى ان ينظر اليه ببصره وسمع الجواب بانك لن تراني ابداً !

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ وفي هذه الاثناء جاءه الامر بالنظر إلى الجبل : ﴿أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ ، فلما تجلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعْقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

من هنا يقال :

اولاً : لماذا طلب موسى مثل هذا الطلب من الله تعالى مع منزلته الرفيعة في المعرفة والايمان ؟

ثانياً : لا بدَّ أنه قد خالف في شيء ما ليبتلي بذلك ويغمي عليه ؟

ثالثاً : جملة « تُبْتُ إِلَيْكَ » تظهر أنه تاب من عمل سيء .

للمفسرين هنا أجوبة متنوعة أيضاً أجلاها هو أنَّ آيات القرآن تبين بكل وضوح أنَّ ذلك الطلب لم يصدر من موسى عليه السلام ، بل من بني اسرائيل الذين ألحوا عليه ليُريهم الله تعالى :

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ (البقرة / ٥٥) .

بل الآيات الاخرى ايضاً تبين أنَّ موسى كان مأموراً بأخذ جمع من أشرف بني اسرائيل معه إلى جبل الطور لتكرار طلبهم هناك « حتى يقفوا على الجواب بشكل عملي » ، ولذا اطلق على هذه الحادثة اسم « ميقاتنا » في الآية اعلاه

وكذلك في الآية ١٥٥ من سورة الاعراف اشارة إلى ما تقدم (١).

وبناءً على هذا فما قاله موسى عليه السلام كان بأمر الله تعالى ، كما أنه ليس لنزول الصاعقة آية صفة جزائية ، بل كان الهدف ايقاف عامة بني اسرائيل على هذه الحقيقة ، أنكم عاجزون عن رؤية شرارة صغيرة من قدرته تعالى بحيث تسقطون على الارض فيغمى على البعض منكم ويصرع البعض الآخر ، وكيف والحالة هذه تطلبون رؤية ذاته تعالى بعظمتها ؟

أما جملة « اني ثبت » فقد كانت من جانب بني اسرائيل ، كما أن جملة ﴿ رَبِّ ارِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ كانت من قبلهم ايضاً .

٣ - يستفاد من عدة آيات من سورة الكهف أن موسى عليه السلام ابتلي بالنسيان ، فهو تارة يقول : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ (الكهف / ٦١) ، اذن فلقد وجد النسيان طريقه اليهما .

وفي آيتين بعدها ينقل عن صاحب موسى عليه السلام : ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ (الكهف / ٦٣) .

فلو كان صاحبه هو يوشع بن نون - كما هو معروف بين اقطاب المفسرين - وكان في تلك الحالة نبياً ، فسيثبت جواز النسيان للانبياء .

كما نقرأ في عدة آيات بعدها وعلى لسان موسى عليه السلام ، أنه حينما التقى بذلك الرجل الالهي «الخضر» تعهد بالآيسأله عن السروراء تصرفاته إلى ان يبينها هو بنفسه . لكن موسى عليه السلام نسي ذلك في أول مرة . ولذا اعترض على الخضر لخرقه تلك السفينة السالمة ، وحينما ذكره الخضر بالعهد قال : ﴿ قَالَ لَا

(١) ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أَلِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي أَتُهْلِكُهُمَا فَعَلَ السُّفْهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ .

تُواخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴿ (الكهف / ٧٣) ، كما تكرر هذا الشيء ثانية وثالثة ايضاً .
الأيستفاد من مجموع هذه الآيات امكان نسبة النسيان للانبيا ؟ ! أوليس
الصون عن الخطأ والنسيان احد فروع العصمة ؟ .

الجواب :

سلك المفسرون طرقاً شتى للإجابة على هذا السؤال : اذ قال البعض أن
« النسيان » يعني تارة ترك الشيء وان لم يكن منسياً ، كما نقرأ في قصة آدم :
﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْسِيَ... ﴾ (طه / ١١٥) .

من المسلم أن آدم لم ينس العهد الالهي فيما يتعلق بالاجتناب من الشجرة
الممنوعة ، لكن نظراً لعدم اهتمامه بذلك العهد فقد عبّر عنه بالنسيان .

وقال البعض ايضاً ان « الناسي » هو في الحقيقة صاحب موسى عليه السلام
لانفس موسى عليه السلام ، وليس من المسلم كونه نبياً ، اذ لم يثبت ذلك فيما لو اقتصرنا
على الآيات القرآنية على اقل تقدير ، فنحن نقرأ في الآيات مورد البحث ان
صاحب موسى عليه السلام قد شاهد سقوط السمكة في الماء واستعادتها للحياة
والحركة ، وقرر اخبار موسى عليه السلام بذلك لكنه نسي . اذن فالناسي هو لا غيره
باعتباره الشاهد الوحيد لهذه الحادثة ، والنسبة اليهما في جملة « نسيا » هي من
قبيل نسبة عمل الفرد إلى الجماعة وهي شائعة الاستعمال .

ولو قيل : كيف يعقل إبداع مسألة بكل هذه الاهمية في زاوية النسيان ؟
لقلنا بأن صاحب موسى عليه السلام كان قد شاهد معجزات أهم من هذه ، فضلاً عن
كونهما في هذه السفارة يطلبان مسألة أهم ، فنسيان تلك بسبب هذه لا يدعو
للعجب .

ونسبة النسيان إلى الشيطان ، قد تكون لوجود علاقة بين حادثة احياء السمكة ومسألة العثور على ذلك الرجل العالم ، الذي كان من المقرر ان يستفيد موسى ﷺ من علمه . وحيث ان عمل الشيطان هو الاغواء والحؤول دون بلوغ بني الانسان أهدافهم المقدسة ، أو تأخيرهم عنها على أقل تقدير ، فقد زرع النسيان في ذهن « صاحب موسى » .

جاء في بعض الروايات عن النبي الاكرم ﷺ أن موسى كان نائماً حين تحركت السمكة وسقطت في البحر وذهبت في سبيلها ، وان صاحبه « الذي يشاهد هذا الموقف » لم يرغب في ايقاظه واخباره بذلك ، كما أنه نسي ان يخبره بعد استيقاظه ايضاً ولذلك فقد واصلوا مسيرهم يوماً وليلة آخرين ، ثم تذكر هذا الرجل الحادثة وقصّها على موسى ﷺ فاضطرا للرجوع إلى مكانهما الاول ، الذي سقطت فيه السمكة في الماء ^(١) .

كما قال البعض ايضاً أن الانبياء معصومون من النسيان المرتبط بدعوتهم ، دون ماله علاقة بأمر عادي يومي ، فنسيان أمر عادي لا يرتبط من قريب او بعيد ، بمسألة الوحي والنبوة والتربية والتعليم والتبليغ ، بل ان عدم ترابطهما امر واضح للجميع ولا يחדش هذا في مقام عصمة الانبياء ، والنسيان الوارد في الآيات اعلاه هو من هذا القبيل .

يقول العالم الكبير المرحوم السيد المرتضى ﷺ : أن هناك ثلاثة اوجه فيما يتعلق بقول موسى للخضر : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ :

الاول : النسيان بمعناه الحقيقي المتعارف ، ولا عجب ان ينسى موسى مثل هذا العهد خلال هذه الفترة القصيرة ، لانشغاله فكرياً (بمسائل أهم) .
الثاني : ان مراده هو ان لا تؤاخذني على ما تركته (اي ان موسى كان قد

ترك العهد عمداً ، ومعلوم انه كان مشروطاً ، اي لو شئت البقاء معي فلا تسألني حتى أوضح لك بنفسني) .

الثالث : مراد موسى هو أن لا تؤاخذني على عمل شبيه بالنسيان .

ثم يضيف قائلاً : ولا اشكال لو حملنا الجملة على النسيان غير الحقيقي ، والا لو حملناه على النسيان الحقيقي فتعليله أن النسيان بهذا المعنى لا يجوز بحق الانبياء ، في بيان الامور الالهية ، او التشريعية ، او الخارجة عن المعتاد ، ولا مانع لما خرج عن نطاق هذه الدائرة ، كما لو نسي النبي طعامه ، او شرابه لكن لا بتلك الدرجة والتكرار الزائدين عن الحد لاستحالة مثل هذا الشيء في حقه .

٤ - الآية الاخرى المتعلقة باعمال هذا النبي العظيم والتي دار حولها النقاش هي الآية (١٥٠ و ١٥١ من سورة الاعراف) ، حيث يقول تعالى : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

وهنا عدة موارد للاستفهام .

اولاً : لماذالقى موسى بالالواح المكتوب فيها أمر الله وآيات التوراة على

الارض ؟

ثانياً : لماذا ابدى رد الفعل الشديد باتجاه أخيه الذي لم يكن قد ارتكب

إثمًا ؟ .

ثالثاً : لماذا طلب العفو والمغفرة لنفسه ولأخيه ؟!

لكن لو تأملنا في تلك الحادثة التي واجهها هذا النبي العظيم بعد رجوعه

من ميقات ربه ، لحكمنا بضرورة تصرفه هذا فضلاً عن صحته .

فلقد قضى موسى سنوات طوال مليئة بالمشقة ، لزرع بذرة « التوحيد » في قلوب « بني اسرائيل » القاسية ، وذهب إلى مكان الوحي لميقات ربه حينما نبتت تلك البذرة على أمل نموها ، لكنه حينما رجع اصطدم بذهاب جهوده كلها ادراج الرياح واستسلام الاكثرية الساحقة من بني اسرائيل لوساوس « السامري » والسجود للعجل ! فضلاً عن احاطة فتنة الوثنية والشرك بكل شيء وانطفاء نور الايمان والتوحيد .

وهنا استغرب موسى كثيراً وغضب غضباً شديداً ، وكان غضبه لله طبعاً ، هذا من جهة .

ومن جهة اخرى كان لابد له من التصرف بشدة إزاء هذه الحادثة التي تعد اقسى حادثة في عمر موسى عليه السلام ، ليقف بنو اسرائيل على خطورة الموقف وقبح عملهم ، وبالنتيجة تزال كل آثار الشرك والوثنية من قلوبهم ، وإلا لاحتل بقاء آثار الشرك في قلوبهم وقلوب الاجيال القادمة ايضاً ، فليس المهم هنا مسألة احترام انسان أو بعض الالواح المقدسة ، بل المهم هو مسألة التوحيد وخطورة انحراف قوم باكملهم .

كان ينبغي لموسى عليه السلام التعبير عن غضبه الكامن في نفسه ، واظهار قبح هذا العمل للجميع ، وذلك ما كان ميسوراً الا بابداء رد فعل عنيف ، ولذا عاتب اخاه هارون بشدة حتى انه جره من رأسه والقى الالواح جانباً ، بل صرخ في الواقع من اعماق وجوده ، حتى تردد صده بين بني اسرائيل ليقول بعضهم لبعض : ما أقبح عبادة العجل ياترى ! بحيث يتعامل موسى عليه السلام بكل هذه الخشونة مع اخيه ؟ وعلى فرض ان مثل هذا التصرف لا يليق بشأن هارون عليه السلام (مع أن علاقة الاخوة بين الاخوين تنفي مثل هذا الشيء) فإنه وبسبب التأثير

الاجتماعي العميق له لم يجد موسى ﷺ بدءاً من فعله .

كما أنّ نفس هذا الهدف كان وراء القاء الألواح ، بالرغم من اعتقاد البعض بأن لفظة « الالتقاء » هنا تعني الوضع على الأرض والذهاب وراء عمل ما . ولذا لم تنته المسألة عند هذا الحد ، بل كان ذلك القرار الشديد على بني اسرائيل بسبب ارتداد ذلك الفريق بالشكل الذي جاء في ذيل الآية ٥٤ من سورة البقرة .

كما واجه مؤسس الوثنية بين بني اسرائيل اي « السّامري » ذلك العقاب الشديد ايضاً . خلاصة القول هي أنّ ردّ الفعل العنيف كان يرمي إلى اهدافٍ عظيمة ، ولم يكن خالياً من الاشكال فحسب ، بل كان واجباً ايضاً في مثل تلك الظروف (تأمل جيداً) .



٦ - داود ﷺ :

هناك آيات في القرآن الكريم تشير إلى أنّ نبي الله العظيم داود ﷺ قد استغفر ربه لعمل قام به ، وأن الله تعالى قد غفر له وذلك في سورة (ص / ٢٤ و ٢٥) : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتْنَاهُ فَاستَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾

ألم يكن استغفار داود والعفو الالهي له دليلاً على صدور الذنب منه ؟ وهل يتلاءم هذا ومقام عصمته ؟ .

للحصول على جواب هذا السؤال لا بدّ من الرجوع إلى القرآن ، والبحث قبل كل شيء عن العمل الذي يرتبط به هذا الابتلاء وتلك المغفرة .

تحكي الآيات السابقة على آيات بحثنا أنّ خصمين تسوّرا محراب داود ﷺ ، ودخلا عليه على حين غرة ، ففزع لدخولهما المفاجيء عليه : ﴿ إِذْ

دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَقَرِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ
فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ، إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ
تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿
(ص / ٢٢ و ٢٣) .

فقال داود بدون تحقيق أو استفسار : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ
إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ قَلِيلٌ مَّا هُمْ ... ﴾ (ص / ٢٤) .

هذه هي القصة المزبورة في آيات القرآن بأكملها بلا زيادة او نقصان ..
هناك تفاسير مقبولة قدّمت تفسيراً مقنعاً لهذه الآيات ، كما انّ هناك
روايات موضوعة وردت في بعض الكتب ، تعرضت لمعاني هذه الآيات بشكل
مسيء ومشوّه .

أمّا ما يتفق ومحتوى الآيات اعلاه ، فهو القول بأن : الشيء الوحيد الذي
صدر من داود عليه السلام كان فقط تركه للأولى وذلك بتسرع في القضاء ، لكن لا بتلك
السرعة التي تكون على خلاف « واجبات » موازين القضاء . اذ « يستحب »
للقاضي التمعن اكثر ما يمكن ، فلو ترك الاكثر واكتفى بالحد الاوسط أو الاقل فقد
ترك الاولى ، وهذا ما فعله داود فقد قضى بظلم الاخ لا خيه الفقير ، وربما كان
السبب وراء هذا التسرع هو ذعره من دخولهما المفاجيء عليه في خلوته ، فضلاً
عن أنّ اجحافاً كهذا من قبل لأخيه يبعث على الأسف والشفقة .

صحيح أنّ داود عليه السلام اصغى لادعاء طرف واحد فقط ، لكن سكوت الطرف
الاخر وعدم التفوه بأيّ كلام ، أو اعتراض يعدّ في نفسه دليلاً على اعترافه ،
وعلى أية حال فمن آداب مجلس القضاء ان يطلب القاضي توضيحاً اكثر من
الطرف المقابل وهذا ما لم يفعله داود .

استغفر داود ربه لتركه الاولى ، وتقبل الله تعالى توبته وغفر له .

افضل دليل على عدم صدور أي ذنب عن داود عليه السلام ، هو الجملة الواردة في ذيل نفس هذه الايات : ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ ، كما ان هناك أوصافاً اخرى كثيرة في حقه قد وردت في الايات السابقة . ونعت بتلك المنزلة الرفيعة عند الله تعالى بحيث غدت سيرته نموذجاً لنبي الاسلام ﷺ يقتدي به ، ولا شك أن هذا المعنى لا يتناسب مع العصيان والذنب ابداً .

حينما يصرح القرآن في ذيل هذه الايات ويقول : ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ...﴾ (ص / ٢٦) ، يتبين بكل وضوح أن خليفة الله لا يذنب ، ومسألة ردعه من اتباع هوى النفس انما هي بمثابة الامر ولا تدل على ارتكاب معصية ، ومن هنا يتضح مدى تفاهة تلك القصة التي ابرزتها التوراة بشكل مشوه ، وبالغت في تضخيمها اكثر من الوضع الطبيعي ، وربطت هذه القضية بحادثة عشق داود عليه السلام لزوجته أحد ضباط جيشه وهيامه في حبها ، والتدبير لقتله في خاتمة المطاف واخذ زوجته .

تشمل التوراة على بعض العبارات التي تبين مدى فضاة هذه القصة ، والتي لا تسمح بذكرها عفة القلم ومنزلة الانبياء ﷺ (١) .

هذه القصص الموضوعة ، والعبارات البذيئة تعدّ بنفسها أفضل دليل على تحريف التوراة الحالية .

من الطبيعي أن مثل هذا التحريف ليس غريباً بالنسبة لمحقيقي تأريخ التوراة على مدى آلاف السنين ، لكنّ العجب أنما هو من كيفية اقدام بعض

(١) لمزيد من الاطلاع راجع الكتاب الثاني لـ « اسموئيل » (من كتب التوراة) الفصل الحادي عشر ، الجملة الثانية إلى السابعة والعشرين ، ثم نقدها وتحققها في الجزء ١٩ من التفسير الامثل ذيل الايات ٢١ إلى ٢٥ من سورة (ص) .

المفسرين المسلمين على نقل تلك الخرافات القبيحة في كتبهم ، في الوقت الذي نقرأ في رواية عن علي امير المؤمنين عليه السلام انه قال : **لَا أُوتِي بِرَجُلٍ يَزْعُمُ أَنَّ دَاوُدَ تَزَوَّجَ امْرَأَةً أَوْ رِيًّا إِلَّا جَلَدْتُهُ حَدَّيْنِ حَدًّا لِلنُّبُوَّةِ وَ حَدًّا لِلْإِسْلَامِ** ^(١) .

كما احتمال البعض كون هذه الحادثة اشارة إلى ان داود عليه السلام لم يأسف لنبأ مقتل اوريا في الجبهة كأسفه على غيره ، وذلك لرغبته في الزواج من امرأته بعد مصرعه ، ولكن من دون (اتفاق مسبق) حول الموضوع .

لكن وكما اشار المرحوم السيد المرتضى ايضاً ، فان هذه التصرفات وان لم تعد ذنباً لكنها مما تشمئز منها النفوس ، ومعلوم انه لا ينبغي للانبياء والائمة القيام بمثلها ^(٢) .

كما احتمال بعض المفسرين ان العادة في ذلك الزمان كانت جارية على عدم تزويج المرأة الأيم ابداً ، وان داوداً قد تزوج زوجة اوريا بعد موته لتحطيم هذه السنة الخاطئة .

لكنّ هذا التفسير ايضاً لا يتناسب بدوره مع ظاهر الآيات التي تبين صدور ترك الاولى من داود . لأنّ تحطيم هذه السُنّة الخاطئة يعدّ واجباً فضلاً عن عدم كونه تركاً للأولى ، إلا أنّ يقال بأنّ هذا العمل كان سبب العناء الروحي لأوريا ، كما جاء في احدى الروايات ^(٣) .

لكن التفسير الاول هو الانسب من بين هذه التفاسير .

(١) مجمع البيان ، ذيل الآيات من سورة الصفحة ، كما ذكر الفخر الرازي نفس هذا الموضوع بعبارة اخرى .

(٢) تنزيه الانبياء الصفحة ٩١ و ٩٢ .

(٣) عيون اخبار الرضا الجزء ١ الباب ١٤ الصفحة ١٥٤ .

٧ - سليمان عليه السلام :

وهناك ايضاً آية في القرآن الكريم وردت بحق هذا النبي العظيم ، تبين انه قد طلب العفو من ربه واستغفره على بعض الاعمال التي صدرت منه ، (وان الله تعالى قد قبل توبته) .

يقول القرآن حول هذا الموضوع : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ - قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ - وَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ... ﴾ (ص / ٣٤ ٣٦) .

لكن ما هو هذا الاختبار ؟ ولمن يعود هذا الجسد الجامد الذي بقي على كُرْسِيِّهِ ؟ فهذا ما لم يتعرض القرآن لبيانه ، لكن هناك تفاسير اسلامية له ، وروايات تدور حوله ، كما ان الرواة الذين وجدوا في هذا الموضوع أرضاً خصبة لهم فحاكوا حوله اساطير وهمية لا اساس لها ، ونسبوا إلى هذا النبي العظيم ما لا يتناسب حتى مع المنطق والعقل السليمين ، فكيف بمقام العصمة والنبوة . ومن جملة ذلك اسطورة شنيعة وملفقة تدّعي ضياع خاتم سليمان ، واختطافه من قبل احد الشياطين وجلسه على عرش سليمان ثم استلامه للحكم ، (وذلك لوجود علاقة بين الخاتم والحكومة والتسلط على الانس والجن طبقاً لهذه الاسطورة) ، وهذه الاسطورة المذكورة في بعض الكتب بكل جدية واعتقاد ، والتي تبدو حسب الظاهر من خرافات الاسرائيليات الممتدة جذورها الى « التلمود » كتاب اليهود ، (وهو عبارة عن مجموعة روايات في تفسير قوانين موسى) ، والتي يصعب التفوه بها او نقلها لوقاحتها .

ما يبدو صحيحاً من بين التفاسير والذي اشير اليه في الروايات الاسلامية ،

تفسيران :

الاول : ان سليمان عليه السلام كان يتمنى ان يكون له ابناء شجعان واكفاء ليديروا

حكومته من بعده ، ويعينوه في حياته على ادارة البلاد والنظام والجيش ، ولذلك قال في احدى الليالي : لقد صممت على مجامعة العديد من نسائي على أمل ان ارزق باولاد اكفاء ، لكنه لم يقل انشاء الله ، فتسبب ترك الاولى هذا بان لا يرزق من زوجاته سوى بطفل ناقص الخلقة كالجثة الهامدة حيث القوه على كرسيه . جاء في حديث عن النبي الاكرم ﷺ : **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا !** ^(١) .

وهنا انتبه سليمان إلى انه ترك الأولى فتاب لذلك وعفى الله تعالى عنه .
 الثاني : ان المراد من جملة **﴿الْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَدًا﴾** هو أن سليماناً قد مرض مرضاً شديداً حتى عاد كالجثة الهامدة فوق كرسيه ، فكان ذلك ابتلاءً إلهياً ، ثم استعاد عافيته وشفى ، وهو المراد من كلمة « اناب » في الآية .
 طبقاً لهذا التفسير الوارد في تفاسير الكثير من اقطاب المفسرين تكون جملة **﴿الْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَدًا﴾** بمعنى **﴿الْقَيْنَاهُ عَلَى كُرْسِيِّه جَسَدًا﴾** وهي خلاف ظاهر الآية بطبيعة الحال .

فضلاً عن عدم وضوح ما هو ترك الأولى الصادر من سليمان على اثر هذا المرض ليستغفر ربه ؟ إلا أن يقال بأن الانسان يرتكب تركاً للأولى في حالاته المختلفة بشكل عام وحال مرضه بشكل خاص ، وأن سليمان قد استغفر ربه لمثل هذه الحالات . لكن هذا الجواب مبهم وغير مقنع .

الموضوع الاخر الذي اثير حول هذا النبي العظيم ، هو الجملة التي تلي نفس هذه الآية وهي قوله : **﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾** .
 فهل يتلاءم ، هذا الطلب مع الروح السامية والنظرة البعيدة والزهد

(١) ذكر البخاري هذا الحديث في صحيحه ، كما ذكرته بعض التفاسير ومن جملتها روح البيان وفي ظلال القرآن في ذيل الآيات مورد البحث .

المنقطع النظير الذي يتمتع به الانبياء المعصومون ﷺ ؟ الاتفوح من هذا الكلام رائحة البخل يا ترى ؟

ورغم أن الحديث يدور هنا حول عصمة الانبياء ﷺ ، لكن على اية حال فبالنقائص الاخلاقية الاخرى خصوصاً تلك التي تسمئز منها النفوس لا تتناسب مع مقامهم ومنزلتهم .

وقد أجاب المرحوم السيد المرتضى في « تنزيه الانبياء » والمحقق الطبرسي في « مجمع البيان » وباقي المفسرين على هذا السؤال في تفاسيرهم باجوبة متعددة^(١) ، والاجوبة ادناه تعد أنسبها :

ان سليمان طلب من الله تعالى ان تكون له معجزة خاصة ، كما ان لكل نبي معجزته الخاصة ، وكانت معجزته هي الحكم الذي لا مثيل له ، الحكم على الانس والجن على الرياح والسحاب و فوهبه الله مثل هذه المعجزة ، حكومة واسعة تتصف بالاعجاز في مختلف الجوانب . ومن البديهي ان طلباً كهذا لا يعد عيباً ونقصاً للنبي .

الجواب الاخر هو احساس سليمان بالاذن لمثل هذا الطلب عن طريق الوحي ، أو بعبارة اخرى أن الله تعالى شاء ان يتجسد شعاع من قدرته وحاكميته عن طريق احد انبيائه العظام ، فوجد سليمان صالحاً لهذا الغرض فاجازه لمثل هذا الطلب ، فطلب سليمان بدوره تلك المعجزة . فوهبه الله تلك الحكومة العجيبة التي لا مثيل لها ، والتي لم ولن يكون لها نظير في العالم . ومن المسلم انه حينما يجد الله احداً صالحاً لعمل ما ، ويجيزه في ذلك : لا يبقى هناك ادنى مجال للشك والترديد والاشكال .

الدليل على هذا الكلام هو ما ورد عن حياة سليمان من انه كان زاهداً جداً

(١) تنزيه الانبياء الصفحة ٩٧ و ٩٨ ، مجمع البيان الجزء ٨ الصفحة ٤٧٦ .

في حياته ، كما نقرأ في حديث عن النبي الاكرم ﷺ انه قال حول هذا الموضوع : كَانَ يَأْكُلُ الشَّعِيرَ وَيَطْعَمُ النَّاسَ الْحَوَارِيَّ! ^(١) وَكَانَ لِبَاسُهُ الشَّعْرَ وَكَانَ إِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ شَدَّ يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ فَلَا يَزَالُ قَائِمًا يُصَلِّي حَتَّى الصَّبَاحِ ^(٢) !.

وهناك تفسير لطيف حول هذا الموضوع في حديث عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام وذلك حينما سُئِلَ عن تفسير الآية : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ قال عليه السلام :

الْمُلْكُ مُلْكَانِ مُلْكٌ مَأْخُودٌ بِالْغَلْبَةِ وَالْجُورِ وَأَجْبَارِ النَّاسِ ، وَ مُلْكٌ مَأْخُودٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى ، كَمُلْكِ آلِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُلْكِ طَالُوتَ وَ ذِي الْقَرْنَيْنِ ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ (ان هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ مَأْخُودٌ بِالْغَلْبَةِ وَالْجُورِ وَ إَجْبَارِ النَّاسِ ، فَسَخَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الرِّيحَ ... وَ سَخَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الشَّيَاطِينَ ... وَ عَلَّمَ مَنْطِقَ الطَّيْرِ ، وَ مُكِّنَ فِي الْأَرْضِ ، فَعَلِمَ النَّاسُ فِيهِ وَقْتَهُ وَبَعْدَهُ أَنَّ مُلْكَهُ لَا يَشْبَهُ مُلْكَ الْمُلُوكِ الْمُخْتَارِينَ مِنْ قِبَلِ النَّاسِ ، وَالْمَالِكِينَ بِالْغَلْبَةِ وَالْجُورِ ^(٣) .

المراد من هذا الحديث هو أن سليمان عليه السلام لم يطلب حكماً محدوداً ، بل حكماً لا مجال فيه للقليل والقال والاثام بالزور والظلم . ولذا فقد مزج الله هذه الحكومة بالمعجزات العجيبة لاثبات كونها من عنده تعالى ، لا من الناس ولا عن طريق الظلم والغلبة ^(٤) .

ثالث : ما اثير حول مقام عصمة سليمان عليه السلام هو ما جاء في نفس سورة ص

(١) الحواري (بالحاء المضمومة والواو المشددة) هو « الطين الابيض » .

(٢) سفينة البحار ، مادة « الزهد » ، وتفسير اخرى .

(٣) نور الثقلين الجزء ٤ الصفحة ٤٥٩ الحديث ٥٦ .

(٤) وبناء على هذا التفسير فهناك جملة مقدرة في الآية تفديرها : وهب لي ملكاً لا ينبغي لاحد من بعدي ان يقول ليس من عند الله .

الآيات (٣١ إلى ٣٣) حيث يقول تعالى : ﴿ اِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ (الخيل الأصيلة) - فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي (إِنِّي أحب هذه الجياد في سبيل الله ومن أجل الجهاد ، فبقي ينظر إليها .) حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ - رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنَاقِ (يمسح عليها لانها لائقة للقتال) ﴿ طبقاً للمعنى المتقدم الذي تبين من هذه الآيات ، لا يبدو هناك أي اشكال في عمل سليمان عليه السلام هذا ، فهو يعتد بقدرته العسكرية ويلتذ بالتطلع إلى الجياد المهيأة للجهاد ، ويأمر بردها عليه ثانية لملاطفتها . وهذه التصرفات كلها تبدو بشكل عام معقولة ومنطقية والهيبة .

لكن البعض فسرّ هذه الآية بشكل اخر واعتبرها كبداية للاشكال على سليمان ، وقال : ان الضمير في كلتا جملتي « توارت » و « رُدُّوْهَا » يعود الى الشمس التي لم ترد في العبارة ، والتي يمكن استنتاجها من التعبير بـ « العشي » الوارد في الآية . وطبقاً لهذا التفسير فقد ذهل سليمان بالتفرج على هذه الجياد ، إلى ان غابت الشمس وتوارت وراء الحجب ، فغضب لذلك كثيراً لفوات صلاة العصر عليه ، وحينئذ طلب من الملائكة اعادة الشمس ثم توضأ وصلى ، وان جملة ﴿ طَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنَاقِ ﴾ اشارة إلى وضوئه .

كما ذهب البعض إلى أبعد من هذا ايضاً ، وقال بأن : المراد من هذه الجملة هو أنه أعطى امراً بقطع أعناق الجياد وقوائمها ، باعتبارها السبب وراء غفلته عن ذكر الله (العذر الذي هو اقبح من الذنب) ، والقول بانه ذبحها ووزع لحومها في سبيل الله يبدو عجيبيّاً ايضاً ، لان جياداً بتلك القيمة والخاصية التي تلفت نظره اليها حتى يذهل لذلك لا ينبغي ذبحها كالابقار والاغنام ، اذ لو اراد انفاقها لوجب اعطاؤها للآخرين وهي على قيد الحياة ، ولا يخفى على احد سقم هذه التفاسير ، وذلك لان :

١ - لو كانت هذه الجملة اشارة إلى وضوئه ، فليس لديه سوى رقبة واحدة ، والتعبير بـ « الاعناق » بصيغة الجمع لا معنى له .

ولو كانت بمعنى قطع اعناق وقوائم الجياد ، فهو عمل غير منطقي جداً ، لا يقدم عليه حتى الفرد العاقل العادي فكيف بنبي عظيم كسليمان عليه السلام . اذ لا ذنب لها ، بل لو كان هناك ذنب فهو منه حينما ذهل بالتفرج عليها .
أكثر ما يمكن ان يقال هنا هو ان يهبها للآخرين لتبقى بعيدة عنه ولا تشغله بنفسها ، ولا داعي للقتل ابداً ؟!

٢ - لم يرد في هذا الحوار كلام عن « الشمس » ، والاستدلال عليها عن طريق « العشي » بعيد جداً . لأن اقرب ما يعود اليه الضمير هنا هو « الخير » الذي يعني هنا « الجياد » بكل تأكيد ، كما لم يرد شيء عن الملائكة ايضاً ليكونوا من مخاطبي سليمان ، فضلاً عن ان هذا التعبير الذي وجهه سليمان إلى الملائكة تشم منه رائحة صيغة الامر ، ويبدو مستبعداً جداً لعدم لياقته وشأن الملائكة .

٣ - لو قبلنا هذا التفسير على سبيل الفرض ، لا مكن القول بان الصلاة التي أداها قضاءً كانت صلاة مندوبة ، قد فاتت سليمان وانها كانت قبل غروب الشمس ، فكيف يثبت كونها صلاة واجبة ؟ واساساً كيف يثبت كون الفئات صلاة ؟ ! ربما كانت اذكراً خاصة يؤديها سليمان قبل الغروب . وقال بعض المفسرين ايضاً ان ذكر الـ « رب » لو كان يعني الصلاة الواجبة ، وان سليمان عليه السلام كان قد غفل عنها لانشغاله بالجياد استعداداً للجهاد ، فلن يرد عليه اشكال ابداً ، لان نفس عمل سليمان هذا يعد عبادة عظيمة قد اغفلته عن عبادة اخرى .

لكن هذا التفسير ايضاً يبدو بعيداً ، نظراً للاهمية الخاصة التي تتمتع بها الصلاة . والصحيح هو ما قيل اولاً .

٨ - يونس عليه السلام :

وهناك آية في القرآن الكريم حول هذا النبي العظيم ايضاً ، حيث تبين أنه اعترف امام الله تعالى بالظلم ثم طلب العفو والمغفرة وأن الله استجاب دعاءه وغفر له بعد اختبار طويل ، يقول تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ثم يضيف قائلاً : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الانبياء / ٨٧ و ٨٨) .

وهنا يثار هذا السؤال وهو كيف يتناسب وضع يونس في صفوف الظلمة مع مقام عصمته ، ولمن ظلم ؟ ، وما هي نوعية الظلم ؟ ثم ان يونس عليه السلام على من غضب ؟ ولماذا ظن ان الله لن يضيّق عليه ؟ الا يمكن لهذه الجهات الثلاث مجتمعة ان تكون بمثابة علامة استفهام على مسألة عصمته ؟ .

ورد نفس هذا المعنى بشكل غامض في سورة (القلم / ٤٨ إلى ٥٠) :
﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْ لَا أَنْ تَدَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

كما يستفاد من هذا التعبير ايضاً أنه كان قد تسرع في امره واشرف على الهلاك لولا ان اسعفه لطفه تعالى .

ونفس هذا المعنى تكرر ايضاً في سورة الصافات ، وذلك بعد الإشارة الى قصة هربه من قومه وركوبه في السفينة ، والقاء القرعة ثم القائه في فم حوت عظيم ، يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (الصافات / ١٤٣ و ١٤٤) .

ما هو الذنب الذي اقترفه ليسجن في بطن الحوت ، ويلبث فيه مدة مديدة

لولا تسبيحه لله تعالى ؟ ، خلاصة القول أن قصة يونس عليه السلام التي جاءت في ثلاث سور من القرآن الكريم (الانبياء ، القلم ، الصافات) وبعبارات مختلفة تثير اسئلة شتى حول مقام عصمة هذا النبي العظيم وتستدعي جواباً منطقياً .

الجواب :

صحيح ان التعابير المختلفة للآيات اعلاه تبين أن ذنباً ما قد صدر من يونس عليه السلام ، فالتعبير بـ « الظالم » و « المليم » (يأتي احياناً بمعنى ملامة النفس ، او القيام بعمل يستوجب ملامة الآخرين لفاعله ، لان لفظة « المليم » قد فسرت بكلا المعنيين) ، وكذلك التعبير بأن يونس عليه السلام : ﴿ لَوْلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ - لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُنْعَثُونَ ﴾ ، والتعبير بـ ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ وتعبير ﴿ لَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ ، الذي يأمر نبي الاسلام ﷺ : بان لا يكون كيونس عليه السلام ، وكذلك تعبير : ﴿ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ ، كل هذه التعابير تبين وقوع شيء مما لا ينبغي وقوعه .

لكن القرائن تشير إلى ان هذا العمل المخالف لم يكن سوى ترك الاولى ، لأن الله تعالى وفي نفس هذه الآيات قد تحدث عن يونس كنبى مرسل ، موضع العناية الالهية الخاصة ، وفي سورة (الانعام / ٨٦) يعتبره الله تعالى من الانبياء العظام الذين فضلهم على العالمين ، كما يعتبره في عداد الانبياء عظيمي الشأن كابراهيم ونوح واسماعيل وعيسى عليهم السلام ، وذلك في سورة (النساء / ١٦٣) .

اما ما هو ترك الاولى هذا ؟ فهناك احتمالات متنوعة ، يمكن لكل واحد منها منفرداً فضلاً عن مجموعها ، ان تكون دليلاً على ترك الاولى فقط . من

جملتها أنه تسرع في ترك قومه اذ كان الاجدر به ان يقاوم اكثر ، او انه تعجل بالدعاء عليهم ، او أنه كان ينبغي عليه انتظار الامر الالهي حين خروجه من بين قومه مهما كان قد يئس من هدايتهم بحسب الظاهر .

لا يخفى انّ ايّاً من هذه الامور لا يعد ذنباً لكنها لو لم تتم لكان أفضل ، وبناءً على هذا فقد استحق العتاب والملامة ، والتعبير بـ « الظلم » او « الابتلاء بالعقاب الالهي » انما هو من باب ان ﴿ حَسَنَاتُ الْاَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ، والذي تقدم الكلام عنه مفصلاً عند البحث عن ترك آدم ﷺ للاولى ، كما يحتمل ايضاً تصويره بان الله تعالى لن يضيق عليه ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ ، وانّ تصويره هذا كان بمثابة ترك الاولى ، وذلك لانّ تمتع الانبياء ﷺ بمستوى عال من الايمان يفرض عليهم العيش دائماً بين الخوف والرجاء لا اعتبار أنفسهم في امان من العقاب الإلهي ، او القنوط من رحمته .

اما التعبير بـ « مغاضباً » فواضح أنه يعني الغضب على اعمال قومه المذنبين ، لا الغضب على الله تعالى ! كما ذهب اليه بعض المغفلين . لان هذا ليس فقط متنافياً مع مقام الانبياء ، بل لا يتناسب وادنى حد من الايمان ايضاً . وعبرة « مغاضباً لربه » الواردة في الروايات او كلمات بعض اقطاب اهل التفسير انما تعني « مُغَاضِباً لِأَجْلِ رَبِّهِ » اي انه غضب لاجل الله تعالى نتيجة اعمال قومه .

ومن هنا يتضح سبب مكوثه في سجن مظلم تتوالى ظلماته الواحدة بعد الاخرى (ظلمة بطن الحوت ، ظلمة البحر ، وظلمة الليالي) ؟ وسبب عزمه على التضرع والاستغفار وطلب العفو ، بتلك العبارات الموزونة المتينة : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

الملفت للنظر هو ما جاء في البعض من الروايات ، ان الامام علي بن

موسى الرضا عليه السلام قال : حينما كان يونس في خلوته في بطن الحوت متوجهاً بكل وجوده إلى العبادة مستجيراً إلى الله تعالى وحده ، اعتبر نفسه من الظالمين لانه لم يأت بعبادة خالصة كهذه من قبل ، فقال أن لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين ، بتركي مثل هذه العبادة التي فرغتنى لها في بطن الحوت ، فقبل الله تعالى منه ذلك ، وقال عز وجل : « فلولاً أنه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون » .^(١)

اما فيما يتعلق بتفسير الآيات المتعلقة بـ « يونس » عليه السلام وما هو ذلك الحوت الذي تمكن من الاحتفاظ به في بطنه ؟ وكيف يمكن للانسان البقاء حياً مدة طويلة بلا ماء او طعام او هواء ؟ وكيف يمكن لذلك الطعام الا يذوب ويهضم في المعدة الواسعة للحيوان ؟ والاسئلة التي من هذا القبيل ، فالكلام عنها خارج عن موضوع بحث العصمة . ومن اراد الوقوف على اجوبة هذه الاسئلة يمكنه الرجوع إلى « التفسير الامثل » ، الاجزاء ١٣ و ١٩ و ٢٤ في تفسير الآيات التي تتحدث عن يونس عليه السلام .



٩- نبي الاسلام ﷺ :

كما ان هناك آيات قرآنية مختلفة تشير تساؤلات حول مسأله عصمة نبي الاسلام ﷺ ، فيما يلي اهمها :

الف - ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا - لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ (الفتح / ١ و ٢) .

بما أن كلمة « الذنب » تعني المعصية اذن ، فكيف يتلاءم هذا المعنى مع

(١) تفسير نور الثقلين الجزء ٣ الصفحة ٤٥٠ الحديث ١٣٧ .

المقام السامي لعصمة هذا النبي العظيم ؟ .

للمفسرين ابحاث كثيرة وآراء متنوعة في معرض اجابتهم على هذا

السؤال ، من جملتها :

انّ المراد هو ترك الاولى ليس الا ، والذي لا يتنافى ابداً مع مقام العصمة ،

اذ ان الانسان حينما يرجح المهم على الاهم والحسن على الاحسن يقال له لقد

« ترك الاولى » (تأمل جيداً) ، اذ أنّه فضلاً عن عدم ارتكابه لذنب فقد ادى

مستحباً ايضاً ، غاية مافي الأمر أنّه كان هناك مستحب اقوى مما اداه ، واطلاق

الذنب والمعصية على مثل هذا العمل انما هو لعلو مقامه اذ كما قلنا إنّ :

﴿ حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ .

الآخر هو انّ المراد به معصية الأمة (وبناءً على هذا ففي الآية شيء مقدّر

الا وهو كلمة « الامّة ») ، اي (من ذنب امتك ..) .

وقول ثالث يشير إلى انّ المراد به الذنوب التي ارتكبت في حق

النبي ﷺ ، (اذ ان للذنب معنىً مصدرياً يضاف احياناً إلى الفاعل واخرى الى

المفعول) ، ومن المسلّم انّ الاعداء لم يتمكنوا من تكرار ارتكاب نفس تلك

المظالم والذنوب ، التي ارتكبوها في حق النبي ﷺ قبل فتح مكة .

لكن ما عدا التفاسير الثلاثة المتقدمة اعلاه وتفسير اخرى اهملناها لعدم

اهميتها ، فلدينا تفسير أنسب وأكثر انسجاماً مع مضمون ومحتوى الآيات اعلاه

والقرائن الموجودة فيها ، وذلك من جهات شتى ، كما ويتلاءم مع روايات

المعصومين عليه السلام ايضاً :

توضيح ذلك : لغرض فهم معنى الآية يجب التركيز على التعابير السابقة

واللاحقة لها ، بالاضافة إلى التعابير التي تتضمنها هي بنفسها ، اذ تم التصريح في

هذه الآية بوجود علاقة بين « الفتح » المزبور وغفران هذه الذنوب ، يقول تعالى

انّ الهدف من هذا « الفتح المبين » (صلح الحديبية او فتح مكة على حد قول البعض) هو ان يغفر الله ذنوبك السابقة واللاحقة .

علاوة على هذا فغفران الذنوب السابقة معلوم ، اما الذنوب التي لم ترتكب بعد فكيف تشملها المغفرة الالهية ، الا يفهم من هذا الكلام اعطاء الضوء الاخضر بجواز ارتكاب ايّ ذنب في المستقبل ؟ فهل هذا الامر منطقي ومعقول ؟! .

التدقيق في هاتين الملاحظتين يوقفنا على المفهوم الواقعي للآية وهو انّ من الطبيعي عند حدوث ثورة الهية ان تتعرض مصالح بعض الناس للامشروعة للخطر بسببها ، ومنهم المؤيدون للعادات الخرافية ، والمتعصبون بلا دليل ، والمتحجرون الجامدون ، الذين يجدون عقائدهم الخاطئة امام الخطر والزوال ، وسوف يقفون في وجه تلك الثورة بكل قوة ، ونراهم ينسبون اليها كل ما هو مُشين ، لغرض اجهاضها واخمادها ، فيصطنعون ضدها الاكاذيب ، ويلصقون بها التهم وينسبون لقائدها شتى الرذائل ، من جملتها انه قد احدث الفرقة وشق وحدة الصف ، واهان المقدسات ، لا يرمي سوى إلى السلطة والحكومة على الناس والمنزلة والثروة ، انه آله بيد الآخرين ومنفذ لا هدايا الاجانب !! فلو لم يحالف النجاح هذه الثورة ، فان هذه التهم تتعاظم شيئاً فشيئاً بدل انحسارها وتوقفها ، وبديهي ان فشلها يعد بمثابة الدليل على صدق هذه الادعاءات .

لكن حينما انتصرت الثورة بلطف الرعاية الالهية ، وتحطمت العادات الخرافية ، وبترت المصالح الشخصية اللامشروعة ، واتضحت حقانية دعوة ذلك القائد السماوي ، فسرعان ما تبددت كل تلك الاساءات التي نُسبت اليه والاتهامات الباطلة سواء المتعلقة منها بالماضي او التي كان من المقرر طرحها في المستقبل ، وحلّ الندم والاسى محل التهجمات والاتهامات الزائفة وخساً

حتى المنافقون الذين اعمى الله ابصارهم ، والمتعصبون الذين يعاندون ولا يؤمنون ، لانهم سيبهتوا امام هذه الحقيقة .

ولذا يقول تعالى للنبي ﷺ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (اي مما كانوا يعدونه ذنباً) ^(١) .

ومن هنا يتضح السبب وراء نسبة هذا الغفران إلى الله ، باعتباره هو الذي هياً مقدمات هذا الغفران ، والتي هي عبارة عن نفس ذلك « الفتح المبين » .

اللطيف هنا هو اننا نجد هذا المطلب متجسداً بكل وضوح في حديث عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام في كتاب « عيون اخبار الرضا » ، حيث قال عند رده على سؤال المأمون عن كيفية تناسب هذه الآية مع مقام عصمة الانبياء ، : لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ عِنْدَ مُشْرِكِي مَكَّةَ أَعْظَمُ ذَنْبًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، ثُمَّ يَضِيفُ مَوْضِعاً ذَلِكَ قَائِلاً : وَحَيْثُ انْهَمُ كَانُوا يَعْبُدُونَ ثَلَاثِمِائَةَ وَسْتُونَ صَنَمًا ، فَحِينَئِذٍ دَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى التَّوْحِيدِ شَقَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ كَثِيرًا وَقَالُوا بِاسْتِغْرَابٍ ، هَلْ تَسْتَبْدِلُ كُلَّ آلِهَتِنَا بِالْوَاحِدِ ؟ يَا لِلْعَجَبِ ؟ ! كَمَا أَضَافَ قَائِلاً : (فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ مَكَّةَ قَالَ لَهُ يَا مُحَمَّدُ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ عِنْدَ مُشْرِكِي أَهْلِ مَكَّةَ ، بِدُعَائِكَ تَوْحِيدَ اللَّهِ فِيمَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ لِأَنَّ مُشْرِكِي مَكَّةَ أَسْلَمَ بَعْضُهُمْ وَخَرَجَ بَعْضُهُمْ عَنْ مَكَّةَ ، وَمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى انْكَارِ التَّوْحِيدِ إِذْ دَعَا النَّاسَ إِلَيْهِ فَصَارَ ذَنْبُهُ عِنْدَهُمْ فِي ذَلِكَ مَغْفُورًا بِظُهُورِهِ عَلَيْهِمْ) .

فحينما سمع المأمون هذا التفسير قال : لله درك يا ابا الحسن ! ^(٢) .

(١) « غفر » و « غفران » و « مغفرة » تعني في الاصل ستر الشيء ، وتغطيته على حد قول مقاييس اللغة ، ومن هنا اطلق على غفران الذنوب ايضاً .

(٢) تفسير نور الثقلين الجزء ٥ الصفحة ٥٦ الحديث ١٨ .

كما ورد نفس هذا المعنى بعبارات اخرى في حديث عن ائمة اهل البيت عليهم السلام ، رواه السيد ابن طاوس في كتاب « سعد السعود » ، وهو ان قريشاً واهل مكة قد نسبوا الكثير من الذنوب إلى نبي الاسلام ﷺ قبل الهجرة وبعدها ، وحينما تم فتح مكة وتعامل النبي ﷺ بتلك الرأفة مع اعدائه المعاندين ، غضوا الطرف عن كل تلك الذنوب التي كانوا قد نسبوها اليه ^(١) .

واخيراً يقول القرآن : ﴿وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ . واضح انّ نعمة الله قد اكتملت ليس فقط بالنسبة للنبي ، بل لكل المجتمعات الاسلامية عن طريق هذا الفتح العظيم ، فلقد خسر اعداء الاسلام وإلى الابد ، بينما مهد الطريق لمسير النبي ﷺ ، وكافة المسلمين لتقدم أكبر .

* * *

ب - نقرأ في آية اخرى ان الله يخاطب النبي قائلاً : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ .

او ليس التعبير بـ « العفو » من جهة و « العقاب والاملاء » ، والاستغفار عن سبب ترخيصه لهم من جهة اخرى ، دليلاً على انّ سماح النبي لبعض المنافقين بعدم الاشتراك في القتال كان عملاً مخالفاً ؟ هل تتلاءم هذه الآية مع مقام عصمة هذا النبي العظيم ؟ .

اللطيف هو أنّ الله اشار في هذه الآية إلى العفو اولاً ثم يأتي العقاب ، لكن البعض من المغفلين تناول هذا الموضوع بشكل مسيء حتى اعتبر الآية دليلاً على صدور الذنب من النبي ﷺ ، دون الالتفات إلى لطف هذا البيان الالهي الذي اشرنا اليه " ! من جملتهم « الزمخشري » في « الكشاف » حيث قال في

(١) نفس المصدر الحديث ١٧ بتلخيص واقتباس .

تفسير هذه الآية : « جملة عفا الله عنك كناية عن الجناية لان العفو مرادف لها ومعناه : اخطأت وبئس ما فعلت ^(١) .

لكنه لو تأمل اكثر في محتوى الآية وصدرها وذيلها ، والتعابير الواردة فيها لأدرك ان كلمة العفو والعتاب إنما هي في الحقيقة لبيان سوء معاملة المنافقين للنبي ﷺ ، وتوجيه الكلام اليه ﷺ انما هو نوع من التعبير الكناي لللطيف لبيان واقعة خطيرة .

وتوضيح ذلك : يخاطب الانسان احياناً احد اصدقائه ويعاتبه لأنه لم يدع الشخص الفلاني يفتضح وتبين حقيقته للناس ! في حين ان هذا العتاب والخطاب يعد مقدمة لانتقاد شخص ثالث في حقيقة الأمر .

يمكن توضيح هذا الموضوع بضرب مثال على ذلك : افرض ان احداً اراد ان يصفع ابنك البريء على وجهه فمنعه احد اصدقائك . فمع انك لم تنزعج لهذا العمل بطبيعة الحال ، لكن احياناً ولغرض اثبات سوء سريرة ذلك الشخص ، تلتفت إلى صديقك وتقول له معاتباً : لماذا لم تدعه يصفع ابني حتى يتعرف الناس على قساوة قلبه . هذا الخطاب الذي هو على صيغة العتاب والملامة ، هو في الواقع كناية بليغة عن قساوة ذلك الظالم .

جاء في بعض التعابير الواردة عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام في تفسير هذه الآية ، العبارة أدناه : هذا مما نزل ﴿إِيَّاكَ أَغْنِي وَأَسْمَعِي يَا جَارَهُ﴾ خَاطَبَ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ نَبِيَّهُ ، وَأَرَادَ بِهِ أُمَّتَهُ ^(٢) .

يحتمل ان يكون هذا الكلام اشارة إلى نفس ذلك المطلب المتقدم اعلاه ، والدليل على هذا الشيء هو الصلاحية التي اعطيت للنبي ﷺ في الآيات

(١) الكشف الجزء ٢ الصفحة ٢٧٤ .

(٢) تفسير البرهان الجزء ٢ الصفحة ١٣٠ الحديث الاول .

القرآنية الاخرى ، وذلك بالسماح لمن شاء من المؤمنين بالتفرغ لمشاغلهم الشخصية ، وعدم الاشتراك في بعض الاعمال الهامة ، فيما لو طلبوا ذلك وكان فيه صلاحاً : ﴿ فَأَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ ﴾ (النور ؟ ٦٢) .

وبناءً على هذا فلا مانع مع هذه الصلاحية من سماح النبي ﷺ ، لبعض المنافقين بعدم الاشتراك في المعركة خصوصاً ، وان اشتراكهم لن يحل للمسلمين أية مشكلة ، هذا ان لم يخلق لهم مزيداً من المتاعب .
من مجموع هذه الاعتبارات يمكن ادراك ان التفسير اعلاه يناسب الآية المتقدمة ، اذ لا وجود لما يחדش مقام العصمة فيها .



ج - الآية الاخرى التي نزلت في مسألة زواج نبي الاسلام ﷺ من مطلقة ابنة بالتبني (زيد) ، اثارت استفهاماً لدى البعض ايضاً .
هذه الآية تقول بصراحة : كلما حدث خلاف بين زيد وزوجته ، كان النبي يحث زيداً على عدم طلاقها ، ويكرر عليه ذلك . ولكن حينما لم تؤثر هذه التوصيات ، وطلق زيد زوجته تزوجها النبي ﷺ ، ليحطم تلك العادة الجاهلية البغيضة التي كانت تعتبر زوجة الابن بالتبني حراماً على الانسان ، كزوجة الابن الحقيقي ، هذا من جهة .

وليعيد من جهة اخرى الى زينب حيثيتها واعتبارها ، لأنها حفيدة عبد المطلب وابنة عمة النبي ﷺ ومن عائلة معروفة ، وكانت قد تزوجت زيداً العبد المعتقد امتثالاً لتوصية النبي ﷺ بذلك . ومن المسلم ان زواجاً كهذا كان صعباً عليها وكان هذا الفراق أصعب (تأمل جيداً) .

وهنا يقول القرآن : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (الاحزاب / ٣٧) وهنا فسح المجال لبعض المغفلين واحياناً المغرضين لنسج مجموعة من الاساطير الكاذبة ، وفرضها على القرآن ونسبتها إلى نبي الاسلام ﷺ^(١) .

المهم لدينا هنا وما ينبغي توضيحه جملتان وردتا في الآية اعلاه ، والآ فالاساطير الخرافية التي لا أثر لها في القرآن ، ليست شيئاً يستحق التحقيق فيه والدفاع عنه .

جاء في احدى الجمل : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ .

كما نقرأ في الجملة الثانية : ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ .

ألا تتنافى هاتان الجملتان مع مقام عصمة النبي ﷺ ؟

مفهوم الجملة الاولى يبدو مبهماً ، لكن الذين يحوكون الاساطير ربطوا بها مطالب كثيرة ، وقدموها كلقمة سائغة لاعداء الاسلام حتى يتهموا النبي ﷺ (والعياذ بالله) بعشقه لزوجته زيد .

في حين أن نفس الآية تكذب هذا الادعاء ، اذ تقول : أنك اوصيت زيداً مراراً بعدم طلاق زوجته (لا يفوتك ان جملة « اذ تقول » هي بصيغة المضارع الدال على الاستمرار) ، ولو كانت المسألة كما توهمها الاعداء لوافق النبي ﷺ على الطلاق بكل رحابة صدر ، او لاختار السكوت على اقل تقدير ، فكيف يعقل

(١) لمن اراد مزيداً من الاطلاع على هذه القصص الموضوعة ونقدها الرجوع إلى التفسير الامثل الجزء ١٧ ذيل الآية اعلاه .

ان ينهاء عن ذلك والحالة هذه .

اما فيما يتعلق بالجملة الثانية فقد قالوا : بأي دليل يخاف النبي ﷺ من الناس ، والله أحق ان يخافه ويخشاه ؟

بالرغم من الاحتمالات الكثيرة التي اعطيت لتفسير هذه الآية ، خصوصاً هاتين الجملتين ، حتى ان بعض المفسرين المعروفين تورط في الاشتباه . فمجرد تدقيق النظر في متن نفس الآية (خصوصاً الجمل السابقة واللاحقة على هاتين الجملتين) يُدرك المرء وضوح وجلاء مفهوم الآية ، اما لو لوحظت لوحدها مجردة عما يحيط بها فما اكثر الابهامات التي ستحف بها .

لو اخذنا الآية جملة جملة ، وفسرناها لكان معناها كما يلي أنعم الله بالايمان على « زيد » ابن النبي ﷺ بالتبني (الذي كان سابقاً عبداً للنبي ﷺ) ثم اعتقه ، وتبناه لذكائه ودرايته) ، كما انعم عليه النبي ﷺ اذ اعتقه واعتبره كولده ، وزوجه ابنة عمته التي كانت لها شخصيه مرموقة في المجتمع . هذا هو مفهوم جملة ﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ .

كما يستفاد من الجملة الثانية وقوع سوء التفاهم بين زيد وزوجته حتى حظر على ذهنه طلاقها ، وأن النبي ﷺ كان يحثه على عدم الطلاق ، ويدعوه للورع والتقوى : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ .

كان النبي ﷺ هنا امام محذورين : فهو من جهة يفكر في أنه لو انتهى الامر بالطلاق لوجب عليه ان يتزوجها ، ليغسل ذلك العار الذي سيلحق بابنة عمته زينب ، باعتبار ان العبد المعتق ايضاً لم يرض بها فطلقها ، ومن جهة اخرى كان يخشى الناس خصوصاً المنافقين ، الذين كانوا يتربصون به الدوائر والذرائع ليعيروه بهذا الامر من جهتين :

الاول : تحطيمه لعادة عرب الجاهلية المتأصلة ، والتي كانت تعتبر زوجة

الابن بالتبني كزوجة الابن الحقيقي وإنّ الزواج منها هو كالزواج من تلك .
الآخر : اعتقادهم بأنّ الزواج من مطلقة العبد المعتقد هو دون شأن
النبي ﷺ ، وانه . انتقاص من مكانته .

لكن شاء الله ان يتحقق هذا الزواج بعد ذلك الفراق ؟ ، وأن تتحطم تلك
العادة السيئة ، كما جاء في ذيل الاية : ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي
أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ .

وبناءً على هذا ، فالذي كان النبي ﷺ يخفيه في قلبه ، واعلنه الله في
خاتمة المطاف هو الزواج من زوجة زيد في حالة اصراره على طلاقها .

والذي كان يخشاه النبي ﷺ هو رد الفعل نتيجة تحطيمه لعادة الجاهلية ،
وكذلك زواجه من امرأة دون شأنه ﷺ ، واستمر خوفه ما دام الامر الالهي
القطعي لم يصدر بحقه ، لكن بعد صدوره بلزوم زواجه منها وتحطيمه لكلتا
العادتين الخاطئتين ، بل حتى أنّ صيغة عقد زواجه اجراها الله تعالى كما في متن
الاية : ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ ، لم يبق هناك بعد ذلك أيّ ومجال لخوفه وتردده بالنسبة
لهذه المسألة .

اللطيف هو التأكيد على هذه المسألة في الآية التي بعدها ايضاً : قال
تعالى : ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ
خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ .

هذه الاية تصرح بأنّ ما قام به النبي ﷺ هنا ، كان فريضة الهية وسنة كانت
في الاولين ايضاً ، وامراً الهياً مقدراً ينبغي وقوعه .

بديهي أنّ هذه المسألة لو كانت نابعة عن رغبة شخصية ، لما كان لهذه
التعابير النازلة بشأنها أيّ معنى يذكر . لكن لا الاعداء المغرضون يصغون لمثل
هذه الحقائق ، ولا البعض من رواة القصص المغفلين الذين يرجحون الاساطير

المفتعلة الصاخبة في مثل هذه الاحداث على الواقعيات .

لكن ولحسن الحظ فوضوح تعابير القرآن هنا هو مما لا يخفى . الملفت للنظر هو ما نقرأه في حديث نقله « القرطبي » المفسر المعروف من اهل السنة عن الامام علي بن الحسين عليه السلام حيث يقول : « ان النبي ﷺ كان قد اوحى الله تعالى إليه ان زيدا يطلق زينب ، ويتزوجها النبي ﷺ ، فلما اشتكى زيد للنبي ﷺ خلّق زينب ، وانها لا تطيعه ، واعلن انه يريد طلاقها ، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية : (أتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك) ، وهو يعلم انه سيفارقها ويتزوجها ، وهذا هو الذي اخفى في نفسه ، ولم يرد ان يأمره بالطلاق لما علم انه سيتزوجها ، وخشى رسول الله ﷺ ان يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد ، وهو مولاه وقد أمره بطلاقها ، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من ان يخشى الناس لشيء قد اباحه الله له ، بان قال (امسك) مع علمه بانه يطلق ، واعلمه أن الله احق بالخشية اي في كل حال .

ثم يضيف (القرطبي) قائلاً : (قال علماؤنا رحمة الله عليهم وهذا القول أحسن ما قيل في تاويل هذه الآية ، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين) .

ثم يتابع كلامه هذا قائلاً : « يقول الترمذي في نوادر الوصول (وضمن الإشارة إلى هذا الحديث) بان علي بن الحسين قد جاء بهذا من خزانة العلم جوهرأ من الجواهر ودرأ ثمينأ من الدرر ... (١) » .

د - الآية الاخرى التي تثير السؤال حول النبي ﷺ هي الآية ٦٨ من سورة الانعام : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى

(١) تفسير القرطبي الجزء ٨ الصفحة ٥٢٧٢ ذيل الآيات مورد البحث تفسير القرطبي ح ١٤ الصفحة ١٩٠ طبعة بيروت ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م .

يَخُونُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٦﴾ .

السؤال هو انه لو تمكن الشيطان من النفوذ إلى روح النبي الطاهرة وأنساه الحكم الإلهي بعدم مجالسة اهل الباطل ، فكيف يمكن ان يكون معصوماً من الخطأ؟ وبعبارة اخرى انه يفتقد أحد فرعي « العصمة » هو الصون من السهو والخطأ والنسيان ، الا تخذش الآية اعلاه في عصمة الرسول ﷺ ؟

الجواب :

التأمل في الآية التي تليها يبين بكل وضوح ان الحديث وان كان حسب الظاهر موجهاً إلى النبي ﷺ ، لكن المراد في الواقع هو اصحابه ، وأنهم لو ابتلوا بالنسيان وشاركوا في المجالس الملوثة بالذنوب ، واستهزاء الكفار بالمقدسات يجب عليهم النهوض ومغادرة ذلك المكان فوراً ، لمجرد ان يلتفتوا إلى أنفسهم ، وهذا في الحقيقة من قبيل المثل العربي المعروف : ﴿إِيَّاكَ أَغْنَى وَأَسْمَعِي يَا جَارَةً﴾ .

اذ اننا نقرأ في الآية التي تليها : ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الانعام / ٦٩) .

وكما نلاحظ فالكلام في هذه الآية يخص المتقين ، والمقصود منه عامة المسلمين لا شخص النبي ﷺ ، وهذه الآية تكمل بحث الآية السابقة عليها . نظير هذه الابحاث يشاهد في الكثير من الحوارات اليومية ايضاً وفي آداب مختلف اللغات ، والتي توجه الكلام إلى شخص معين وتقصد شخصاً غيره .

من جملتها ما نشاهده في سورة (الاسراء / ٢٣) وذلك عند التوصية في حق الابوين : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَنْلَغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ .

واضح ان الضمير في « ربك » يعود إلى النبي ﷺ ، في حين ان خطاب « الاتعبدوا » موجه إلى كافة المؤمنين (لوروده بصيغة الجمع) ، ثم انه في جملة ﴿ إِمَّا يَنْلَغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ ﴾ ، وإلى اخر الآية فالضمائر كلها مفردة والمخاطب فيها هو النبي ﷺ مع علمنا بأنه ﷺ كان قد فقد ابويه لسنين طويلة قبل النبوة . وبناءً على هذا فمثل هذه الاوامر حول احترام الابوين التي تخاطب النبي ﷺ إنما هي من قبيل المثل المتقدم : ﴿ إِيَّاكَ أَعْنِي وَأَسْمِعِي يَا جَارَةٌ ﴾ .

وما ذهب اليه جمع من مفسري اهل السنة ، من عدم المانع من كون النبي ﷺ هو المخاطب في الآية مورد البحث ، وجواز مثل هذا النسيان في حقه ، لا يبدو صحيحاً ، حيث انّ مورد آية النسيان هو احكام الله تعالى ، وهل يصح ان ينسى النبي ﷺ الاحكام الالهية ، واي اعتماد واطمئنان بعد ذلك في كلامه عن الوحي الذي هو اساس دعوته والحالة هذه ؟ ! .

هـ - البعض من آيات سورة « الضحى » هي من جملة الايات التي تدعونا ، نحن الذين نعتقد بلزوم عصمة النبي ﷺ منذ ولادته ، للاستفسار ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ - وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ - وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى / ٦ - ٨) .

للمفسرين آراء مختلفة حول تفسير هذه الآية وبيان محتواها : فالقليل

منهم فسر الآية بمعنى الكفر والضلال ، بل حتى أنّ بعض المفسرين الغافلين الذين يجهلون ادلة العصمة قالوا بأنّ نبي الاسلام ﷺ كان على دين قومه (الوثنية) اربعين سنة إلى ان هداه الله .

لكن كل مفسري « الشيعة » وجمهور مفسري « السنة » (كما اعترف بذلك الفخر الرازي) لم يقبلوا مثل هذا التفسير ، بل متفقون بالجملة على ان نبي الاسلام ﷺ لم يكفر طوال عمره ، ولو لحظة واحدة ولم يشرك ابداً .
لهؤلاء المفسرين آراء عديدة حول تفسير الآية وقد بلغ عددها عشرين تفسيراً ، جمعها الفخر الرازي في ذيل الآية مورد البحث ، والذي يلفت النظر ويتسق مع مضمون الآية وسائر آيات القرآن هو التفاسير ادناه :

١ - مع الالتفات إلى الآيتين السابقتين واللاحقة عليها واللتين تشيران الى فترة طفولته ﷺ وشبابه ، اي الاشارة إلى أنّك ايها النبي ﷺ قد وضعت في تلك الفترة (مراراً) وتعرضت حياتك للخطر (تارة حينما جاءت بك امك من الرضاعة « حليلة السعدية » وذلك بعد انقضاء فترة رضاعتك إلى مكة لتسلمك إلى عبد المطلب فضعت في الوادي ، وتارة اخرى بين اودية مكة حين كنت في حماية عبد المطلب ، وثالثة حينما كنت متجهاً مع عمك ابي طالب في قافلة الى الشام ، اذ وضعت في الطريق في ليلة حالكة الظلام ، وانقطع عنك رفاق طريقك) ، فهذاك الله في كل هذه الموارد واعادك إلى احضان جدك وعمك الحنونين .

الدليل على هذا التفسير هو اشارة الآية التي سبقتها إلى مسألة يتم النبي ﷺ ، واللاحقة عليها المشيرة إلى فقره المادي ، « الضلالة » و « الهداية » اللتين توسطتا هاتين الآيتين ، هما تلك الهداية والضلالة المادية والجسمية ، وإلا فثبوت الهداية المعنوية بين هذين الامرين الماديين لا يبدو مناسباً كثيراً (تأمل

جيداً) .

٢ - المراد من الضلالة والهداية هو الاطلاع وعدمه ، على الأسرار النبوية وقوانين الاسلام ومعارف القرآن ، اي أنك لم تكن مطلعاً ابداً على هذه الامور ، بل قذف الله هذا النور في قلبك لتهدي به الناس .

الدليل على هذا الادعاء هو آيات اخرى من القرآن ، من جملتها الآية (٥٢) من سورة الشورى والتي تقول : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ .

بديهي ان النبي ﷺ وقبل بلوغة لمقام النبوة والرسالة كان يفتقر إلى هذا الفيض الالهي ، اي مقام الرسالة والمعارف القرآنية رغم كونه موحداً . فاحذ الله بيده وهداه وبلغ به هذا المقام .

التعبير ﴿ نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ في هذه الآية يبين ان المراد من الهداية هنا هو نفس الهداية إلى الاسلام .

ونقرأ في ثالث آية من سورة يوسف ايضاً : .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ .

مع أن هذا التفسير قد اعطى الهداية والضلالة مفهوماً المعنوي الذي يتفاوت وكما قلنا مع الآية السابقة واللاحقة عليهما ، لكنه يعد قرينة لما ذكرنا مع الاخذ بنظر الاعتبار بان الْقُرْآنَ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضاً ، التفاتاً إلى الآيات الاخرى .

٣ - المراد من « الضال » هنا هو « الضياع بين قومه واهله من الناحية الشخصية » وذلك كما نقرأ في حديث عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام انه قال : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا ﴾ ، أي ضالاً في قوم لا يعرفون فضلك فهداهم إليك^(١) .

ونفسر هذا المعنى جاء بتعبير آخر في تفسير نور الثقلين عن عيون اخبار الرضا عليه السلام ^(١) .

اطلاق لفظة « الضال » و « الضالة » على هذا المعنى شيء طبيعي ، كما جاء في الحديث :
الحكمة ضالة المؤمن ^(٢) .

اذن فهناك تفاسير مقبولة عديدة لهذه الآية لا تتنافى ومقام العصمة .



١٠ - الانبياء السابقون بشكل عام :

هناك تعبير في القرآن الكريم حول عامة الانبياء يثير الاستفسار حول مسألة العصمة ، وذلك حينما يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحج / ٥٢) .

وهنا يمكن ان يطرح هذا السؤال نفسه ، وهو انه كيف يكون الانبياء معصومين في حين ان قلوبهم - طبقاً للآية اعلاه - معرضة للالقاءات الشيطانية ؟ !



اسطورتا الآيات الشيطانية والغرائيق :

ذكروا حول هذا الموضوع قصة عرفت بـ « قصة الغرائيق » ، هذه القصة تقول ان النبي ﷺ كان مشغولاً بقراءة سورة « النجم » امام المشركين ، فوصل

(١) نور الثقلين الجزء ٥ الصفحة ٥٩٦ .

(٢) نهج البلاغة ، الكلمات القصار ، الكلمة ٨٠ .

إلى هذه الآية : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ وفي هذه الاثناء اجرى الشيطان على لسانه هاتين الجملتين : ﴿تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَىٰ وَأَنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتَرْتَجَىٰ﴾^(١) فابتهج المشركون لسماهم هاتين الجملتين ، وقالوا : لم يذكر « محمد » آلهتنا بخير إلى الآن ابداً ، فسجد النبي وسجدوا معه ايضاً في تلك الحال ، بعد ذلك تفرق مشركو قريش فرحين ، فلم يمض وقت حتى نزل جبرائيل واخبر النبي قائلاً : باني لم آتِكَ بهاتين الجملتين ابداً ! ، انه من القاء الشيطان !! ونزل بالآية اعلاه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾ كما حذر النبي والمؤمنين ايضاً من هذا الشيء^(٢) .

مع هذا الحديث تكون عصمة الانبياء حتى في تلقي الوحي ، معرضة للخطر ويزول الاعتماد عليها .



الجواب :

في البداية يجب فصل نص الآية عن الروايات الموضوعية التي حيكت حولها ولنظر ما تقول ، ثم نتعرض لنقد وتحقيق الروايات :
من المحقق ان هذه الآية ويقطع النظر عن الهوامش المصطنعة ، لا تخدش عصمة الانبياء فحسب ، بل تعد من الادلة على عصمتهم ايضاً : اذ يقول : حينما يتمنى الانبياء امنية سالحة (« الامنية » تطلق على كل انواع الامل والرجاء ، لكنها هنا تعني البعد الايجابي البناء لتحقيق اهداف الانبياء ، لانها لو لم تكن ذات

(١) « الغرانيق » جمع « غرنوق » نوع من الطيور المائيد البيضاء او السوداء اللون كما جاءت بمعاني اخرى ايضاً (نقلاً عن قاموس اللغة) .

(٢) ذكر معظم المفسرون هذا الحديث بتفاوت ضئيل وانتقدوه .

بعد ايجابي لما ألقى فيها الشيطان القاءاته) ، كان الشيطان ينقض عليهم ويلقي القاءاته لكن الله كان يبطلها على الفور ، ويحكم آياته قبل ان تترك تلك الوسوس أثرها الشيء على ارادة الانبياء وتصرفاتهم .

(لا يخفى ان « الفاء » في (فينسخ الله) اشارة إلى الترتيب المتصل ، أي أن الله كان ينسخ ويزيل القاءات الشيطان مباشرة) ، الدليل على هذا الكلام هو آيات القرآن الاخرى التي تقول بصراحة : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ (الاسراء / ٧٤) .

نظراً إلى أن الآية (٧٣)^(١) من نفس سورة الاسراء والتي سبقت هذه الآية ، تبين ان الكفار والمشركين كانوا يسعون بوساوسهم إلى حرف النبي ﷺ عن الوحي السماوي ، فيتضح ان الله تعالى لم يدع لهم المجال ابداً ليفلحوا بوساوسهم تلك (تأمل جيداً) .

كما نقرأ في الآية (١١٣) من سورة النساء ايضاً : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

هذه كلها تبين ان الله قد حفظ نبي الاسلام من كل انواع الانحراف ولم يفسح المجال ابداً بمنته وفضله من نفوذ وساوس شياطين الانس والجن اليه . هذا كله فيما لو حملنا « الامنية » على « الغاية » او « الخطّة » او « الشروع » (لان جذور هذه الكلمة الاصيلية تعود إلى « التقدير والتصور والفرض ») .

لكن لو حملنا « الامنية » على التلاوة ، كما احتمله معظم المفسرين ، بل

(١) ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ (الاسراء / ٧٤) .

وحتى استشهدوا ببعض اشعار « حسان بن ثابت » لاثبات هذا المدعى^(١) .
كما ان الفخر الرازي قال في تفسيره : فالحاصل من هذا البحث ان الامنية
اما القراءة واما الخاطر^(٢) .

ففي هذه الصورة سيكون مفهوم الآية هو ان الانبياء الالهيين ، عندما كانوا
يقرؤون آيات الله ومواعظه امام الكفار والمشركين كان الشياطين يلقون
وساوسهم وسمومهم بين ثنايا كلماتهم لإغفال الناس ، بالضبط كما طبقوا هذا
الشيء في حق نبي الاسلام ﷺ ايضاً ، اي كما نقرأ في الآية ٢٦ من سورة
فصلت : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَافِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾
طبقاً لهذا المعنى يتضح مفهوم الآية التي بعدها اي (الحج / ٥٣) ايضاً والتي
تقول : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ ﴾ .

كما ان من المتعارف اليوم ايضاً انه حينما يشرع مصلحو المجتمعات
البشرية ، بالقاء خطبهم البناءة وسط جمهور من الناس يسعى المنحرفون الذين
في قلوبهم مرض ، إلى محو آثار تلك الخطب بالقليل والقال والشعارات الفارغة
والتعابير الشيطانية التافهة .

وهذا في الحقيقة اختبار لافراد المجتمع ، وهنا ينحرف المرضى القاسية
قلوبهم عن طريق الحق ، في حين يزداد ايمان المؤمنين شيئاً فشيئاً بحقانية

(١) الشعر هو هذا :

تمنى كتاب الله اول ليلة
وأخرها لاقى حمام المقادر
جاء تمنى الكتاب بمعنى تلاوة الكتاب في « تاج العروس » القاموس وكذلك في متن « القاموس » ،
ثم ينقل الزهري ان « الامنية » تطلق على التلاوة لكون القارىء كلما انتهى باية رحمة تمنّاها ، وكلما
وصل إلى آية منها ذكر للعذاب تمنى النجاة منه . لكن صاحب « مقاييس اللغة » يعتقد ان اطلاق هذه
اللفظة على التلاوة انما هو لاجل وجود نوع من القياس ووضع كل اية في مكانها .

(٢) تفسير الفخر الرازي الجزء ٢٣ الصفحة ٥١ .

الانبياء ، والتمسك بدعوتهم ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ .

لكن تفسير الآية طبقاً للمعنى الاخير لا يخلو من الاشكال ، لان اللقاءات الشيطانية في نفوس الانبياء ﷺ مهما كانت تنسخ وتزال بالامدادات الالهية على الفور ، لكنها لا يمكنها ان تكون اساساً لاختبار المنافقين والذين في قلوبهم مرض لبداهة عدم تحقق وجود خارجي لهذه الوسوس ، انما هي اللقاءات عابرة في نفوس الانبياء .

الا ان يقال بان المراد هو أنه حينما يريد الانبياء الالهيون تجسيد (امنياتهم وخططهم) وتنفيذها في الخارج ، يشرع الشياطين بتحطيمها والقاء السموم والوسوس عليها ، وهنا تتجسد ساحة الاختبار الساخنة . وطبقاً لهذا البيان فالانسجام والارتباط بين الآيات الثلاث (الحج / ٥٢ و ٥٣ و ٥٤) محفوظ وقائم .

العجيب ان بعض المفسرين ذكروا للآية الاولى احتمالات وتفسيرات مختلفة دون الحفاظ على انسجامها مع الايتين اللتين تليانها (تأمل جيداً) . على أية حال نستنتج من مجموع ما تقدم عدم وجود ماينفي مسألة عصمة الانبياء من الخطأ والانحراف في الآية مورد البحث ، بل هي على العكس من ذلك تؤكد على هذه المسألة لانها تقول ان الله يحفظ انبياءه من اللقاءات الشيطان حين تلقى الوحي أو التصميم على انجاز اعمال اخرى .

والآن يجب ان نلتفت إلى الروايات والاساطير التي ذكرت في هذا القسم ، والتي دفعت ببعض من الشياطين في الاونة الاخيرة إلى تأليف كتاب « الآيات الشيطانية » ، أملاً في ايجاد الفتنة والقاء السموم والشبهات حول سيرة النبي ﷺ ، لنعرف ما قيمة مثل هذه الروايات والاساطير ؟ .

نقد الروايات المرتبطة بأسطورة الغرائق :

كما تقدم القول ان الآيات السابقة لا تحتوي على ما يتنافى وعصمة الانبياء ، بل هي على العكس دليل على عصمتهم ، لكن هناك قضايا عجيبة جداً يمكن مشاهدتها في الروايات المذكورة في بعض مصادر اهل السنة من الدرجة الثانية والتي ينبغي التحقيق فيها على افراد ، هذه الروايات التي ذكرناها في بداية البحث ، منقولة تارة عن ابن عباس واخرى عن سعيد بن جبير وثالثة عن البعض من الصحابة او التابعين ^(١) .

مع ان هذه الروايات لم تشاهد في اي مصدر لاتباع مذهب اهل البيت عليه السلام ، كما انه لا وجود لها ايضاً في كتب الصحاح الستة على حد قول بعض علماء اهل السنة ، حتى ان المراغي يقول في تفسيره : « وقد دس بعض الزنادقة في تفسير هذه الآية احاديث مكذوبة لم ترد في كتاب من كتب السنة الصحيحة ، وأصول الدين تكذبها ، و العقل السليم يرشد الى بطلانها . . . ويجب على كل العلماء طرحها وراءهم ظهرياً ، ولا يضيعوا في تأويلها وتخريجها ، ولا سيما بعد أن نصّ الثقات من المحدثين على وصفها وكذبها » ^(٢) .

كما ونقرأ نفس هذا المعنى بشكل آخر في تفسير «الجواهر» لـ «الطنطاوي» حيث يقول : « هذه الاحاديث لم تذكر في اي واحد من كتب الصحاح الستة مثل موطأ مالك ، صحيح البخاري ، صحيح مسلم ، جامع الترمذي ، سنن ابن داود ، وسنن النسائي ^(٣) .

ولذا لم يذكره كتاب « تيسير الوصول لجامع الاصول » الجامع للروايات

(١) لمزيد من الاطلاع على طرق هذه الروايات عند اهل السنة يمكن الرجوع إلى كتاب الدر المنثور الجزء ٤ الصفحة ٣٦٦ - ٣٦٨ ذيل الايد ٥٢ من سورة الحج .

(٢) تفسير المراغي الجزء ١٧ الصفحة ١٣٠ ذيل الآيات اعلاه .

(٣) يجب الالتفات إلى ان سنن ابن ماجه هي من الصحاح الستة لا موطأ مالك .

التفسيرية للكتب الستة ، وذلك عند تفسيره لآيات سورة النجم . ومن هنا فليس من اللائق الاهتمام بهذا الحديث او حتى التحدث به ، فضلاً عن التعليق عليه أوردة ... هذا الحديث كذب واضح ! » ^(١) .

من الادلة التي يذكرها « الفخر الرازي » على كون هذا الحديث من الموضوعات قوله : وايضاً فقد روى البخاري في صحيحه ان النبي ﷺ قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والانس والجن ، وليس فيه حديث « الغرائيق » ، وروي هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها بتاتاً حديث الغرائيق ^(٢) .

لم يقتصر الامر على المفسرين الذين ذكرناهم فقط ، بل هناك افراد اخرون ايضاً مثل « القرطبي » في تفسير « الجامع » وسيد قطب في « في ظلال القرآن » وغيرهما وعموم كبار مفسري الشيعة ايضاً ، اعتبروا هذه الرواية من الخرافات والموضوعات ونسبوها إلى اعداء الاسلام .

ومع كل هذا فلا عجب ان يضع اعداء الاسلام خصوصاً المستشرقون المعاندون الاموال الطائلة في خدمة هذه الرواية ويتناقلونها بكل جدية ، وقد رأينا في الاونة الاخيرة كيف انهم شجعوا كاتباً شيطانياً لتأليف كتاب تحت عنوان « الآيات الشيطانية » ، حيث انه وبعبارات وضیعة جداً ومن خلال قصة خيالية لم يقتصر على هتك مقدسات الاسلام ووضعها على محك الشك والترديد فحسب ، بل أهان الانبياء العظام الذين تكن لهم الاحترام كل الاديان السماوية ايضاً (مثل ابراهيم على نبينا وآله وعليه السلام) .

وليس عجباً ايضاً ان يترجم النص الانكليزي لهذا الكتاب إلى مختلف

(١) تفسير الجواهر الجزء ٦ الصفحة ٤٦ .

(٢) تفسير الفخر الرازي الجزء ٢٣ الصفحة ٥٠ .

اللغات بسرعة ، ويوزع في كل انحاء العالم ، وحينما اصدر الامام الخميني رحمته الله فتواه التاريخية بارتداد كاتب هذا الكتاب اي « سلمان رشدي » ولزوم قتله ، بادرت الدول الاستعمارية واعداء الاسلام إلى حمايته بشكل منقطع النظير . هذه الحركة العجيبة اثبتت ان هناك من يقف وراء سلمان رشدي وان المسألة هي اكبر من مجرد تأليف كتاب معاد للاسلام ، وانها في الواقع خطة مدروسة من قبل الغرب المستعمر والصهيونية لضرب الاسلام من خلال وقوفهم معه بكل حزم .

لكن الصمود القوي للامام الخميني رحمته الله في فتواه ، واستمرار نهجه من قبل نوابه ، وما نالته تلك الفتوى من القبول والترحاب من قبل غالبية الشعوب المسلمة في العالم خيب آمال المفتعلين ، بل لا زال مؤلف هذا الكتاب وإلى لحظة تدويننا لهذا البحث يعيش في محل مجهول بالكامل ، تحت رقابة مشددة من قبل الدول الاستعمارية ، ويبدو انه مضطر للعيش هكذا إلى اخر لحظات حياته ان لم يقتل على ايدي نفس تلك الدول ، فيما لو ارادت غسل ذلك العار الذي لحق بها نتيجة دفاعها عنه .

وبناءً على هذا فالدافع لـ « وضع » هذه الرواية المزعومة سيكون هو السبب في بقائها ايضاً ، وبعبارة اخرى هناك محاولة من قبل اعداء الاسلام كانت قد بدأت في السابق ، ثم واصلت مسيرها بعد الف سنة او اكثر مدعومة من قبل طائفة اخرى وبشكل اكثر كثافة .

ومن هنا فلا حاجة لنقل التبريرات التي اثيرت بشأن هذا الحديث كالتي وردت في تفسير « روح المعاني » بشكل موسع ، او في تفاسير اخرى بشكل مركز . اذ ان الحديث الذي يكون اساسه خاوياً والذي اكد كبار علماء الاسلام على كونه من الموضوعات لا يستحق التوجيه والتفسير .

لكن هناك بعض الملاحظات ينبغي ذكرها لتوضيح المطلوب ليس الا :

١ - الصراع المرير لنبي الاسلام ﷺ ورفض المساومة مع الاوثان والوثنية عند فجر الدعوة وإلى آخر عمره ، ليس بالشيء الخفي على احد من الاعداء الأصدقاء ، وأهم شيء لم يساوم فيه ابداً او يتصالح او ينحرف هو نفس هذا المطلوب ، فكيف يمكن والحالة هذه ان يمدح اصنام المشركين بهذه الاوصاف ويذكرها بخير ؟

تؤكد التعاليم الاسلامية ان الذنب الوحيد الذي لم يغفر ابداً هو الشرك وعبادة الاوثان ، ولذا اعتبر مسألة ضرب اماكن عبادة الاصنام واجبة على كل مكلف مهما كلف الثمن ، كما ان القرآن من الفه إلى يائه شاهد على ذلك ويشكل بنفسه قرينة واضحة على وضع حديث الغرائق الذي ذكر فيه تمجيد ومدح الاوثان والوثنية .

٢ - فضلاً عن ان الذين حاكوا اسطورة الغرائق لم يلتفتوا إلى هذا الموضوع وهو ان مروراً بسيطاً على آيات سورة النجم يبطل هذه الخرافة ، ويثبت عدم وجود الانسجام بين مدح وتمجيد الاوثان وجملة « تلك الغرائق العلى ، ان شفاعتهن لترتجى » وبين الآيات التي تحف بها ، اذ قد صرح في بداية نفس هذه السورة بان النبي ﷺ لم ينطق عن هوى النفس ابداً وان كل ما يقوله بالنسبة لعقائد وقوانين الاسلام انما هو من الوحي الالهي ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * اِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم / ٣ ، ٤) ، وتصرح الايات بأن النبي ﷺ لم ينحرف ابداً عن طريق الحق ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ .

واي ضلال وانحراف أعظم من ياتي بحديث عن الشك وثناء الاصنام من بين آيات التوحيد ؟ واي منطق اسوء من ان يضيف كلام الشيطان (تلك الغرائق العلى) الى كلام الله تبعاً للهوى .

والمثير هنا ان الايات الثانية تدم الاصنام والمشركين وتقول ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا
أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ (النجم / ٢٣) .

اي عاقل يصدق ان شخصاً رزيناً حكيماً وفي مقام النبوة وابلاغ الوحي ،
يمدح الاصنام في الجملة السابقة ويذمها بشدة وعنف في جملتين بعدها ؟ !
كيف يمكن توجيه هذا التناقض الصارخ بين الجملتين تباعاً ؟

ومن هنا يجب الاعتراف بان الانسجام القائم بين آيات القران هو بشكل
يرفض كل شائبة تضاف اليها من قبل المعاندين والمغرضين ، يثبت كونها قطعة
غريبة وازافة غير متجانسة وانها ليست في محلها ، هذا هو المصير الذي ابتلي
به حديث الغرائق بين طيات آيات سورة النجم .

وهنا يبقى سؤال واحد ، وهو البحث عن السر وراء كل هذه الشهرة ، التي
لاقاها موضوع تافه لا اساس له كهذا ؟ .

جواب هذا السؤال ليس بتلك الصعوبة ايضاً . اذ ان الفضل في شهرة هذا
الحديث يعود بالدرجة الاولى إلى مساعي الاعداء والمرضى ، الذين يظنون
انهم قد عثروا على وسيلة جديدة للطعن في مقام عصمة نبي الاسلام واصالة
القرآن . وبناءً على هذا التحليل يتضح شهرته بين الاعداء وهو مما لا يخفى ، اما
شهرته بين المؤرخين الاسلاميين المسلمين فعلى حد قول بعض علماء
الاسلام ، ناتج من كون هؤلاء المؤرخين يبحثون عن كل ما هو مثير وغريب
وفريد من نوعه وان كان يفتقر إلى الاصلة التاريخية لادراجه بين طيات كتبهم ،
ليزيدوا من جذابيتها قدر المستطاع ، ونظراً لكون قصة كاسطورة الغرائق حادثة
غريبة تنسب إلى حياة نبي الاسلام ﷺ فلم تخل منها كتبهم التاريخية ، بل
وحتى الروائية منها بغض النظر عن ضعف اسانيدھا وتفاهة محتواھا . كما أن

البعض ايضاً قد ذكرها للنقد والتحليل .

ثمرة البحث :

يتّضح من مجموع ما مرّ اعلاه ان آيات القرآن تشكل دليلاً واضحاً يؤكد على عصمة الانبياء ، فضلاً عن خلوها مما يتنافى وذلك المقام .

اقوال و آراء

حول

عصمة الانبياء عليهم السلام

اقوال وآراء حول عصمة الانبياء ﷺ

مسألة مصونية الانبياء من الذنب والخطأ مورد قبول كل المسلمين على الاجمال ، بل وحتى اصحاب الملل والشرائع ، لكن هناك اختلافات كثيرة وآراء وأقوالاً متنوعة فيما يتعلق بخصوصياتها ، قد تناولتها كتب العقائد والتفسير ، والحديث بالشرح والتفصيل .

المرحوم العلامة الحلبي في « نهج الحق وكشف الصدق »^(١) وكذلك هو وسائر شراح « تجريد العقائد » في شرح كلام الخواجة الطوسي « ويجب في النبي العصمة » ، بالاضافة إلى « ابن ابي الحديد » في شرح نهج البلاغة^(٢) ، قد تناولوا كلهم هذه الاقوال بشكل مطوّل ، لكن المرحوم « العلامة المجلسي » قام بشرح وترتيب هذا البحث بشكل أفضل من غيره ، وهو ما سنذكر خلاصته ادناه على امل الاحاطة باقوال المسألة ، (مع ذكرنا من الاضافات بين قوسين تتخللها ثانيا كلام هذا المحقق العظيم) .

يقول في بحث عصمة الانبياء :

اعلم ان الاختلاف الواقع في هذا الباب بين علماء الفريقين يرجع إلى

(١) دلائل الصدوق الجزء ١ الصفحة ٣٦٨ .

(٢) شرح نهج البلاغة الجزء ٧ الصفحة ٧ - ٢٠ .

اقسام اربعة : احدها ، ما يقع في باب العقائد . وثانيها ، ما يقع في التبليغ .
وثالثها ، ما يقع في الاحكام والفتيا .

ورابعها ، في افعالهم وسيرهم عليهم السلام . وأما الكفر والضلال في الاعتقاد ، فقد
اجمعت الامة على عصمتهم عنهما قبل النبوة وبعدها ، غير ان الازارقة من
الخوارج جوزوا عليهم الذنب .

وكل ذنب عندهم كفر ، فلزمهم تجويز الكفر عليهم ، بل يحكى عنهم انهم
قالوا : يجوز ان يبعث الله نبياً علم انه يكفر بعد نبوته ! (لكن ضعف هذا الكلام هو
بدرجة لا يمكن اعتباره ضمن اقوال العلماء المتقدمين ، وكذلك تعبير بعض
مفسري اهل السنة في ذيل الآية ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهْدَى ﴾ (الضحى / ٧)
وذيل الآية ﴿ مَا كُنْتُ تَذْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ (الشورى / ٥٢) وذيل
الآية ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾ (الضحى / ٧) والآية ﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴾ (البقرة / ١٣١) ، يبين ان البعض منهم يقول بجواز مسألة الكفر
والشرك قبل النبوة ، لكن - وكما قلنا - لا يمكن اعتبار هذا الكلام من اقوال
علماء الاسلام) .

واما النوع الثاني وهو ما يتعلق بالتبليغ فقد اتفقت الامة ، بل جميع ارباب
الملل والشرائع على وجوب عصمتهم عن الكذب والتحريف ، فيما يتعلق
بالتبليغ عمداً او سهواً الا « القاضي ابو بكر الباقلاني » ، فانه جوز ما كان من ذلك
على سبيل النسيان وقلات اللسان ، (هذا القول نادر بدرجة بحيث لا يعتبر شيئاً
في مقابل القول بالاجماع) .

أما النوع الثالث وهو ما يتعلق بالفتيا فاجمعوا على انه لا يجوز خطأهم
فيها عمداً وسهواً ، الا شرذمة قليلة من العامة (التي خرقت هذا الاجماع ، والتي

لا يعتد بها ايضاً) (ينقل ابن ابي الحديد هنا عن الكرامية والحشوية ^(١) بانهم لم يقتصروا على القول بجواز الخطأ فقط في هذا القسم ، بل استدلوا باسطورة الفرانيق المجعلولة لاثبات هذا المقصود بالنسبة للنبي الاكرم ﷺ « والعياذ بالله » .

واما النوع الرابع وهو افعالهم ، فقد اختلفوا فيها على خمسة اقوال :

١ - مذهب أصحابنا الامامية وهو انه لا يصدر عنهم الذنب لا صغيرة ولا كبيرة ولا عمداً ولا نسياناً ولا لخطأ في التأويل ولا للاسهاء من الله سبحانه ، ولم يخالف فيه (وفي مورد واحد فقط) الا الشيخ الصدوق وشيخه محمد بن الحسن بن الوليد فانهما جوزا الاسهاء لا السهو ، الذي يكون من الشيطان وكذا القول في الائمة الطاهرين ﷺ .

٢ - انه لا يجوز عليهم الكبائر ، ويجوز عليهم الصغائر الا الصغائر الخسيصة المنقّرة ، كسرقة حبه او لقمته ، وكل ما ينسب فاعله إلى الدناءة والضعفة ، وهذا قول اكثر المعتزلة ^(٢) .

٣ - انه لا يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا كبيرة على جهة العمد ، لكن يجوز على جهة التأويل او السهو ، وهو قول « ابي علي الجبائي » احد متكلمي المعتزلة ومن اقطابهم ^(٣) .

٤ - انه لا يقع منهم الذنب الا على جهة السهو والخطأ ، لكنهم مأخوذون

(١) « الكرامية » هم اتباع محمد بن كرام الذي ظهر في القرن الثالث وقال بالتجسيم ، و « الحشوية » (بفتح الشين او سكونها) طائفة من المعتزلة الذين ذهبوا وراء ظواهر القرآن وقالوا بالتجسيم ، وقال البعض بان هذه الفرقة الضالة شاركت اولاً في درس الحسن البصري ، وحينما سمع الحسن منهم كلاماً يخالف الاسلام أمر باخراجهم .

(٢) « المعتزلة » اتباع « واصل بن عطاء » الذي هو من تلاميذ الحسن البصري ثم اعلن عن مخالفته اياه واعتزله ، ولذا عرف اصحابه بالمعتزلة ولهم مؤيدون كثيرون بين اهل السنة .

(٣) « جباً » كان اسماً لاحدى مناطق خوزستان .

بما يقع منهم سهواً ، وان كان موضوعاً عن أممهم ، لقوة معرفتهم وعلو رتبتهن وكثرة دلائلهن ، وانهم يقدرون من التحفظ على ما لا يقدر عليه غيرهم .. وهو قول النظام^(١) (الذي هو من علماء المعتزلة المعروفين في عهد بني العباس) وجعفر بن مبشر ومن تبعهما .

٥ - انه يجوز عليهم الكبائر والصغائر عمداً وسهواً وخطأً ، وهو قول « الحشوية » (الاخباريين من اهل السنة ، لكن لا يعلم في الوقت الحاضر احد منهم مؤيد لهذا المذهب) وكثير من اصحاب الحديث من العامة .

ثم يضيف المرحوم « العلامة المجلسي » قائلاً :

ثم اختلفوا في وقت العصمة على ثلاثة اقوال .

الأول : انهم معصومون منذ ولادتهم إلى ان يلقوا الله سبحانه ، وهو مذهب أصحابنا الامامية .

الثاني : ان عصمتهم من حين بلوغهم ، ولا يجوز عليهم الكفر والكبيرة قبل النبوة ، وهو مذهب كثير من المعتزلة .

الثالث : انه من وقت « النبوة » ، واما قبله فيجوز صدور المعصية عنهم ، وهو قول اكثر « الاشاعرة » ومنهم الفخر الرازي ، وبه قال « ابو هذيل » « وابو علي الجبائي » من المعتزلة^(٢) .

الملفت للنظر ان المصدر الرئيس لهذه الاقوال المتناثرة يعود بالدرجة الاولى إلى عاملين كما يبدو :

١ - جمود البعض على ظواهر آيات القرآن التي يشم منها للوهلة الاولى

(١) اسمه « ابراهيم بن سيار » ولقب بـ « النظام » لانه كان يمتن حرفة ترتيب الاختام وبيعها في سوق البصرة ، او لانه كان يتحدث بشكل منظم .

(٢) بحار الانوار الجزء ١١ الصفحة ٨٩ - ٩١ .

غياب العصمة في بعض امورهم ، في حين ان التدقيق في هذه الآيات ، وتفسيرها على ضوء آيات القرآن الاخرى ينفي هذا التوهم بالمرة ، ولكن نظراً لان اهل الظاهر والجمود لم يكلفوا انفسهم عناء التحقيق والتدقيق فقد ابتلوا بمثل هذه العقائد .

٢ - ذهاب افراد الفريق الذي اعتبر الادلة العقلية دخيلة في هذه المسألة ، وفسر آيات القرآن افضل من صاحبه ، كل وراء احد الاقوال المتقدمة اعلاه ، نظراً لتوهمهم بان الهدف من البعثة انما يتحقق بالعصمة بعد النبوة ، او العصمة في خصوص نطاق دائرة التبليغ ، او من الذنوب الكبيرة .

لكن الحق هو ان الانبياء معصومون بشكل عام من الذنوب العمدية وغيرها ، كبيرة كانت ام صغيرة ، قبل « البلوغ » و « النبوة » ام بعدها ، وكذلك من الخطأ سواء أكان في العقيدة ، أو تبليغ النبوة واداء الرسالة ، أو بيان الاحكام أو غيرها .

هذه هي عقيدة علماء الشيعة ، عقيدة اصحابنا في تنزيه الانبياء والائمة ﷺ من كل ذنب ودناءة ومنقصة قبل النبوة وبعدها ، ودليلهم على ذلك روايات ائمة الهدى الثابتة قطعاً عن طريق اجماع الاصحاب ، والروايات المتظافرة ، حتى صار ذلك من قبيل الضروريات في مذهب الامامية « (انتهى كلام العلامة المجلسي) ^(١) .

ومع هذا فمن العجب ما ينسبه بعض اعداء الشيعة اليهم بما يتنفرون منه في كلماتهم ، كقولهم مثلاً بان الشيعة يجوزون تظاهر الانبياء بالكفر تقية خوفاً على حياتهم ! ثم انهم انهالوا على هذه العقيدة بكل عنف ! ^(٢) .

(١) بحار الانوار الجزء ١١ الصفحة ٩١ .

(٢) الشيخ روز بهان في كتاب ابطال الباطل (طبقاً لما نقله دلائل الصدوق الجزء ١ الصفحة ٣٦٩) .

في حين انه لم يتفوه ايّ من علماء الشيعة بادنئ شيء حول هذا الموضوع ، وكم كان حسناً لو ان هذا القائل ذكر ولو اسم شخص واحد ، او كتاب واحد على اقل تقدير بحيث تنعكس فيه مثل هذه العقيدة . وعلى حد قول المرحوم « العلامة المظفر » ان هذا الكلام كذب جلي ، وربما يكون السبب وراء هذه النسبة هو جعل عقيدة الشيعة في التقية محوراً لا ستنباطهم الخاطئي ، فمع ان اظهار الكفر بل وحتى ما دونه غير جائز للانبياء ابدأ ، مهما تعرضت حياتهم المقدسة للخطر في هذا الطريق ، وغدت قرباناً للدين والعقيدة .

لكن التقية العملية ، كالتى ظهرت من نبي الاسلام ﷺ في مسألة الهجرة ، حين خروجه من مكة سرّاً حتى وصل المدينة فلا محذور فيها ، ولا ربط لهذا بما قالوه .

الادلة العقلية على عصمة الانبياء ﷺ :

ذكر اقطاب علماء العقائد ادلة كثيرة على لزوم عصمة الانبياء عن طريق العقل ، والتي يمكن دمج البعض منها في البعض الاخر ، واستبدال الضعيفة منها بالقوية ، بحيث ينتج من مجموعها ، أدلة اربعة تستحق القبول والذكر :

١ - العوامل الداخلية - النفسية - :

بتحليل متواضع يمكن القول بحكومة العوامل المانعة عن الذنب على العوامل الدافعة إليه في نفوس الانبياء .

بيان ذلك : للذنوب الصادرة من الانسان عوامل ومنابع شتى لكنها تعود

بالدرجة الاولى إلى اثنين :

١ - الجهل وعدم تشخيص سوء عاقبة الامر .

٢ - استفحال الشهوات والاهواء بشكل ، بحيث يستسلم لها العلم والعقل

مع قدرتهما على ادراك الآثار السيئة للذنوب .

فالشخص الذي يلوث يديه بدماء ضحية بريئة مثلاً ، او ينحو نحو السرقة والسقوط والرشوة ، او يبتلى بالقمار والخمور والمواد المخدرة ، لا يخرج عن أحد حالين : إما أنه لا يعلم بمفاسد هذه الامور بشكل تام ، او انه عالم بها الا أنه لا يستطيع الصمود امام ثورة الشهوات والاهواء وعنفوانهما .

وبناءً على هذا فالعلم والاطلاع لوحدهما غير كافيين للردع عما هو غير مرغوب فيه ، بل لابد إلى جانب ذلك التسلط على النفس والاهواء .
الثمره التي يمكن ان نجنيها من هذا البحث هي ان الانسان لو كان له اطلاع كاف بقباحة عمل ما ، وتسلط كامل على نفسه وميوله ، فيستحيل صدور هذا العمل منه (المراد هنا بطبيعة الحال هو المحال العادي لا العقلي كاجتماع الضدين) (تأمل جيداً) .

ويمكن بيان هذه الحقيقة ببعض الامثلة ، وهي ان الكثير منا يمتلك حالة شبيهة بالعصمة في قبال البعض من الذنوب ، (امام البعض منها فقط) مثلاً لانجد بيننا من يوافق على الخروج إلى الازقة عارياً في وضح النهار ، ولو صادف ان قام احداً بمثل هذا العمل لعلمنا يقيناً بزوال عقله ورشده ، والا فيستحيل الاقدام على هذا الشيء مع كمال العقل واليقظة .

شرب مياه المجاري القذره والملوثة حرام قطعاً ، فهل ياترى يوجد بيننا عاقل يُقدم على عمل كهذا ؟ .

الطبيب الماهر المتبحر في اسرار علم الطب وخطورة انواع الامراض المعدية ، لا يوافق ابداً على شرب غسالة ملابس المرضى المبتلين بالامراض والابوثة المعدية .

وبهذا يمكن القول باختصار : بان لنا حصانة ومناعة امام مثل هذه الاعمال القبيحة ، وذلك لوقوفنا عن كذب على مفاسدها ، بل ان قوة عقولنا ومعارفنا

وايماننا ستحطم تلك الميول والرغبات ، لو حاولت في يوم ما ايقاعنا في مخالف مثل هذه الأمور . اذن فلو وجد هناك من له اطلاع كاطلاعنا على قبح الذنوب والمعاصي ، فمن المسلم انه سيتجنبها بجدية .

وبعبارة اخرى ، إنّ الدوافع نحو المعصية - أعم من الجهل او غلبة الشهوات والاهواء - قد انتهت وتلاشت في وجود الانبياء والائمة المعصومين في ظل علمهم ومعرفتهم وتقواهم .

ولا يخفى ان الأنبياء - وبفضل ارتباطهم بعالم الغيب وبحر علم الباري اللامتناهي - لهم احاطة كافية بحجم مفسد الذنوب ، وقبح مثل هذه الاعمال وفلسفة النهي عنها ، ومن جهة اخرى فنفس هذا الارتباط الذي يكون على مستوى الشهود ومشاهدة عالم الغيب ، يخلق فيهم حالة من التقوى بحيث تعد رادعاً قوياً امام دوافع تلك الاهواء والميول .

خلاصة القول هي ان الوقوف على دوافع المعصية من جهة ، وعلى مستوى معرفة وتقوى الانبياء الناتج من ارتباطهم بعالم الغيب من جهة اخرى ، يدعونا للتصديق بحصانتهم وابتعادهم عن كل انواع المعصية .

ورد في رواية عن امير المؤمنين عليه السلام الاشارة باختصار ، مع دلالة تامة الى الملاحظة الاولى ، حيث يقول : قُرِنَتِ الْحِكْمَةُ بِالْعِصْمَةِ ^(١) .

مع ان العصمة هنا قد جاءت بمعناها العام ، اي كل انواع الحصانة من المعصية وفي كل مراحلها ، لكنها على اية حال تعد شاهداً على مرادنا .

وجاء في حديث اخر عن الامام الصادق عليه السلام انه قال « أَلْمَعْصُومُ هُوَ الْمُتَنَبِّعُ بِاللَّهِ مِنْ جَمِيعِ الْمَحَارِمِ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ

فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ» (١).

يمكن ان يكون هذا الحديث اشارة إلى الملاحظة الثانية او كليهما ، كما ورد نفس هذا المعنى في حديث هشام بن الحكم بشكل اوفى ، فعن ابن ابي عمير - الذي يعد من كبار اصحاب الامام الصادق عليه السلام - انه قال : « ما سمعت ولا استفدت من هشام بن الحكم في طول صحبتي اياه شيئاً احسن من هذا الكلام في صفة عصمة الامام ، فاني سألته يوماً عن الامام أهو معصوم ؟ قال نعم ، قلت له : فما صفة العصمة فيه ؟ وبأي شيء تُعرف ؟ قال : ان جميع الذنوب لها اربعة اوجه لا خامس لها : الحرص والحسد والغضب والشهوة ، فهذه منتفية عنه . ثم اضاف قائلاً ،

لا يجوز ان يكون حريصاً على هذه الدنيا وهي تحت خاتمه ، لانه خازن المسلمين فعلى ماذا يحرص ؟ .

ولا يجوز ان يكون حسوداً لان الانسان انما يحسد من هو فوقه وليس فوقه احد ، فكيف يحسد من هو دونه .

ولا يجوز ان يغضب لشيء من امور الدنيا ، الا ان يكون غضبه لله عز وجل ...

ولا يجوز ان يتبع الشهوات ويؤثر الدنيا على الآخرة ، لان الله عز وجل حبيب اليه الآخرة ، كما حبب اليها الدنيا فهو ينظر إلى الآخرة كما ننظر إلى الدنيا ، فهل رأيت احداً ترك وجهاً حسناً لوجه قبيح ؟ وطعاماً طيباً لطعام مر ؟ وثوباً ليناً لثوب خشن ؟ ! ونعمة دائمة باقية لدنيا زائلة فانية ؟ » (٢) .

مع ان « هشام بن الحكم » لم ينسب هذا الحوار إلى ائمة اهل البيت عليه السلام

(١) بحار الانوار الجزء ٥ الصفحة ١٩٤ الحديث السادس . والآية من آل عمران ١٠١ .

(٢) بحار الانوار الجزء ٢٥ الصفحة ١٩٢ الحديث الأول .

مباشرة ، لكن نظراً لكونه من ألمع تلاميذ الامام الصادق عليه السلام ، وتصريحه قائلاً :
كل ما عندي فهو من الامام الصادق عليه السلام ، فيبدو انه قد استلهم تحليله اللطيف
والمنطقي هذا ، والذي يمكن ان يكون أحد الادلة العقلية على مسألة عصمة
الانبياء والائمة ، من إمامه الامام الصادق عليه السلام .

* * *

٢ - دليل الاعتماد :

واضح ان الهدف من بعثة الانبياء هو هداية البشرية في ظل التعاليم
الالهية ، هذا الهدف الذي يمكن ضمانه حيث لا يبقى هناك ادنى مجال للشك
والترديد ، يساور الناس فيما يتعلق باقوالهم وافعالهم ، بشكل بحيث يعتبرون
كلامهم كلام الله ، وتعاليمهم تعاليم الهية ، حتى يتقبلوها قلباً وقالباً ويسلموا لها
تسليماً ويعتمدوا عليها .

بديهي ان احتمال الكذب ، وتحريف الحقائق والخطأ والاشتباه سيجد
طريقه إلى كلماتهم ان لم يكونوا معصومين عن « الذنب » و « المعصية » ، وبالتالي
لن يعتمد عليهم حتى لو كانوا اناساً طيبين ، لان انتفاء مقام العصمة يستلزم
احتمال انبهارهم في يوم ما بالمظاهر المادية الخلافة ، أو أن يرتكبوا الخطأ
والاشتباه من حيث لا يشعرون وبلا سبب يذكر .

هذا الاحتمال يبعث على التشويش الفكري لاتباعهم على الدوام ، كما انه
سيكون اساساً للشك والترديد ، فضلاً عن بقاء مسألة « اتمام الحجة » ناقصة
ايضاً ، نظراً لوجود ذريعة بيد المخالفين على الدوام مفادها ان سبب عدم
اتباعهم لتعاليم النبي يكمن في احتمال الخطأ والاشتباه .

خلاصة القول ان رأس المال الحقيقي للنبوّة هو كسب ثقة طلاب الحقيقة ،

ويستحيل هذا المعنى بغياب مقام العصمة والصون من الذنب والخطأ .
ويمكن القول بان الناس عموماً انما يتبعون العلماء الاتقياء ، ويأخذون
منهم احكام دينهم ويثقون بهم ، مع علمهم بعدم عصمتهم من الذنب والخطأ .
لكن ينبغي الالتفات إلى أن أصل الدين يختلف عن فروعه وجزئياته ،
يمكن إرساء أصل الدين واساسه على الشك أو الظن ، ولا يمكن قبول الوحي
الالهي مقروناً بالاحتمال والشك والترديد ، في حين ان احتمال الخطأ والاشتباه
في الفروع والجزئيات لا يؤثر في اساس العقيدة . اذن فلا بد من القول هناك
بالعصمة والاكتفاء بالعدالة هنا ، وذلك لا مكان غض الطرف عن احتمال الخطأ
في هذه الجهة ، دون الخطأ والاشتباه في الوحي وابلاغ الرسالة ، حيث لا يمكن
الاغماض والتسامح في هذا المورد ، كما يثار هنا سؤال آخر ايضاً وهو ان آخر
شيء يمكن ان يستفاد من هذا الدليل هو صونهم من الخطأ والكذب والتحريف
في تبليغ الرسالة ، لكن هذا الدليل قاصر عن السريان إلى كافة الذنوب
والمعاصي .

لكن الانصاف هو اشتراك معظم الذنوب باسس مشتركة ، فالكذب
والاِتهام والسرقة والابتلاء بالخمير والقمار والسقوط الاخلاقي ، نابعة من هوى
النفس واتباع الشهوة او حب الدنيا . فكيف يمكن الا يكذب ابدأ من يبتلى بانواع
المعاصي ؟

وعلى فرض وجود مثل هذا الشخص ولو نادراً ، فانه لن يفلح مع ذلك في
كسب ثقة الناس ، اذ سيقولون كيف يمكن الاعتماد على كلام الشخص الفلاني
الخائن والظالم والمنحرف ؟ لان التفكيك في هذه المسائل وعلى فرض امكانه
في الواقع مرفوض عند عامة الناس (تأمل جيداً) .

كيف يمكن لشخص يخطيء في امور الحياة اليومية ان يكون مورد اعتماد

في ابلاغ الوحي الالهي ؟ وسيقول الناس حتماً بانه ربّما ابتلي عند ابلاغ الوحي بنفس تلك الاشتباهات التي يقع بها في حياته الشخصية .

خلاصة القول ان مسألة التفكيك في الاخطاء والذنوب مرفوضة عند السواد الاعظم من الناس ، وان من يرتكب ذنباً او خطأ لا يمكن ان يكون مورد اعتماد في تبليغ الوحي (تأمل جيداً) .

٣ - نقض الغرض وبقاء اهداف البعثة عقيمة :

من المسلم ان الشخص العاقل الحكيم لا يقدم ابداً على عمل يعاكس هدفه ، والا لانتفت الحكمة عنه ، هذا من جهة .

ومن جهة اخرى فنحن نعلم ان الله عز وجل قد ارسل انبياءه لهداية العباد وتربيتهم ، فلو لم يكونوا معصومين عن الذنب والمعصية لأضلّوا الناس بدل هدايتهم ، وهذا هو الجانب المقابل للهدف من بعثة الانبياء بالضبط .

بالاضافة إلى ان الدور الرئيسي في تربية الناس ، انما يعود للبرامج العملية للانبياء ، لان كيفية تصرف المرّبين وصفاتهم وحالاتهم تعدّ النموذج الامثل لمن يتبعهم ويتولاهم . إنّ الادلة العقلية والخطب الحماسية والبيان الجيّد مهما كان لها دور مهم في توعية الناس ، الاّ أنها لا تُعد شيئاً امام النماذج العملية ، خصوصاً لو ظهر هناك تضاد بين القول والفعل ، وبين النظرية والتطبيق ، فان حالة من الشلل ستسري إلى تلك البيانات والنداءات وتقعدها عن وظيفتها !

ومن هنا ينبغي ان يكون الانبياء ﷺ قدوة حسنة للناس في كافة ابعاد

الحياة ، وان تنعكس دروسهم الدينية للناس من خلال تصرفاتهم .

لو كانوا افراداً مثقلين بالذنوب ، مبتلين بالكذب والخيانة والظلم واليهوى

لفقدوا اعتبارهم كلياً ، ولبقي الهدف من بعثتهم عقيماً .

كيف يعقل ان يضع الله المنصب الخطير الذي يعد اسمى منصب ديني ومعنوي واجتماعي ، في عهدة شخص قد احاطت به الذنوب ووقع في اسر الهوى والشهوات ، ولم يسيطر على نفسه ؟ هل يمكن لشخص كهذا ان يكون قائداً ربانياً ومعنوياً للناس يا ترى ؟ !

هنا يجب الاذعان بان هذا الهدف الحساس لا يمكن ضمان اجرائه ، إلا في حالة تنزيههم عن كل انواع الذنوب صغيرها وكبيرها ، بل مطلق الخطأ والاشتباه .

ولذا نقرأ في حديث عن الامام علي بن موسى الرضا ﷺ انه قال في وصف الامام ﷺ : « هُوَ مَعْصُومٌ مُؤَيَّدٌ مُوَفَّقٌ مُسَدَّدٌ قَدْ آمَنَ الْخَطَايَا وَ الزَّلَل وَالْعِثَارَ يَخُصُّهُ اللَّهُ بِذَلِكَ لِيَكُونَ حُجَّتَهُ عَلَى عِبَادِهِ وَشَاهِدُهُ عَلَى خَلْقِهِ » (١) .

٤ - الاغراء بالجهل والتشجيع على الخطأ :

بديهي ان الله تعالى ولغرض هداية عباده لا يقدم على ادنى شيء يتسبب في انحرافهم نحو الباطل او طرق الضلال لان صدور عمل كهذا من أي كان فهو قبيح فكيف بذاته تعالى ؟

لو وضع الله اسرار النبوة - الاعم من الاعجاز والادلة العلمية - تحت اختيار غير المعصوم ، أي في خدمة من يحتمل كذبه وخطأه وارتكابه للمعاصي ، فقد أوقع عباده في الضلال ، وهذا بالضبط يشبه قيام شخص معروف بانتخاب شخص مخادع منحرف وكيلاً عنه ، أليس هذا العمل قبيحاً ؟ .

(١) الكافي الجزء ١ الصفحة ٢٠٣ باب النادر الجامع في فضل الامام وصفاته ، الحديث الأول .

كيف نحتمل صدور مثل هذا العمل من الله تعالى ، فيضع المعجزات واسرار النبوة بيد الشخص المذنب الكذاب المنحرف العاصي ؟ ! .

يصرح القرآن بكل جلاء بهذا الموضوع قائلاً : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ (الحاقة / ٤٤ - ٤٥) فلا أحد منكم يقدر على منعنا من ، ذلك أو الدفاع عنه .

هذه الايات تؤكد على نفس الحقيقة التي تمت الاشارة اليها أعلاه ، وهي أن من يمتلك الآيات الالهية والمجهز بسلاح الاعجاز المقتدر ، وقد أمضى الله تعالى كلامه ، لو انحرف حتى للحظة واحدة عن المسير الالهي ، فلن يمهل الله تعالى ، بل سيضربه في اخطر نقطة من بدنه اي شريان قلبه ويقضي عليه ، والا لكان الله هو السبب وراء اضلال الناس واغرائهم بالجهل . وهذا بنفسه يعد دليلاً صارخاً على مسألة العصمة .

مع ان مسألة الخطأ خارجة عن اختيار الانسان فلا يمكن معاقبة احد على الاخطاء التي يستحيل اجتنابها ، ولكن بما أن اشتباه النبي وخطأه يترك نفس الاثر الذي يتركه افتراؤه على الله ، اي يكون السبب وراء اضلال خلق الله ، اذن يمكن الاستفادة من مضمون هذه الآية ان النبي مصون من مثل هذا الخطأ ايضاً . وبهذه المناسبة نقرأ في حديث عن علي بن موسى الرضا عليه السلام انه قال للمأمون : « مِنْ دِينِ الْإِمَامِيَّةِ ، لَا يَفْرُضُ اللَّهُ طَاعَةَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يُضِلُّهُمْ وَيُغْوِيهِمْ ، وَلَا يَخْتَارُ لِرِسَالَتِهِ وَلَا يَصْطَفِي مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَكْفُرُ بِهِ وَبِعِبَادَتِهِ ، وَيَعْبُدُ الشَّيْطَانَ دُونَهُ » ^(١) .

ونقرأ في حديث آخر عن الامام علي عليه السلام انه قال :
«إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَمَرَ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ لِأَنَّهُ مُعْصُومٌ مُطَهَّرٌ لَا يَأْمُرُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ وَإِنَّمَا

أَمَرَ بِطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ لِأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مَطَهَّرُونَ لَا يَأْمُرُونَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَهُمْ أُولُو الْأَمْرِ ، وَ الطَّاعَةُ لَهُمْ مَفْرُوضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَمِنْ رَسُولِهِ ، لَا طَاعَةَ لَأَحَدٍ سِوَاهُمْ»^(١) .

٥ - عدم لياقة غير المعصوم لتلقي الوحي :

ان كل مأمورية - كما نعلم تتطلب في نفسها استعداداً ولياقة مناسبين لها ، وانه يستحيل ان يقوم بادائها على اتم وجه من لا لياقة ولا قابلية له عليها ، كما نعلم ايضاً ان انبياء الله يتلقون كلام الله عن طريق الوحي ، ويبلغونه للناس ، ذلك النداء المليء بالنور والمعنوية ، والمتضمن لكل درجات الايمان والتقوى . ومن البدهة ان التلقي لمثل هذا الوحي ينبغي ان يكون منزهاً طاهراً ، بدرجة بحيث يتمكن من الاتصال بعالم ما وراء الطبيعة ، وذات الباري الطاهرة المنزهة من كل عيب ونقص ، واستلام الرسالة المشحونة بالطهارة والتقوى ..

كيف يستطيع الملوث بالذنوب صاحب القلب المظلم أن يجد الطريق الى عالم النور ؟ كيف يصير القلب المليء بالشهوات والاهواء مهبطاً للوحي الالهي ومحلاً للعلم الرباني ؟ هل يُعقل تحقق هذا المعنى بدون وجود التجانس والسنخية بينهما ؟

ثم أن وكيل كل شخص انما يعكس وجود موكله وصفة من صفاته ، ولذا لايسمح مرجع ديني كبير لنفسه ابدأ بانتخاب وكلائه من بين الافراد المشبوهين ، ولو اتفق وفعل ذلك لعابه الناس كلهم ، واعتبروا تصرفه هذا قبيحاً ، ولخرجوا على امره ايضاً .

فهل يمكن ان ينتخب الله الذي هو منبع القدسيّة والتقوى والطهارة ، وكيله

(١) من كتاب بحر المناقب (المخطوط الصفحة ١٠٠) طبقاً لما نقله احقاق الحق الجزء ١٣ الصفحة ٧٨.

من بين المذنبين ، ويوكل هذه المسؤولية العظيمة لغير المعصوم ؟
نرى ان القرآن وفي معرض اجابته على المشركين حينما صرحوا :
﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ . يقول : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ
يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الانعام / ١٢٤) .

٦ - أدلة اخرى :

ذكر بعض من الفضلاء أدلة اخرى في هذا الباب لها صبغة فرعية وتعود
احياناً إلى الادلة المتقدمة ، من جملتها :

١ - انه لو صدر عن النبي ذنب لزم اجتماع الضدين ، أي أمرين متضادين ،
وجوب متابعتة في كل شيء من جهة ، وجوب مخالفتة عند الخطأ من جهة
اخرى ، ونعلم باستحالة صدور أمرين متضادين من الله الحكيم .

٢ - لو أقدم النبي على المعصية لوجب ان يكون مردود الشهادة ، لان
شهادة الفاسق واخباره غير مقبولة ، فكيف يمكنه والحالة هذه ان يكون شاهداً
على الوحي الالهي في الدنيا او على الامم يوم القيامة ؟ !

٣ - لو صدر من الانبياء ذنب فهذا يعني أن مقامهم أقل درجة من عصاة
الامة ، اذ أن مقام النبوة في غاية الرفعة والسمو ، فارتكابهم للمعاصي ،
والاعراض عن أوامر ربهم ونواهيهم من أجل لذة فانية أفحش وأشنع من عصيان
هؤلاء ، وهذا مالا يلتزمه عاقل .

٤ - انهم لو كانوا يأمرؤن الناس لصالح الاعمال واجتناب قبيحها ، ولم
يلتزموا هم بذلك لدخلوا تحت قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ
أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (البقره / ٤٤) ، وهو غير معقول .

٥ - لو صدر عن النبي ذنب صار مصداقاً للظالم (ظلم الآخرين أو ظلم نفسه) لجاز لعنه ، اذ يقول القرآن : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (هود / ١٨) ، فكيف يمكن لعن النبي ؟ وهل يتناسب هذا مع مقام نبوته ؟ .

٦ - ان القرآن الكريم صرّح على أن الشيطان أقسم بعزة الله تعالى على اغواء جميع الناس ، الا المخلصين : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (ص / ٨٢ و ٨٣) ، فلو صدر من النبي ذنب لوجب ان يكون من حزب الشيطان ، مع بداهة كونه من المخلصين .

الادلة الستة اعلاه قوية ومتينة ، وبالرغم من أنها ترجع إلى الادلة الرئيسية المتقدمة ، لكنها فروع مثمرة من تلك الاصول المعطاءة .

اسئلة متعددة :

هنالك عدة اسئلة مطروحة في بحث عصمة الانبياء والائمة ﷺ نشير ادناه إلى أهمها :

١ - هل لعصمة الانبياء صفة « جبرية » ؟

الكثير من الاشخاص حينما يقرأون بحث عصمة الانبياء ، يتبادر إلى اذهانهم فوراً هذا السؤال بأن مقام العصمة موهبة الهية مفروضة على الانبياء والائمة ، وكل من نال هذه « الموهبة » فقد حُفظ من المعصية والخطأ ، ومن هنا فلن تعد معصوميتهم فضيلة وفخراً ، لكونها امراً الهياً مفروضاً كما تقدم .

وبناءً على هذا فارتكاب الخطأ مع وجود مقام العصمة مستحيل ، وواضح انه لا فضيلة في ترك المحال ، فعدم ظلمنا مثلاً للناس الذين سيأتون بعد مائة

عام او الذين عاشوا قبل مائة عام لا يعد لنا فضيلة وفخراً ، لان اداء مثل هذا العمل بالنسبة لنا محال !

الجواب :

بالرغم من أنّ هذا الاشكال لا يتعرض إلى عصمة الانبياء ﷺ ، بل إلى كونها فضيلة أم لا ، مع ذلك فالتمعّن في عدة ملاحظات يمكن ان يزيح الستار عن الغموض المحيط بهذا السؤال :

١ - إنّ الذين يثيرون هذا الاشكال لا يلتفتون إلى جذور عصمة الانبياء ﷺ ، بل يتصورون ان مقام العصمة مثلاً هو كالمناعة من بعض الامراض والتي تحصل للانسان عن طريق بعض اللقاحات ، فكل من يلحق بمثل هذا اللقاح لن يبتلى بذلك المرض شاء أم أبى . لكننا عرفنا في الابحاث السابقة ان مصونية المعصومين من المعاصي نابعة من مقام معرفتهم وعلمهم وتقواهم ، بالضبط كاجتنابنا لقسم من الذنوب لعلمنا واحاطتنا بسلبياتها ، كعدم الخروج إلى الزقاق عراً فهكذا من له اطلاع تام بالاثار السلبية للمواد المحذرة ويعلم بان الادماع عليها يتسبب في موت تدريجي بطيء ، فسوف لا يطلبها . فمن المسلم ان تركه هذا يعدّ فضيلة حتى لو كان الدافع له على تركها هو علمه بمفاسدها ، وذلك لقدرته على استعمالها اذ لا اجبار في البين .

ولهذا السبب نسعى لرفع مستوى معرفة وتقوى الافراد عن طريق التربية والتعليم ، لنضمن ابتعادهم عن الذنوب الكبيرة والاعمال الشنيعة على أقل تقدير .

أفلا يعد ترك البعض لقسم من هذه الاعمال نتيجة للتربية والتعليم

فضيلة ؟ !

وبعبارة اخرى إنّ ترك الانبياء للذنوب محال عادي لا عقلي ، ونعلم بعدم المنافاة بين المحال العادي وبين الاختبار ، وكمثال على المحال العادي هو ان يصطحب عالم جليل معه خمراً إلى المسجد ويشربه بين صفوف الجماعة ، فهذا محال عادي لا عقلي كما لا يخفى .

خلاصة القول ان المستوى الرفيع للايمان ومعرفة الانبياء ﷺ والذي يعدّ بنفسه فضيلة وافتخاراً ، هو السبب في فضيلة اخرى ، الا وهي مقام العصمة (تأمل جيداً) .

ولو قيل من أين لهم هذا الايمان وتلك المعرفة ؟ ، لقلنا من الامدادات الالهية ، الاّ أنها لا تعطى لأي شخص اعتباراً ، بل لوجود اللياقة الكامنة فيهم ، بالضبط كما يقول القرآن الكريم بالنسبة لابراهيم الخليل من انه لم يبلغ مقام الامامة الا بعد اجتيازه للامتحانات الالهية الخطيرة : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (البقرة / ١٢٤) اي ان ابراهيم وبعد طيه لهذه المراحل بمحض ارادته واختياره ، نال تلك الموهبة الالهية العظيمة .

وكما يقول بالنسبة ليوسف ﷺ : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف / ٢٢) وذلك بعد تكامله البدني والروحي واستعداده لتلقي الوحي .

إنّ جملة ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ تُعدّ شاهداً قوياً على مرادنا ، اذ يقول القرآن : ان أعمال يوسف الايجابية ولياقته هي التي هيأته لتلك الموهبة الالهية العظيمة ، كما ان هناك تعابير توضح هذه الحقيقة بالنسبة لموسى ﷺ حيث يقول القرآن : ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ

قَدِّرْ يَا مُوسَى ﴿ (طه / ٤٠) ^(١) .

ومن الواضح وجود لياقات وقابليات كامنة في نفوس هؤلاء العظماء ، لكن تنميتها وتقويتها ليس فيه صفة اجبارية مطلقاً ، بل انهم قد قطعوا هذا الطريق بمحض اختيارهم وارادتهم ، وما اكثر اولئك الذين يتمتعون بالقابليات لكنهم مع ذلك لا يسعون لتطويرها ورفع مستواها ، هذا من جهة .

ومن جهة اخرى ، فتمتع الانبياء ﷺ بمثل هذه المواهب ، قد وضع بالمقابل مسؤوليات خطيرة في اعناقهم ، وبعبارة اخرى إِنَّ الله تعالى انما يهب الشخص قدرة وطاقة بحيث تتناسب والمسؤولية التي يضعها على عاتقه ، ثم يختبره في اداء وظيفته .

٢ - الجواب الاخر لهذا السؤال هو انه ومع فرض كون الانبياء مصونين من ارتكاب اي ذنب وخطأ ، بامداد الهي اجباري لغرض كسب ثقة الخلق ، وليكونوا مشعلاً ينير الطريق لهدايتهم ، فلا زال الطريق في « ترك الاولی » اي العمل الذي لا يتناسب وشأنهم مع عدم كونه معصية ، مفتوحاً امامهم بالرغم من كل ذلك . فضيلتهم تعود إلى عدم تركهم حتى للاولی مع كونه اختيارياً بالنسبة اليهم ، وتعرض البعض من الانبياء للخطاب والعتاب الالهي الشديد اللهجة والابتلاء بالحرمان في بعض الاحيان ، انما هو لاحتمال تركهم للاولی نادراً ، وأية فضيلة اسمی من اجتنابهم لترك الاولی طاعة لاوامر الحق ؟

اذن ، الفخر في الانبياء يكمن في تحملهم للمسؤولية بحجم هذه المواهب ، واجتنابهم حتى لترك الاولی ، ولو حدث ان صدر منهم ترك للاولی استثناء فسرعان ما يبادرون إلى تعويضه .

(١) جملة ﴿ ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدْرِ يَا مُوسَى ﴾ فُسرَت احياناً بالاستعداد لتلقي الوصية واحياناً اخرى بالمعنى الزماني اي انه ولغرض تلقي الرسالة كان من المقدر ان تأتي إلى هنا .

٢ - هل تتلاءم مسألة العصمة مع التقية ؟

يقال احياناً كيف يمكن ان يكون الانبياء والائمة معصومين مع جواز التقية لهم ، وجواز الكذب وامثاله في مقام التقية ، أليست تلك ذنباً ؟ فلو جازت التقية لهم لا استحالت عصمتهم من الذنب والمعصية .

* * *

الجواب :

يجب الالتفات هنا إلى ملاحظتين دقيقتين :

١ - الشبهة الخطيرة التي راودت البعض من المغفلين حول « التقية » والتي غدت منبعاً لشبهات جمّة اخرى ، هي توهمهم بان « التقية » تعنى ابداء موقف الضعف امام الآخرين ، واسدال الستار على الحقائق ، وانحصار مؤيديها في اتباع المذهب الشيعي فقط .

في حين ان « التقية » بمعناها الحقيقي قانون عقلائي معروف وواضح يتبعه كل العقلاء في الوقت المناسب ، وهي في الحقيقة نوع من التكتيك لمحاربة العدو أو مواجهة الاحداث الخطيرة .

بيان ذلك : هناك احداث في تاريخ الصراعات المذهبية والاجتماعية والسياسية ، يتعرض فيها اتباع الحق ومذهبهم للخطر فيما لو قاوموا بشكل علني ، ومن هنا نرى ان وجه الصراع يتغير وتُستبدل المقاومة المباشرة بغير المباشرة والعلنية بالسرية ، والهدف هو توجيه « ضربات اكثر » للعدوب « خسائر اقل » ، وبعبارة اخرى الحدّ من ضياع القوى ، وهذا النوع من الصراع والعمل السري ليس سوى « التقية » بوجه اخر .

إنّ النشاط السري مقابل العدو يعتبر في كل حروب العالم على طول

التأريخ (خصوصاً اليوم) من أهم اصول المقاومة ، الخطط الحربية كلها سرية ، كل ملابس الجنود وانواع العتاد والسلاح بعيدة عن انظار العدو ، وهذه كلها صور اخرى من « التقية » .

لو وقع أحد الضباط الكبار في اسر العدو ، واحتمل ان يستفيد العدو كثيراً من معلوماته ، لوجب عليه كتمان امره وعدم اخبار العدو بالحقيقة ، بل لو تمكن من اغوائهم بعباراته لوجب ذلك ، وهذه ايضاً من أوجه التقية .

لَمْ نذهب بعيداً ، ففي صدر الاسلام حين كان المسلمون يشكلون الاقلية ، كانوا يكتُمون عقائدهم حين وقوعهم في قبضة العدو ، لئلا تذهب الطاقات سدى ، فالكل قد سمع قصة عمار وأبيه ، كما أن القرآن أجاز هذه المسألة في العديد من الآيات ^(١) .

مؤمن آل فرعون الذي وردت قصته بالتفصيل في القرآن كمثال على ذلك ، كان قد استخدم اسلوب التقية ، وعبر عنه القرآن صراحة بـ ﴿ رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه ﴾ (غافر / ٢٨) .

لا يجيز اي عقل ان يكشف المجاهدون عن انفسهم في مثل هذه الظروف الحساسة وهم قلة ، لئلا يتعرف عليهم العدو بسهولة ويقضي عليهم .

اللطيف هو ان « التقية » قد اعتبرت بمثابة الدرع الواقى بالنسبة للمؤمن في الروايات الاسلامية ، كما ورد ذلك عن الامام الصادق عليه السلام انه قال : « التقية ترس المؤمن » ^(٢) .

فلو ان احداً لجأ إلى مكان منيع في ساحة المعركة ليقى نفسه من ضربات العدو ، هل يعد مرتكباً لعمل مخالف يا ترى ؟!

(١) راجع سورة (آل عمران / ٢٨) و (النحل / ١٠٦) .

(٢) وسائل الشيعة الجزء ١١ الحديث السادس من الباب ٢٤ من ابواب الامر بالمعروف الصفحة ٤٦١ .

ومن هنا يتضح انه كلما ابتلي احد بموارد التقية وكنتم امره وعقيدته الباطنية لمصلحة أهم ، أو تحدث على خلافها ، فهو فضلاً عن عدم ارتكابه للذنوب يكون عاملاً بالمباح او الواجب ، وحاله حال الكذب لاصلاح ذات البين ، او لانقاذ حياة مؤمن .

واللطيف هو ان القرطبي المفسر السني المعروف ، وفي ذيل الآية (١٠٦) من سورة النحل حينما يصل إلى مبحث « التقية » يقول : « يعتقد كل علماء الاسلام انه لو أجبر أحد على التفوه بعبارات الكفر خوفاً على حياته ، فلا حرج عليه في ذلك مع اطمئنان قلبه بالايمان ، ولا تبين منه زوجته ، ولا يحكم باحكام الكفر » وبعد تعرضه لقول ضعيف حول الارتداد الظاهري لشخص كهذا يقول : « هذا كلام ينفيه الكتاب والسنة والقرآن وحديث النبي ﷺ » .

طبعاً الانبياء ﷺ في موقع لا يسمح لهم بالتقية ابداً ، اي انهم لا يكتمون حقائق الدين بأي ثمن ، ولا يقولون خلاف الواقع في هذا الطريق ، والا لبقيت حقائق دعوتهم خفية ، ولزال الاعتماد على كلامهم ، ولفقد إخبارهم عن الوحي السماوي اعتباره ، لكنهم لو ابتلوا بمشاكل شخصية فيحتمل كتمانها من قبلهم ، فقد اختفى النبي ﷺ في غار ثور حين هجرته من مكة إلى المدينة وسلك الاودية والبوادي ، وسار ليلاً واختفى نهاراً لثلا يعثر عليه العدو وتتعرض حياته المباركة للخطر . هذه كلها كانت تقية ولا معصية في ذلك كله ، كما إنه لم يصدر منه ﷺ ما يخالف الحق .

وبهذا نكون قد وصلنا إلى خاتمة مبحث عصمة الانبياء ﷺ .



المقام العلمي
للانبياء عليهم السلام

المقام العلمي للانبياء عليهم السلام

لا شك ان قادة المجتمعات البشرية عموماً ، والقادة الالهيين خصوصاً ينبغي لهم ان يتمتعوا بقسط وافر من العلم والمعرفة ، وفي شتى المجالات . وبما أنّ دائرة مأمورية الانبياء عليهم السلام تشمل بدن الانسان وروحه ، وبعبارة اخرى إنّها تسع جميع البشر في دنياهم وآخرتهم ، فلا بد لهم من معلومات جمّة لا تشوبها شائبة الخطأ والاشتباه ، لئلا يقودون الناس إلى طرق الضلال تحت عنوان نيابتهم عن الله ، وليثق بهم عباد الله ولا ينحرفوا .

ولهذا السبب فقد جهزهم الله وقبل كل شيء بسلاح العلم والمعرفة ، كما شهدت بذلك آيات القرآن ، فالآيات ادناه دليل واضح على هذا المعنى ابتداءً بآدم وانتهاءً بالخاتم .

١ - وهب الله آدم عليه السلام علماً ومعرفة حتى ان الملائكة بمقامهم العلمي واحاطتهم بامور العالم قد سجدوا له :

﴿ وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ

أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - قَالُوا سُبْحَانَكَ
لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ - قَالَ يَا آدَمُ
أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي
أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ
تَكْتُمُونَ ﴿

(البقرة / ٣١ - ٣٣) .

ولغرض اكمال هذا البحث لا بدّ لنا من معرفة أمور :

ما هو علم الاسماء ؟

للمفسرين كلام طويل حول ماهية علم الاسماء هذا ، الذي يعدّ من أعظم
المواهب الالهية لآدم ﷺ ، والمنشأ لفضيلته وافتخاره ولياقته لتسلّم مقام الخلافة
الالهية .

قيل تارة بان المراد به هو علم اللغات ، في حين ان معرفة مجموعة من
اللغات لا يمكن ان تكون المنشأ لفضيلة كهذه ، فضلاً عن عدم تناسب هذا
المعنى مع التعبير الوارد في هذه الآيات ، لان التعبير بـ ﴿ غيب السموات
والارض ﴾ يبين عودة هذا العلم إلى اسرار السماوات و الارضين الخفية ، التي
بقيت غامضة عن انظار الملائكة .

وقالوا تارة بان المراد هو أسماء حجج الله ، خصوصاً الاثمة المعصومين
الذين كانت ارواحهم مخلوقة من قبل ، وقد ورد مثل هذا التفسير في بعض
الروايات .

لكن من المسلّم ان مثل هذه الروايات ليست اكثر من اشارة إلى البعض من
المصاديق المهمة لهذا العنوان الكلي ، كما عليه اسلوب الروايات التفسيرية ، لا
ان « علم الاسماء » يختص بها .

لكن الكثير من المفسرين قالوا بان المراد من « الاسم » هنا هو « المسمى » ، اي ان الله علم آدم كل العلوم المرتبطة بالارض والسماء ، وانواع الصناعات واستخراج المعادن وغرس الاشجار وخواصها ومنافعها ، (او انه تعالى وضعها في كيانه ووجوده بشكل مركز) .

وعلى هذا فقد تعرّف آدم على كل اسرار العالم ، وهياً الارضية لذريته للاحاطة بكل هذه الاسرار . فاية فضيلة اسمى وارفع من التمتع بمثل هذا العلم ، وكذلك جعل القابلية على نيله في متناول اولاده ايضاً .

ولذا نقرأ في حديث عن الامام الصادق عليه السلام حول تفسير هذه الآية قال : (الْأَرْضَيْنِ وَالْجِبَالِ وَالشُّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى بَسَاطٍ تَحْتَهُ فَقَالَ هَذَا الْبَسَاطُ مِمَّا عَلِمَهُ) ^(١) ، (وباختصار كل موجودات العالم) . هذا التعبير يبيّن ان آدم عليه السلام كان عالماً بكل هذه العلوم .

وهناك كلام للمرحوم « العلامة الطباطبائي » في « الميزان » حاصله : « أولاً يستفاد من تعابير الآية ان هذه « الاسماء » سلسلة امور غائبة عن العالم السماوي والارضي ، خارج محيط الكون ، ولها مفهوم عام واسع اشير اليه بلفظة « كلها » كما إنّ الضمير « هم » بصيغة الجمع ، مشعر بان كل هذه الاسماء كانت موجودات حية عاقلة مستورة في عالم الغيب » ، ثم يضيف قائلاً : « واذا تأملت هذه الجهات اعني عموم الاسماء ، وكون مسمياتها أولى حياة وعلم ، وكونها غيب السموات والارض ، قضيت بانطباقها بالضرورة على ما اشير اليه في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ (الحجرات / ٢١) » ، واخيراً يقول العلامة :

« فتحصل ان هؤلاء الذين عرضهم الله على الملائكة موجودات عالية

محفوظة عند الله ، محجوبة بحجب الغيب ، انزل الله كل اسم في العالم بخيرها وبركتها ، واشتق كل ما في السموات والارض من نورها وبهائها ^(١) .
على اية حال فقد كان « علم الاسماء » علماً واسعاً محيطاً بكل الحقائق المهمة لهذا العالم .

٢ - يقول الله تعالى حول موسى بن عمران عليه السلام :
﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

(القصص / ١٤)

٣ - ويقول عن داود عليه السلام :
﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ (الذي كان في ذلك الزمان فتى في ريعان الشباب)
جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ ^(٢) .
٤ - ويقول عن داود وسليمان عليهما السلام :
﴿ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

(الانبياء / ٧)

٥ - ويقول عن النبي لوط عليه السلام :
﴿ وَلُوطًا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

(الانبياء / ٧٤)

(١) تفسير الميزان الجزء ١ ذيل الآيات مورد البحث - يمكن ان يكون مراد العلامة من هذا الكلام المجمل شيئاً شبيهاً بالمثل الافلاطونية او العقول العشرة .
(٢) البقرة / ٢٥١ .

٦- كما يكرر نفس هذا المعنى في حق يوسف ﷺ اذ يقول :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

(يوسف / ٢٢)

لا بد من الالتفات هنا إلى هذه النكته ، وهي ان لفظة ﴿علمًا﴾ قد وردت في هذه الآيات بصيغة « النكرة » وذلك لبيان العظمة التي لا نعرف لها حداً وحدوداً .

البعض فسر لفظة الـ « حكم » في هذه الآيات بمعنا مقام « القضاء » والبعض فسرهما بمعنا مقام « النبوة » ، وحملها البعض الآخر على معنى العلم الخاص الذي يُساعد الانسان على تمييز الحق من الباطل ، وبعبارة اخرى المراد هو العقل والفهم والقدرة على القضاء الصحيح ، والفصل بين الحق والباطل ^(١) ، لكن بالنتيجة يمكن لكل واحدة من هذه المعاني ان تكون شاهداً على المراد .

٧- ويقول حول السيد المسيح ﷺ :

﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾

(المائدة / ١١٠)

٨- ويقول حول نبي الاسلام ﷺ :

﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

(النساء / ١١٣)

٩- وفي موضع اخر وبعد الاشارة إلى فريق من الانبياء العظام ، اي ابراهيم واسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى والياس واسماعيل واليسع ويونس ولوط يقول :

(١) راجع تفسير مجمع البيان الجزء ٥ الصفحة ٢٢٢ (ذيل الآية ٢٢ من سورة يوسف) .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾

(الانعام / ٨٩)

وبناءً على هذا فقد وهب الله ثلاثة امتيازات مهمة لهؤلاء الانبياء العظام الثمانية عشر ، لكنها لم تكن تختص بهم فقط بل كانت شاملة لكل الانبياء الالهيين ببداية الحال ، وهي : « الكتاب السماوي » و « الحكم » و « النبوة » ، طبعاً ينبغي ألا يفهم من هذا الكلام ان كل واحد منهم كان يمتلك كتاباً مستقلاً ، بل إن فريقاً منهم كان قد اوحى اليه كتاب ، وفريقاً آخر كان حافظاً لكتب السلف .

١٠ - هناك تعبير بليغ اخر يشاهد في آيات القرآن حول هذا الموضوع بالنسبة للنبي الاكرم ﷺ ، وخلفائه المعصومين ، وهو تعبير ﴿الراسخون في العلم﴾ حيث يقول القرآن ، وبعد تقسيمه للآيات القرآنية إلى « المحكمات » (الآيات الصريحة والواضحة) و « المتشابهات » (الآيات التي ليست كذلك) :

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ (اي المتشابهات) إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي

الْعِلْمِ ، (ونظراً لفهمهم اسرار آيات القرآن) ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ

مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

(آل عمران / ٧)

معلوم ان هناك حديثاً مفصلاً بين المفسرين حول تفسير هذه الآية ، وانه هل يجب الوقوف بعد لفظ الجلالة « الله » وفصل جملة ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ ، ليفهم منها ان الراسخين في العلم يؤمنون اجمالاً بالآيات المتشابهة وان يكن لهم المام كافٍ بها ، أم أن جملة « الراسخون في العلم » معطوفة على لفظ الجلالة « الله » ليفهم منها ان كلاً من الله وكذلك الراسخين في العلم لهم اطلاع بتأويل هذه الآيات ، وقد اخترنا في التفسير الامثل الشق الثاني ، وذكرنا هناك

أربعة أدلة على مدعانا^(١).

على أية حال فعبارة « الراسخون في العلم » تدل على إن هؤلاء القادة العظام سهماً وافرأ من العلم ، لان لفظة « الرسوخ » وعلى حد قول المفردات تعني ثبات الشيء متمكناً ، وان الراسخ في العلم هو المحقق به الذي لا تعترضه شبهة .

فنستنتج من مجموع هذه الآيات بكل وضوح ، ان للانبياء الالهيين حصة كبيرة من العلوم والمعارف .

ملاحظات :

١ - حدود علم الانبياء ﷺ :

لا شك في ضرورة تمتع الانبياء ﷺ بمعرفة تامة بكل اصول الدين وفروعه ، وما يرتبط بالمعارف الالهية ، والاحكام ، والاخلاق واسباب سعادة الانسان وشقائه ، وطرق نجاته وهدايته ، وذلك لاستلزام مهمة ابلاغ هذه الامور ، ونيل اهداف النبوة السامية لمثل هذه العلوم . ومن البديهي عدم احاطتهم التامة بهذه الامور يحول دون تحقق المقصود ، . وحسب التعبير المعروف ، فهذه المسائل من القضايا التي تكون قياساتها معها .

كما يجب ان يكون لهم المام بالمسائل التنفيذية والامور المرتبطة بآدارة المجتمع ، وتشكيل الحكومة الالهية ومسائل من هذا القبيل ، وذلك لأن للانبياء مقام الولاية فضلاً عن جانب التربية والتعليم ، ولو لم يتمكن من تعميم حكم هذه المسألة على كل الانبياء ﷺ ، فهذا المقام مما يمكن اثباته لكبار الانبياء على اقل

(١) يرجى مراجعة التفسير الامثل الجزء ٢ ذيل الآية مورد البحث .

تقدير، فابراهيم كان اماماً وقائداً للناس، وكان كل من سليمان وداود وموسى بن عمران ويوسف متصدياً للحكومة عملياً، كما ان نوحاً كان شبيهاً برئيس الحكومة وذلك في ظروف خاصة بعد مسألة الطوفان، والواضح من الكل هو مقام ولاية وحكومة نبي الاسلام ﷺ الذي شكل حكومة الهية كاملة بكافة أبعادها.

إن ضرورة تمتعهم بالمعلومات الكافية لإدارة هذه الحكومات هو مما لا يخفى، لان اي خطأ واشتباه منهم في أمر الحكومة سيترك اثراً سلبياً في مسألة دعوتهم إلى الله، وعلى العكس فالقيادة الصحيحة للحكومة ستكون السبب في نجاحهم في هذه المهمة.

ويمكن اثبات هذين القسمين من العلوم والمعارف - الدينية والحكومية بالدليل العقلي، باعتبار عدم ضمان الهدف من البعثة لو لم يكن للانبياء اطلاع عليهما.

لكن هل يلزم عقلاً ان يكون الانبياء والائمة المعصومون مطلعين على العلوم الاخرى، التي لا ترتبط باهدافهم مباشرة؟ مثلاً هل يجب ان يكون لهم اطلاع بعلم الطب والرياضيات والاعشاب والنجوم والهيئة وسائر العلوم؟
بعبارة اخرى هل يلزم ان يكون لهم المام بكافة العلوم على مستوى الاختصاصي وما فوقه - الدكتوراه فما فوقها - لا مجرد المعلومات العامة التي يحتاجها كل قائد؟

يعتقد البعض بعدم وجود أدلة عقلية على اثبات مثل هذه العلوم الكثيرة للانبياء، مهما تم الاستشهاد بالآيات والروايات كأدلة نقلية على اتساع دائرة علومهم في شتى المجالات.

وبعبارة اخرى: فعلم الانبياء ﷺ الضرورية لهم هي ماتمت الاشارة اليها

اعلاه طبقاً للدالة العقلية ، لكن عند الاستدلال بالدالة النقلية تتسع مسألة علومهم بشكل اكبر ولا مانع من عدم لزوم هذه العلوم لهم عقلاً ، لان الدالة النقلية تثبت لهم هذه العلوم من باب الفضيلة والكمال ، نظراً لامكان هذه العلوم من اصفاء عظمة اكبر عليهم ، ومن الاسراع في تقبل الناس لدعوتهم .

٢ - القرآن والعلوم الاخرى للانبيا :

ومن جهة اخرى فلا يمكن انكار هذه الحقيقة وهي ارتفاع الحجب عن قلوبهم ، لأرواحهم السامية وتهذيبهم الكامل للنفس وتصفية قلوبهم من الشوائب ، وان هذه المعرفة وان لم تكن ضمن شروط النبوة لكنها تعتبر ضرورية في سلم الكمال كما لا يخفى .

وبعبارة اخرى ، مسألة نقض الغرض شيء ، ومسألة قدرة نفوس وعقول الانبياء شيء آخر ، ولو اننا عجزنا عن اثبات ما زاد على المرتبط بعالم الشريعة والتربية وادارة المجتمع الانساني ، فبالامكان اثباته بالطريق الثاني .

ويمكن لآيات القرآن أن تكون دليلاً حسناً على هذه المسألة ايضاً ، اذ قد تمت الاشارة في القرآن ، بالاضافة إلى مسألة الاسماء التي وهبت لآدم والتي اتسع نطاقها بما يفوق الحد - كما علمنا - إلى موارد اخرى من علوم مختلف الانبياء الالهيين ، والتي لا تبدو حسب الظاهر لازمة لمسألة التشريع وبيان احكام الدين ، لكنها تعد الاساس لكمالها . لاحظ الايات ادناه المرتبطة بهذا الموضوع .

١ - نقرأ عن داود ﷺ : ﴿ وَ عَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (الانبياء / ٨٠) .

الـ « لبوس » يعني في الاصل كل انواع الالبسة ، لكنه استعمل هنا في خصوص ملابس المعركة كالدرع مثلاً ، ولكن بعض أرباب اللغة كابن منظور في

لسان العرب وبعض المفسرين كالمرحوم الطبرسي في مجمع البيان في ذيل هذه الآية كل انواع السلاح (الاعم من الاسلحة الهجومية والدفاعية) ، اذ انه يصدق بحقها استعمالها للدفاع في الحروب التي اشير اليها في الآية وان كانت ظاهرة في الدرع كما هو واضح .

ذكر بعض المفسرين أنهم وقبل داود عليه السلام كانوا يربطون بابدانهم صفحات حديدية رقيقة لوقاية انفسهم من ضربات الاعداء ، (وان هذا العمل كان شاقاً للغاية ببداهاة ، وان أول من صنع الدرع من الحلقات الصغيرة المرتبطة ببعضها البعض هو نبي الله داود الذي خطر على باله هذا الشيء بالهام الهى ^(١) .

وقد ورد نفس هذا المعنى بتعبير اشمل في موضع آخر اذ يقول تعالى : ﴿ وَالنَّالَةَ الْحَدِيدَ * أَنْ اَعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً ﴾ (سبأ / ١٠ و ١١) .

« السابغات » جمع « سابغ » الذي يعني الدرع الكامل العريض بالضبط ، كما ان « اسباغ النعمة » يعني وفورها و « اسباغ الوضوء » يعني كثرة ماء الوضوء . « السرد » يعني في الاصل غزل الاشياء الخشنة ، وقد ورد في جملة « وقدر في السرد » الامر برعاية الاحجام الملائمة لحلقات الدرع وكيفية غزلها . وبهذا تبين ان الله قد الان له الحديد بالاضافة إلى تعليمه لفنون غزل الدرع الكامل .

هل كان الحديد يلين في يد داود كالشمع ؟ ام ان الله قد علمه طريقة اذابة الحديد وصناعة القضبان الحديدية الدقيقة والمتينة ؟ وبعبارة اخرى هل يمكن ان يكون لين الحديد في يده معجزة الهية ، ام ان الله علمه الاسلوب الخاص لاذابة الحديد ، والذي لم يكن معروفاً حينذاك ؟ ايأ كان فقد علم الله داود كيفية

صناعة القضبان المناسبة واستبدالها بحلقات الدرع القوية ونسجها ، وكانت نتيجة ذلك هي صناعة ثوب سهل ارتداؤه مع مرونة حركته ، طبقاً لحركات بدن الانسان واعضائه ، لا كصفحات الحديد القوية التي تأبى الانثناء والتي تقيد المقاتلين وكأنهم في قفص .

وهنا ملاحظة لابد وان تؤخذ بنظر الاعتبار وهي ان داود ﷺ حينما كان يلين الحديد بيديه كان يرجح صناعة المعدات الدفاعية على الهجومية كالسيف مثلاً .

على اية حال فمع أن عدم الالمام بصناعة آلية دفاعية مهمة ومصيرية، في حروب ذلك الزمان لم يكن بتلك الاهمية ، بحيث يحدث خللاً في دعوة النبي الدينية ، لكن الله علمه هذه الصنعة وبقيت رائجة بين الناس .



٢ - نقرأ فيما يتعلق بسليمان ﷺ : ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (النمل / ١٦) .
هذا في الواقع جزء من العلم العظيم الذي وهبه الله لداود وسليمان ، والذي جاء في الآية السابقة : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ .

بديهي ان الاطلاع على منطق الطير (محاورات الطيور) باي معنى كان ليس من شروط النبوة ، وفي نفس الوقت فالقرآن يصرّح بان الله تعالى كان قد وهب سليمان ﷺ علماً كهذا ، بل أشار ايضاً في آيتين لا حقتين إلى معرفة سليمان بمنطق النمل (النمل / ١٨ و ١٩) ^(١) ، كما نقرأ حوار سليمان مع الهدهد

(١) ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَخْطِئَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النمل / ١٨)

في الآيات اللاحقة كذلك (النمل / ٢٠ - ٢٨)^(١).

مع ان هناك ابحاثاً كثيرة تبحث في تفسير هذه الايات ، أنه هل لهذه الطيور كالهدهد والحشرات كالنمل ذلك المستوى من العقل والشعور ، بحيث تدرك مفاهيم الكلمات والجمل وتتحدث بشكل منطقي ؟ وهل ان اسلوب محاوراتها يتم بالالفاظ ام من خلال حالات تعكس المراد ؟ (ذكرنا ذلك مفصلاً في التفسير الامثل)^(٢).

لكن تفسير هذه الآيات آياً كان فلن يؤثر على الهدف الذي نبغيه هنا ، لان المراد هو وجود سلسلة من المعلومات التي تفوق العادة عند الانبياء ، وغيابها عند الناس العاديين ، مع عدم كونها من شروط النبوة في نفس الوقت .



٣ - وحول يوسف عليه السلام جاء في العديد من الآيات ان له علماً يفوق العادة في تفسير الاحلام .

ففي احد المواضع يبشره أبوه بان الله سيختارك ويعلمك من تفسير الاحلام : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ (يوسف / ٦) .

وفي موضع اخر حينما يدور الحديث حول مجيء يوسف عليه السلام إلى قصر عزيز مصر يقول القرآن : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ (يوسف / ٢١) .

﴿ قَتَبَسَمِ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَفْعَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾

(النمل / ١٩)

(١) ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّءَ ... ﴾ اي آخر آية ٢٨ .

(٢) راجع التفسير الامثل الجزء ١٥ ذيل الآيات مورد البحث .

ويتحدث في موضع آخر عن تفسير يوسف ﷺ لحلم السجينين ، وقوله لهما : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ (يوسف / ٣٧) .

واخيراً حينما يدور الحديث عن ابتهاج يوسف ﷺ بعد تصديه لمقام الحكومة ، ولقائه بابيه وامه واخوته ، يقول القرآن الكريم على لسان يوسف ﷺ : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ (يوسف / ١٠١) .

مع ان البعض من المفسرين قد ذكروا احتمالاً آخر غير تفسير الاحلام فيما يتعلق بعبارة ﴿ تأويل الاحاديث ﴾ وقالوا بان المراد هو تعليمه اسرار الكتب الالهية ودقائق سنن الانبياء ﷺ^(١) ، لكن ومع الاخذ بنظر الاعتبار مجموع الآيات الأربع اعلاه ولفظة « التأويل » التي تتلاءم كثيراً مع تفسير الاحلام ، بالاضافة إلى قرائن اخرى يكون المراد هو نفس علم تفسير الاحلام وهو مختار الكثير من المفسرين ايضاً^(٢) .

ومع أن علم تفسير الاحلام لم يحض بتلك الاهمية عند البعض ، لكنه يعد من الحقائق ، وذلك للشواهد و القرائن العينية الكثيرة التي تحف بهذا الموضوع ، كما ان بإمكانه كشف اللثام عن بعض الغوامض لمن له المام به . وقد تناولنا هذا الموضوع بالشرح والتفصيل في التفسير الامثل ذيل الآية السادسة سورة يوسف ﷺ .

كما أن القرآن قد أيدَّ صحة ذلك أيضاً وذكر لذلك مثلاً عجباً ، ويبيّن ان

(١) تفسير روح المعاني نقل هذا التفسير عن البعض من المفسرين (الجزء ١٢ الصفحة ١٨٦) كما ان المفسر الكبير الطبرسي ذكر ذلك كاحد الاقوال في الجزء ٥ الصفحة ٢١٠ ذيل الآية السادسة من سورة يوسف .

(٢) مجمع البيان ذيل الآية ١٠١ ، روح المعاني ذيل الآية ٢١ ، القرطبي ذيل الآية السادسة روح البيان ذيل الآية السادسة ، واخيراً في ظلال القرآن ذيل الآية ١٠١ من سورة يوسف .

مستقبل بلاد عريضة كمصر قد تغير عن طريق تفسير يوسف عليه السلام للحلم بصورة دقيقة ، كما أن نفس هذا التغير قد ترك اثره في مستقبل يوسف عليه السلام ايضاً وأوصله إلى أرفع المناصب الحكومية في مصر .

لا شك ان علم تفسير الاحلام بنظر المنطق العقلي ليس بذلك الشيء الذي تركز عليه اسس الرسالة ، لكن مع ذلك فقد وهب الله قسطاً وافراً منه ليوسف عليه السلام .



٤ - وحول موسى عليه السلام ايضاً يشاهد هذا المعنى بوضوح في القرآن ، إن قصة « الخضر » و « موسى » بذلك التفصيل الرائع والبليغ ، الذي جاء في سورة الكهف (وان لم يصرح القرآن باسم الخضر) تبين وجود علوم لدى الخضر كانت غائبة عن موسى ، وانه جاء إلى « الخضر » ليتعلم قسماً منها .

هذه العلوم ليست اموراً مرتبطة بالشرعية واصول الدين وفروعه ، بل هي حقائق مرتبطة بتكوين الانسان وحياته ، مثل تلك السفينة التي كانت لفريق من المستضعفين ، والتي خرقها الخضر ليحول دون غضبها من قبل ملك ظالم ، او الشاب الكافر الذي قتله الخضر لأنه سوف يتسبب في انحراف ابويه المؤمنين مستقبلاً ، او الجدار الذي كاد ان ينقض حيث قام الخضر بترميمه حفاظاً على كنز الايتام تحته .

فالخضر كان يسعى دائماً باسلوبه الخاص لمساعدة المظلومين والمؤمنين ، في حين كان تصرفه هذا بنظر موسى خاطئاً وغير منطبق مع موازين الشرع ، وذلك للحقائق المستورة عليه خلف الحجب ، ولذا كان يغضب كثيراً حتى انه نسي اكثر من مرة عهده الذي اعطاء للخضر ، بعدم الاعتراض على

تصرفاته قبل بيانها واعترض عليه بشدة ، ثم اعتذر منه بعد التفاته إلى ذلك .
 هذه القصة بكل نكاتها اللطيفة تؤكد على حقيقة أن موسى ﷺ كان بصدد
 تعلم مثل هذه العلوم من الخضر ﷺ بأمر من الله ، في حين أن هذه العلوم لم يكن
 لها دخل في مسألة ابلاغ النبوة ، بل تعتبر سبباً في تكاملها لأنها تعني التعمق في
 المسائل بشكل أكبر .

ولو اعتبرنا الخضر نبياً (نظراً لوجود الخلاف بين المفسرين والمحدثين
 حول نبوته) فسنصل إلى هذه النتيجة أيضاً وهي أن هناك علوماً لدى الخضر
 وراء علوم الشريعة ، وبديهي أن اطلاع الأنبياء ﷺ على هذه الحقائق يعني أن الله
 تعالى قد جهزهم بعلوم كثيرة ، لتكون لهم قدرة أكبر على هداية الخلق ورسم
 الطريق لنيل المطلوب ، وإن كانت هذه العلوم بعيدة كل البعد عن الشروط
 القطعية للنبوة .

منابع

علم الانبياء عليه السلام

منابع علم الانبياء ﷺ

١ - يتلقى انبياء الله ﷺ حقائق علومهم بالدرجة الاولى من منبع الوحي ، الذي ينزل عليهم احياناً عن طريق « مَلَكُ الوحي » ، كما نقرأ ذلك في الآية (١٩٢ - ١٩٥) من سورة الشعراء : ﴿ وَانَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ ، أو عن طرق اخرى ، فهناك انواع وطرق متعددة للوحي وسيأتي تفصيلها في محله انشاء الله .

٢ - الطريق الآخر أي الثاني لعلوم الانبياء ﷺ هو الارتباط الروحي والمعنوي بعالم الغيب ، فلقد جعل الله تعالى حقيقة ابصارهم قوية بدرجة انها اخترقت حجب عالم الغيب لتجد سبيلها إلى ما وراء ذلك ، كما يقول بالنسبة لابراهيم الخليل عليه السلام : ﴿ وَكَذَلِكَ نُبْرِئُ إِبْرَاهِيمَ مَلَكَوَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (الانعام / ٧٥) .

أجل فقد كانت لهم معرفة بعالم « الملكوت » ، فضلاً عن معرفتهم بعالم « الملك » ، وقد تلقوا الكثير من علومهم عن طريق المشاهدة النفسية والباطنية للملكوت ، وبعبارة اخرى فادراكاتهم وأبصارهم هي غير تلك الظاهرية التي عندنا ، وقد توصلوا عن طريقها إلى حقائق كثيرة .

٣ - الطريق الثالث السير ومشاهدة الآفاق الذي عرض للبعض من الانبياء بأمر من الله عز وجل ، حيث اطلعوا عن هذا الطريق على العوالم المختلفة لهذا الكون ، بالضبط كما حدث ذلك لنبي الاسلام ﷺ في مسألة المعراج ، يقول القرآن :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

(الاسراء / ١)

كان هذا في الواقع القسم الأول من المعراج ، اما القسم الثاني فهو الذي يبدأ من المسجد الاقصى باتجاه السماوات ، والذي اشير اليه في آيات سورة النجم اذ يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (النجم / ١٨) . وهو مضافاً إلى هذه الآيات الشريفة التي تذكر المعراج بشكل مجمل ، نجد ان الاحاديث الاسلامية قد ذكرته بشكل ، تفصيلي ، اذ يتبين من مجموعها بكل وضوح الحجم العظيم من المعلومات التي حصل عليها رسول الله ﷺ ، من ذلك السفر الليلي السماوي وهو المعراج . وكذلك الانوار البهية التي أشرقت على قلبه ، فرفعت مقامه العلمي مما هو عليه إلى أعلى عليين .

٤ - الطريق الرابع وهو المستفاد من عدة آيات في القرآن بأن هناك حقيقة باسم « روح القدس » كان برفقة الانبياء يؤيدهم ويقويهم ويرشدهم في مسيرهم .

وردت لفظة « روح القدس » في القرآن المجيد اربع مرات ، احياناً في حق عيسى واخرى في حق نبي الاسلام ﷺ . يقول القرآن في حق السيد

المسيح ﷺ ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَآيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾
(البقره / ٨٧) .

وحول تكلم عيسى ﷺ في المهد يقول : ﴿ إِذْ أَيْدُتْكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ
النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ (المائدة / ١١٠) .

ونقرأ عن نبي الاسلام ﷺ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾
(النحل / ١٠٢) .

لقد ذكر المفسرون معنيين لكلمة « روح القدس » ، أحدهما أنه ملك
الوحي جبرئيل ﷺ .

والآخر هو القوة الغيبية المجهولة التي ترافق الانبياء ﷺ ، فالآية المرتبطة
بنبي الاسلام ﷺ تناسب المعنى الأول ، والآيات المرتبطة بالسيد المسيح
تناسب المعنى الثاني ، فهو الذي أيد المسيح ﷺ في تكلمه بالمهد أو في إحيائه
للموتى .

هذا الروح المقدس والطاهر ، كان المنبع لالهامات عظيمة للانبياء ﷺ ،
بل وحتى يستفاد من بعض تعابير الروايات ان روح القدس يُرافق الافراد
المؤمنين ايضاً (طبقاً لسلسلة مراتب الايمان) ، وهو الذي يؤيد الخطباء
الصالحين والشعراء المؤمنين في خطبهم وقطعهم النثرية وقصائدهم العملاقة ،
كما يمدُّ المؤمنين الحقيقيين بالعزم على اتخاذ التضاميم المصيرية .

ويبدو في الكثير من الروايات ان روح القدس حقيقة عند الانبياء والائمة
المعصومين ﷺ ، وانهم قد ادركوا بواسطته الكثير من الحقائق ، من جملتها
ما جاء في الكثير من الروايات ان الائمة المعصومين ﷺ كانوا يستمدون العون
من روح القدس عند القضاء والافتاء .

هذا التعبير ورد بحق « حسان بن ثابت » حيث قال له النبي ﷺ : (لَنْ

يَزَالُ مَعَكَ رُوحُ الْقُدُسِ مَا ذَبْنْتَ عَنَّا) (سفينة البحار ، مادة كميّت) .

كما جاء في حق الكميّت شاعر أهل البيت عليه السلام المعروف ، من ان الامام الباقر عليه السلام قال له : (لَا تَزَالُ مُؤَيَّدًا بِرُوحِ الْقُدُسِ) ^(١) ، وورد نظير هذا المعنى في حق دعبل الخزاعي ايضاً ، وذلك عندما التقى القصيدة المعروفة « مدارس آيات » في مجلس الامام الرضا عليه السلام ، وحينما وصل إلى هذا البيت حول ظهور المهدي عليه السلام ،

خُرُوجُ إِمَامٍ لَمْحَالَةً وَقِيعٌ يَقُومُ عَلَى اسْمِ اللَّهِ وَالْبَرَكَاتِ !

بكى الامام الرضا عليه السلام كثيراً ثم قال : يا دعبل نطق روح القدس على لسانك ، هل تعلم من هذا الامام ؟ قال دعبل : كلا ، لا اعلم سوى ما سمعته من ان اماماً منكم سيظهر ويملا الأرض قسطاً وعدلاً . فأيد الامام الرضا عليه السلام كلامه وتحدث بشيء من التفصيل عن ظهور المهدي ، باعتباره الخليفة الثاني عشر للرسول صلى الله عليه وآله وسلم (الغدير الجزء ٢ الصفحة ٣٥٥) .

وفي حديث عن الامام الصادق عليه السلام نقراً أن أحد أصحابه سأله : تُسألون عن الشيء فلا يكون عندكم علمه ؟ ! قال الامام عليه السلام : ربما كان ذلك !

قال الراوي : كيف تصنعون ؟

قال الامام عليه السلام : تلقّنا به روح القدس ^(٢) ؟ (بمعنى لقينا) .

نقرأ في حديث آخر : أن أحد أصحاب الامام الباقر عليه السلام قال : سألته عن علم العالم (المراد به النبي والامام المعصوم) .

فقال عليه السلام : « يَا جَابِرُ إِنَّ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ خَمْسَةَ أَرْوَاحٍ : رُوحُ

(١) (الغدير الجزء ٢ الصفحة ٢٠٢ ، حالات الكميّت) .

(٢) بحار الانوار الجزء ٢٥ كتاب الامامة الصفحة ٥٦ الحديث ١٩ كما ورد نفس هذا المضمون في الاحاديث ١٨ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ ايضاً .

الْقُدُسِ ، وَرُوحُ الْإِيمَانِ ... فَيَرْوِحُ الْقُدُسُ يَا جَابِرُ عَرَفُوا مَا تَحْتَ الْعَرْشِ إِلَى مَا تَحْتَ الثَّرَى» ^(١) .

كما ورد في رواية اخرى عن الامام الباقر ﷺ ايضاً حول تفسير الآية : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ... ﴾ انه ﷺ قال : « مُنْذُ أَنْزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ الرُّوحَ عَلَى نَبِيِّهِ مَا صَعَدَ إِلَى السَّمَاءِ وَإِنَّهُ لَفِينَا » ^(٢) .

هذا التعبير يبين ان الروح الذي يُشكل أحد المنابع الرئيسية لعلوم ومعارف النبي ﷺ ، والائمة المعصومين ﷺ ليس جبرئيل ، وانه حقيقة كامنة في وجودهم قد انتقل من النبي ﷺ اليهم واحداً بعد الآخر .

٥ - الطريق الخامس لمنابع علومهم هو العقل الخارق والذي اودعه الله عزوجل عند الانبياء واوصيائهم المعصومين ﷺ ، نظراً لامكانية ادراك الكثير من الحقائق عن طريقه ، عقل ومعرفة الناس العاديين يضيء شعاعاً خاصاً في حين ان عقول الانبياء والاوصياء لها امتداد واسع جداً ، وهذا هو السبب في كشفهم لحقائق لا يدركها الآخرون .

لذا نقرأ في قصة ليلة المبيت (الليلة التي هاجر فيها النبي سراً من مكة إلى المدينة وترك علياً ﷺ في فراشه) انه : حينما اقتحم اشراف قريش المنزل عند الفجر ، ووجدوا علياً ﷺ في فراش النبي ﷺ ، صاحوا : اين محمد ؟ .
قال ﷺ : اجعلتموني عليه رقيباً ؟ أستم قلتم نخرجه من بلادنا ؟ فقد

(١) نفس المصدر الصفحة ٥٥ الحديث ١٥ ، كما ورد نفس هذا المعنى بتفاوت ضئيل في الاحاديث ١٤ و ٣٥ و ٢٦ .

(٢) نفس المصدر الصفحة ٦١ الحديث ٣٧ .

خرج عنكم ، وهنا قال : « سراقه بن مالك المخزومي » : الآن حيث لا يوجد محمد ﷺ فلا تتركوا علياً عليه السلام واريحوا العالم من وجوده ، قال أبو لهب : كفوا عنه ، فهو مخدوع من محمد وقد أفدى نفسه له .

حينئذ التفت علي عليه السلام إلى أبي جهل وقال : « يَا أَبَا جَهْلُ بَلِ اللَّهُ قَدْ أَعْطَانِي مِنَ الْعَقْلِ مَا لَوْ قُسِمَ عَلَى جَمِيعِ حُمَقَاءِ الدُّنْيَا وَ مَجَانِينِهَا لَصَارُوا بِهِ عَقْلَاءَ ، وَمِنَ الْقُوَّةِ مَا لَوْ قُسِمَ عَلَى جَمِيعِ ضَعَفَاءِ الدُّنْيَا لَصَارُوا بِهِ أَقْوِيَاءَ ، وَمِنَ الشَّجَاعَةِ مَا لَوْ قُسِمَ عَلَى جَمِيعِ جُبَنَاءِ الدُّنْيَا لَصَارُوا بِهِ شَجْعَانًا ، وَمِنَ الْحِلْمِ مَا لَوْ قُسِمَ عَلَى جَمِيعِ سُفَهَاءِ الدُّنْيَا لَصَارُوا بِهِ حُلَمَاءَ » (١) .

فحينما يتمتع علي عليه السلام بهذه المرتبة من العقل والمعرفة فمن المسلم أن يتمتع النبي ﷺ بمثل هذه الموهبة العظيمة بطريق أولى .

كما ان حياة الانبياء تبين ان لهم قسطاً من العقل والمعرفة بحيث يفوق العادة ، وهذا بنفسه هو أحد المنابع المهمة لعلومهم ومعارفهم .

٦ - الطريق السادس والمنبع الاخير هو العلوم التي ورثوها خلفاً عن سلف ، ولدينا أدلة كثيرة على ان الانبياء عليهم السلام قد نقلوا علومهم ومعارفهم إلى الانبياء الآخرين او إلى اوصيائهم واورثوها اياهم .

قال فريق من المفسرين في تفسير الآية : ﴿ وَ وِرَثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ (النمل / ١٦) إن « الارث » هنا يعني ارث علم ومعرفة ذلك النبي ، أو أنه يعني مطلق التوارث الشامل للعلم والمعرفة ايضاً .

كما ان بعض المفسرين اعتبر توارث العلم في قصة زكريا عند تفسير الآية : ﴿ يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ (مريم / ٦) داخلاً في المفهوم

الجامع للآية (١) .

كما نقرأ في العديد من الروايات : ان العلوم التي وهبها الله لآدم (علم الاسماء) لم تغب عن الوجود ، بل ورثها اولاده المنتجبون !
من جملتها ما نقرأه في رواية عن الامام الباقر ﷺ « إِنَّ الْعِلْمَ الَّذِي نَزَلَ مَعَ آدَمَ لَمْ يَزُفْ وَالْعِلْمُ يَتَوَارَثُ ، وَكَانَ عَلَيَّ عَالِمَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يُهْلِكْ مِنَّا عَالِمٌ قَطُّ إِلَّا خَلَفَهُ مِنْ أَهْلِهِ مَنْ عِلِمَ عِلْمُهُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ » (٢) .
وفي حديث اخر عن الامام الباقر ﷺ نقرأ انه قال : « أَمَا إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ وَرِثَ عِلْمَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ » (٣) .

كانت هذه المصادر الستة بمجموعها السبب وراء اطلاع الانبياء الالهيين ، ليس فقط على المسائل المرتبطة بمعارف الدين واحكام الشريعة ، بل وكذلك على العلوم والمعارف الاخرى الاعم من كونها ذات تأثير مباشر في اداء مهمة الرسالة ، او غير مباشر في تكميل اهداف النبوة (تأمل جيداً) .

(١) من جملتهم الألوسي في روح المعاني والسيد قطب في (تفسيره في ظلال القرآن) .
(٢) اصول الاكافي الجزء ١ الصفحة ٢٢٢ (باب ان الائمة ﷺ ورثة العلم) الحديث الثاني ، كما ورد نفس هذا المعنى في الاحاديث ٤ و ٥ و ٨ من نفس ذلك الباب ، وبنفس هذا المنوال الحديث المتصاغر المنقول عن ائمة اهل البيت باسانيد مختلفة .
(٣) نفس المصدر الصفحة ٢٢٤ (باب ان الائمة ورثوا علم النبي) الحديث الثاني .

الانبياء عليهم السلام

وعلم الغيب

تمهيد:

لفظة «الغيب» تقابل «الشهود»، والشهود يطلق على الموارد التي يكون فيها الشيء قابلاً للاحساس والمشاهدة، وبهذا فالغيب يطلق على كل الامور الخافية عن شعور الانسان، ولذا ورد في البعض من آيات القرآنية تعبير «الايمان بالغيب» عند التطرق للايمان بالله واليوم الآخر: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

(البقره / ٣)

وفي موضع آخر يصف القرآن المتقين: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾

(الانبياء / ٤٩)

بل وحتى يمكن أن يعد الشيء واضحاً محسوساً لفرد وغير محسوس لآخر وذلك لعدم حضوره في ذلك المكان حيث يطلق «الغيب» على ذلك أيضاً، كما نقرأ في قصة يوسف عليه السلام أن امرأة عزيز مصر حينما اعترفت بطهارة يوسف في غيابه اضافت قائلة: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ (يوسف) إِنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾

(يوسف / ٥٢)

بعد هذا يدور الكلام حول الانبياء الالهيين وهل أنهم مطلعون على

اسرار الغيب والامور الخافية عن حواس الانسان (الاعم من المحسوس غير الحاضر ، او غير المحسوس اصلاً) ام ان علم الغيب يختص بذاته تعالى ، وانه لاسبيل لسواه اليه ابداً ؟

تبدو آيات القرآن وللوهلة الاولى وكأنها على قسمين متفاوتين : القسم الأول يعتبر علم الغيب خاصاً به تعالى ، والقسم الاخر يقول بامكانه لغيره ايضاً ، ولغرض الاجابة على السؤال اعلاه لابد من مراجعة هذه الآيات اولاً ، ثم التطرق لكيفية الجمع بينها .

اما بالنسبة للقسم الأول فالآيات ادناه ملفتة للنظر :

١ - ﴿ وَ عِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾

(الانعام / ٥٩)

٢ - ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾

(يونس / ٢٠)

٣ - ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾

(النمل / ٦٥)

٤ - ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾

(الانعام / ٥٠)

٥ - ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾

(الاعراف / ١٨٨)

٦ - ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾

(الانعام / ٧٣)

تفسير وفذلكة :

اعتبر علم الغيب في هذه القسم من الآيات وبتعابير شتى خاصاً بالله تعالى وانه لا سبيل لغيره اليه .

يقول في الآية الاولى : ﴿ وَ عِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ .
ان تقديم ظرف المكان (عنده) في أول الآية دليل على الانحصار ، وكذا ذيل الآية الذي يصرح قائلاً : لا يعلمها الا هو .

المفاتيح جمع «مِفْتَاح» (على وزن مِنْجَل) بمعنى المفتاح ، وجمع «مِفْتَاح» (على وزن دَفْتَر) بمعنى الخزانة ومحل حفظ الاشياء^(١) ، وقد ذكر المفسرون كلا المعنيين للآية ، اذ قالوا تارة بان كل خزائن الغيب عند الله ، واخرى كل مفاتيح الغيب ، لكن نتيجة كليهما واحدة وان اختلفت العبارات .

وقد اعتبرها بعض المفسرين ، واستناداً إلى ما جاء في صحيح البخاري في تفسير الآية ، اشارة إلى الامور الخمسة الواردة في اخر سورة لقمان ، لكن لا يخفى ان مفهوم الآية أوسع من ذلك كثيراً ، وشامل لكل خزائن الغيب ومفاتيحه .

ويبدو ان ما جاء في الرواية حول آخر سورة لقمان كان بياناً لمصاديق جليلة له ، ولذا اشار في ذيل الآية مورد البحث إلى كل الاوراق الساقطة من الاشجار ، والحبوب في باطن الارض ، وكل رطب ويابس في عالم الوجود ، واعتبرها ثابتة في اللوح المحفوظ ، لوح علم الباري تعالى .



(١) تفسير الفخر الرازي الجزء ١٣ الصفحة ٨ ذيل الآية مورد البحث .

وفي الآية الثانية كان الخطاب موجهاً إلى نبي الاسلام ﷺ : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ .

وكان هذا في معرض الجواب على المشركين الذين يلحون على النبي ﷺ باظهار المعجزات (المعجزات التي كانوا يقترحونها هم بانفسهم من باب الاصرار والعناد للتذرع بها متى ما شاؤوا) ، وبناءً على هذا فالقرآن يقول للنبي ﷺ : اسحب نفسك من مسؤولية مثل هذه الامور ، انها من اسرار الغيب التي لا يعلمها الا الله ، ومتى ما شاء فسيصدر امره ، فلا تستسلم ابداً لرغبات المتذرعين الحمقاء !



ونفس هذا المعنى جاء في ثالث آية وبتعبير اخر ، حيث ان الله تعالى يعلم نبيه ﷺ أن يقول للمتذرعين الذين يصرون على السؤال عن موعد يوم القيامة ، بان هذا من اسرار الغيب وانه لا أحد في السماوات والارض يعلم الغيب ، وموعد يوم القيامة ومتى يكون البعث ؟ : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُنْعَثُونَ ﴾ .

صحيح ان مورد نزول هذه الآية هو يوم القيامة ، لكن مفهومها أوسع بل شامل لكل الغيوب .



وفي رابع آية يأمر نبيه بصراحة : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ... إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ .

هذا الكلام ايضاً كان رداً على المشركين المعاندين ، الذين يطلبون منه كل

يوم معجزة ثم لم يقتنعوا حتى بمشاهدتها ، كما كانوا يطلبون منه ان يطلعهم على اسرار الغيب .

واعلم جيداً ان جملة ﴿ إِنَّ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ الواردة في ذيل الآية هي احدى المفاتيح لحل غوامض علم الانبياء ﷺ ، والتي سنتكلم عنها بالتفصيل انشاء الله .

كما ورد نظير هذا المعنى وبتفاوت ضئيل في الآية ٣١ من سورة هود ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ (هذا التفاوت هو ان الاولى كانت على لسان نبي الاسلام ﷺ والثانية على لسان نوح عليه السلام) .

نواجه في خامس آية تعبيراً جديداً حول هذا الموضوع ، حيث يؤمر النبي بنفي علم الغيب عن نفسه باستدلال لطيف ، اذ يأمره تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سَتَكُنَّ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ .

مع أن هذه الآية قد جاءت بعد الآية التي تتحدث عن موعد يوم القيامة ، وانحصر علمه بالله تعالى ، لكن مفهومها واستدلالها اوسع كثيراً .

بديهي ان الكثير من المنافع التي تفوت الانسان او الاضرار التي تلحق به ناشئة من عدم وقوفه على عاقبة الامور واسرار الغيب ، ولو كان له اطلاع عليها لتجنب شرها ولجلب لنفسه خيرها ، فعجزه عن ذلك دليل على عدم اطلاعه على اسرار الغيب .

في سادس آية يعتبر علم الغيب احدى الصفات الخاصة بالله تعالى يقول :
﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ﴾ .

هذا التعبير الذي ورد في عدة آيات من القرآن ^(١) باعتباره احدى الصفات البارزة لله تعالى ، يبين ان الله وحده هو المحيط بغيب وشهود الكون ، حيث انها ذكرت كصفة خاصة وفي مقام الحصر ، فيستفاد منها ان غيره تعالى حتى الانبياء لم يكونوا مصاديق لـ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ﴾ .

مع ان المفسرين قد ذكروا عدة احتمالات لتفسير هذه الآية ، اذ فسرها بعضهم بـ «عَالِمُ السِّرِّ وَ الْعَلَانِيَةِ» ، والبعض الاخر بـ «مَا كَانَ وَ مَا يَكُونُ» ، وثالث بـ «العالم بالدنيا والاخرة» ، ورابع بـ «العالم بما هو ظاهر لخلقه وما هو خفي عنهم» ^(٢) ، لكن من الواضح ان كل هذه قد وردت حول معنى الآية بصيغة الجمع ، لان كلمتي « الغيب » و « الشهادة » اللتين تعنيان هنا العموم ، والمذكورتين بـ (ألف ولام الجنس) ، شاملة لكل الغيوب والشهود الاعم من السابقة واللاحقة ، الدنيا والاخرة ، السر واخفى ، السماوات والارض ، الماديات والمجردات .

مع ان هذا التعبير في الآيات العشر المشار اليها ، قد ذكر في كل مناسبة لغرض معين ، وان القرآن استنتج من كل مورد نتيجة ، لكن مفهومه في كلها واحد ، وهو الاحاطة العلمية لله بأسرار الغيب والشهادة الخاصة بذاته المقدسة .

(١) (الانعام / ٧٣) (التوبة / ٩٤ و ١٠٥) (الرعد / ٩) (المؤمنون / ٩٢) (السجده / ٦) (الزمر / ٤٦)
(الحشر / ٢٢) (الجمعة / ٨) (التغابن / ١٨) .

(٢) القرطبي الجزء ٩ الصفحة ٦٥٢٤ (ذيل الآية ٢٢ من سورة الحشر) .

النتيجة :

يمكن الاستنتاج بوضوح من مجموع العبارات الست اعلاه والتي تكرر بعضها في القرآن ان علم الغيب والاحاطة بالاسرار الغامضة خاص بذاته تعالى .

القسم الثاني :

والآن نذهب وراء القسم الثاني من الآيات والتي تعطي الانبياء ﷺ سهماً من علم الغيب ، اذ ينبغي التحقيق فيها جيداً ليتضح الدليل على عدم تضادها مع آيات القسم الأول المستورة بين ثنايا نفس هذه الآيات :

١ - ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا - إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا - لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾

(الجن / ٢٦ - ٢٨)

٢ - ﴿وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾

(آل عمران / ١٧٩)

٣ - ﴿وَ أُتْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾

(آل عمران / ٤٩)

تفسير وفذلكة :

وُصف الله في أول آية بانه : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ المطلق ، اي المطلع على كل الاسرار الخفية ، يقول تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ ثم يستثني قائلاً : ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ .

اي ان الله يطلع مثل هؤلاء الرسل على ما شاء من اسرار الغيب ، وبناءً على هذا فهم بانفسهم لا يعلمون شيئاً عن الغيب ، لكنهم يطلعون عليه بتعليم الهى .

ثم يضيف : ﴿فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (ليحفظه من كل انحراف) ﴿ .

هذا التعبير دليل على مقام عصمة الانبياء ، وكذلك تأكيد على علمهم باسرار الغيب .

هذا طبعاً في حالة كون ﴿رَصَدًا﴾ بمعنى « المراقب » او « المراقبين » من الملائكة الالهيين ، لكن هناك تفاسير اخرى ايضاً لهذه الجملة ، من جملتها ان المراد بـ « رصد » هو الطرق التي رسمها للماضين ، او الذين سيأتون في المستقبل (جملة ﴿مِنْ بَيْن يَدَيْهِ﴾ اشارة إلى الحوادث السابقة و ﴿مِنْ خَلْفِهِ﴾ اشارة إلى الحوادث اللاحقة) .

وقيل احياناً انه اشارة إلى الحفظ من الملائكة الذين يحفظون الانبياء من شر الاعداء ^(١) .

(١) يجب الا يفوتنا ان « الرصد » يعني في الاصل المراقب الذي يكمن في موضع ليراقب الاحداث عن كثب اي الاستعداد للترقب وربما كان اطلاق هذه اللفظة على الطريق لنفس هذا السبب ، والا فاصلها

لكن على أية حال فلا شك في دلالة الآية على اطلاع الانبياء على اسرار الغيب عن طريق التلقين الالهي .

اما فيما يتعلق بجملة ﴿لَيَعْلَمَ اَنْ قَدْ اَبْلَغُوا ...﴾ ، التي جاءت بعد هذه الآية ، وكيفية ارتباطها بالآية التي قبلها ، فللمفسرين احتمالات كثيرة معظمها على خلاف ظاهر الآية ، وتؤدي إلى انعدام الانسجام بين الضمائر بل وحتى بين الجمل في الآية .

والذي يبدو أقرب إلى الصواب هو أن الضمائر في ﴿لَيَعْلَمَ﴾ و ﴿اَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ و ﴿اَخَصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ عائدة كلها إلى لفظ الجلالة « الله » ، وان الضمير في ﴿اَبْلَغُوا﴾ اما إشارة إلى الانبياء او إلى الملائكة الالهيين المأمورين بابلاغ الوحي ، وبناءً على هذا فمفهوم الآية بمجموعها هو : « إنَّ الهدف من تعليم اسرار الغيب او مراقبة الملائكة لكي يعلم الله ان رسله قد ابلغوا رسالات ربهم ، وانه تعالى قد احاط بما لديهم واحصى كل شيء عدداً » .

طبعاً ليس المراد من جملة ﴿لَيَعْلَمَ﴾ انه لم يكن يعلم شيئاً ثم علم ، بل المراد هو التحقق العيني لعلم الله والذي يعتبر عنه بالعلم الفعلي ، اي ان الهدف كان حصول علم الله حول ابلاغ الرسالة وتجسده خارجاً .

فالنتيجة هي ان علم الانبياء ﷺ باسرار الغيب عن طريق الله تعالى او الملائكة ، يكون السبب وراء تكميل ابلاغ الرسالة وتحكيم اسس النبوة (تأمل جيداً) .

الآية الثانية وبعد نفيها لاطلاع عامة الناس على الغيب استثنت الانبياء ﷺ ، يقول تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ .

مع أنه لم تبد هناك إشارة صريحة في هذه الآية إلى مسألة اطلاع الانبياء ﷺ على اسرار الغيب للوهلة الاولى ، لكن نظراً لكون جملة ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ ... ﴾ مشعرة بالاستدراك والاستثناء ، فسيكون مفهوم الآية هو انه ينتخب فريقاً من الرسل ويعلمهم من اسرار الغيب (١) .

صحيح أن بداية الآية إشارة إلى الحوادث التي ميزت صفوف المنافقين عن فريق المؤمنين ، وفضحت ما يكنونه في قلوبهم ، لكن من الواضح ان شأن النزول هذا لا يحدد المفهوم الكلي للآية ، لان الكلام انما هو عن عدم اطلاع عامة الناس على الغيب ، واطلاع الانبياء على ذلك التعليم الالهي .

كما ويستفاد من هذه الجملة ان الاطلاع على الغيب مقام رفيع يمنح للانبياء الالهيين فقط ، وهو في الواقع مكمل لبرامجهم وسبب لتحقيق اهدافهم (تأمل جيداً) .



وهنا يثار سؤالان :

١ - إن هذه المرتبة لا تنحصر بالانبياء والائمة المعصومين ﷺ ، فان بعض الصلحاء ذوي القلوب النورانية الذين بلغوا درجات سامية من الشهود ، مطلعون على زاوية من اسرار الغيب ، فكيف يتلاءم هذا الشيء مع النفي المطلق لإطلاع عامة الناس على اسرار الغيب الواردة في الآية اعلاه ؟



(١) جمهور المفسرين اتخذوا هذا المعنى في تفسير الآية ، لكن البعض ذكر احتمالات واهية لتلك الآية لا علاقة لها بمسألة اطلاع الانبياء على علم الغيب ، شأن النزول الذي ورد في البعض من التفاسير مثل روح المعاني شاهد على ذلك التفسير المشهور ايضاً .

الجواب :

نظراً لكون هذا الاطلاع محدوداً غير ذي شأن قياساً باطلاع الانبياء ﷺ ، فلم يؤخذ في الآية بنظر الاعتبار ، وبعبارة اخرى انّ المراد هو نفي المعرفة الواسعة عن اسرار الغيب ، وهو ما يصدق في حق غير الانبياء ﷺ .

كما يحتمل ايضاً ان يكون للآيتين اعلاه مفهوم واسع بحيث يشمل كلاً من الانبياء وكذلك الملائكة واصحاب الكشوف والشهود ، الذين بلغوا مقاماً عالياً عن طريق المجاهدات النفسية والرياضيات المشروعة وارشادات المعصومين ، لانهم انما يحصلون على معارفهم عن طريق الارتباط بالانبياء والائمة او الملائكة ، وبناءً على هذا فان الله يضع علم غيبه عند انبيائه فقط ثم يستعين الآخرون بهم ، اي بالضبط مثلما ان « مريم » مثلاً ، او امرأة ابراهيم « سارة » اطلعن عن طريق الملائكة الالهيين على البعض من أسرار الغيب فيما يتعلق بولادة عيسى او اسحاق ويعقوب ﷺ .

كما ويحتمل ايضاً كون العلوم العينية على ثلاثة اقسام : قسم منها خاص بذاته تعالى ، لم يطلع عليها سواه حتى الانبياء المرسلين والملائكة المقربين (كالعلم بزمان قيام الساعة وامثالها) .

الثاني : العلوم الغيبية الخاصة التي يودعها الله عند المعصومين (الانبياء والائمة والملائكة المقربين) ، والقسم الثالث : العلوم التي يودعها عند فريق من الاتقياء الذين يبلغون مقام الشهود ، وتزال الحجب عن انظار قلوبهم كما ورد عن بعض اصحاب النبي ﷺ واصحاب ائمة الهدى ﷺ ، مثل سلمان وأبي ذر وميثم التمار ورشيد الهجري وامثالهم ، أو ما نقل في عصرنا عن فريق من العلماء المتقدمين او المتأخرين ، وبالامكان اطلاق اسم « خاص الخاص » على القسم الأول و « الخاص » على الثاني و « العام » على الثالث .

ويمكن ان تكون عبارات من قبيل ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ ﴾ اشارة إلى نفس هذا المعنى ، لأن لفظة « غيبه » لها دلالة على الاسرار الغيبية الخاصة .

٢ - السؤال الاخير هو انه فضلاً عما قيل عن الصلحاء من ارباب الكشف والشهود ، فلقد سمعنا مراراً وتكراراً ان فريقاً من الكهنة في العصر الجاهلي ، او المرتاضين في عصرنا الذين لم يكونوا من اهل الايمان والتقوى ، يخبرون احياناً عن اسرار الغيب او الامور الخافية عن انظار الناس ، ويتوقعون اموراً تحدث بعد ذلك ، أليس هذا منافياً لما قيل أعلاه حول تفسير الآيات ؟

لكن الالتفات إلى نكتة واحدة يكشف الاجابة على هذا السؤال ، وهي إن توقعات المرتاضين واخبارات الكهنة الغيبية لم تكن ابداً أخباراً يمكن الاعتماد عليها ، فضلاً عن عدم خلوّها من الاشتباه باي حال من الاحوال فقد تصدق احياناً وقد تكون كاذبة احياناً اخرى ، وهناك امثلة كثيرة جداً عليها . وبناءً على هذا فلا يمكن ابداً اعتبار هذه الاخبار والمعلومات من علم الغيب ، بل انهم يعترفون بانفسهم احياناً بان هذه الاخبار هي عن الشياطين الذين لا يصدقون القول معهم ابداً !

وبعبارة اخرى ان هناك اشباحاً تتراءى في افق اذهانهم بسبب رياضتهم ، فيفسرون هذه الاشباح من عندهم ، لتقع تارة صحيحة واخرى خاطئة ، مثل الاحلام التي يراها الناس ، والتي تكون تفاسيرهم لها صحيحة احياناً واخرى غير صحيحة .

هذه المعلومات والمطالب الخاطئة والتي يخالطها الشك لا يمكنها ابداً ان تعد من علم الغيب ، او ان تخدم في تفسير الآية .

يدور الكلام في ثالث آية عن معرفة المسيح باسرار الغيب ، واطهاره لها صراحة كمعجزة ، وقوله لمن شك في دعوته : ﴿ ... أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى ... ﴾ (آل عمران / ٤٩) .

ثم يضيف قائلاً : ﴿ وَأُتْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ . وبهذا فلقد وضع مسألة خلق الطائر الحي من الطين ، ومعالجة المرضى الذين يستحيل علاجهم واحياء الموتى ، الى جانب الاخبار عن اسرار الغيب واعتبرها جميعاً أدلة على نبوته .

بديهي ان الطعام الذي يأكله الناس ، او الذي يدخرونه في بيوتهم يتعلق بحياتهم الشخصية ، فليس للاخرين اطلاع عليه عادة ، فاطلاع أحد على هذه الجزئيات ، والحالة هذه دليل على اطلاعه على الغيب .

قال بعض المفسرين ان هذين الموردين هما مجرد مثال ، ولا يمكن ان تتحدد بهما معرفة المسيح ابدأ ، فقد كان يعلم الكثير من اسرار الغيب .

مضافاً الى ما قيل فهناك العديد من آيات القرآن تعد مصداقاً جلياً لاطلاع نبي الاسلام ﷺ على بعض احداث المستقبل ، والتي تعتبر من اسرار الغيب ، كالايات الاولى من سورة الروم : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ ^(١) .

ومن الواضح ان الاخبار عن انتصار دولة مغلوبة على امرها في المستقبل القريب (خلال بضع سنين) وبكل هذه الصراحة والثقة ، ليس بالشيء الذي

يمكن الاحاطة به بالطرق الاعتيادية ، ولهذا فهو مصداق بارز لعلم الغيب .
وفي موضع آخر يخاطب القرآن الكريم المسلمين ﴿ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ
الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ﴾ ^(١) .

وكان هذا الكلام في وقت أحكم فيه المشركون سيطرتهم على مكة ،
وقويت شوكتهم بدرجة بحيث تمكنوا من فرض شروط صلح الحديبية على
النبي ﷺ بحسب الظاهر ، اذن فالأخبار عن النصر السريع للمسلمين عليهم
بشكل يمكنهم من ازالة اكبر عقبة تعترض طريقهم ، ودخول مكة بكل اطمئنان
لم يكن سوى إخبار غيبي .

وفي موضع آخر حينما علم النبي ﷺ بان احدى زوجاته قد اطلعت
الاخرين سراً على أمر كان اودعه عندها ، سألته قائلة . « مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا » .
قال ﷺ : ﴿ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَيْرُ ﴾ ^(٢) .

وكذلك حينما اخفى فريق من المنافقين اعمالهم الشنيعة ، وجاؤوا باعذار
واهية لغرض عدم الاشتراك في غزوة تبوك ، قال لهم الرسول : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ
تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ ^(٣) .

كما يخبر في موضع اخر عن حتمية هزيمة المشركين صراحة ، مع انهم
كانوا بكامل قوتهم ، حيث يقول : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرُونَ ﴾ .
ويضيف على الفور : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ ^(٤) .

لا شك ان المسلمين كانوا قلة قليلة حين نزول هذه الآيات والعدو في أوج
القدرة والغطرسة ، وتوقع مثل هذا النصر المؤزر والسريع غير ممكن بالطرق

(١) (الفتح / ٢٧) .

(٢) (التحریم / ٣) .

(٣) (التوبة / ٩٤) .

(٤) (القمر / ٤٤ و ٤٥) .

الاعتيادية ، ولكن لم يمض وقت حتى وجهوا ضربة قاصمة الى العدو في اول لقاء طاحن معه ، اي في معركة بدر ثم توالى الانتصارات الواحدة تلو الاخرى ، وخضعت كل الجزيرة العربية لراية الاسلام خلال فتر قصيرة .

ونظير هذا المعنى جاء في سورة التوبة الآية ١٤ و ١٥ يقول تعالى :
﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِيهِمْ وَ يُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ - وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ .

وورد نفس هذا المعنى في سورة آل عمران الآية (١١١) حيث يخاطب القرآن اصحاب النبي ﷺ ويقول : ﴿ وَ اِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوْكُمْ اَلَا ذُبَارٌ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ .

كل التعابير التي في هذه الآيات تخبر بشكل قاطع عن انتصار المسلمين وهزيمة الاعداء ، ذلك الاخبار الذي لم يكن يصدق به احد في ذلك الزمان .
ونفس هذا المعنى ورد بقلب اخر في سورة القصص الآية ٨٥ ، عندما اضطر الرسول ﷺ الى ترك أرض مكة المقدسة ، نتيجة للضغط الشديد الذي عاناه من قبل المشركين ، الذين كانوا بكامل قدرتهم في ذلك الوقت حيث نزلت الآية : ﴿ اِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ اِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ .

هذه البشارة القطعية في تلك الفترة العصيبة حين كان المسلمون اضعف ما يكونون بحسب الظاهر لم تكن سوى خبر غيبي .

وفي آية اخرى حينما كان يستبشر الاعداء بانقراض ذرية النبي ، وعدم وجود من يحافظ على دينه باعتبار انحصار عقبه في ابنته فاطمة الزهراء ﷺ فقط ، وقالوا بأن « محمداً ابتر » ، نزلت سورة الكوثر وبشرت النبي ﷺ بخبر حتمي باننا اعطيناك خيراً كثيراً ... وان عدوك هو الابتر الذي لا عقب له بكل تأكيد :
﴿ اِنَّا اَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ اِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْاَبْتَرُ ﴾ .

واليوم نجد ان نسل ذلك العظيم قد انتشر عن طريق ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام في كل ارجاء المعمورة ، وظهر منهم الكثير من القادة الذين وظّفوا انفسهم لخدمة الاسلام طيلة عمرهم .

في حين ان من كان يطعن بالنبي ﷺ بذلك (مشركو قريش) ، قد اضمحلوا ولم يبق لهم اليوم اثر يذكر ، ولو بقي شيء على سبيل الفرض فهو غير معروف . وبهذا فقد أمسى كل واحد منهم ابتراً ، والنبي ﷺ ذا نسل عظيم . ونواجه في سورة النحل الآية (٢٨) ملاحظة اخرى تعد من اخبارات القرآن الغيبية ، يقول تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

مع ان الكثير من المفسرين يعتبرون جملة ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ اشارة الى الحيوانات التي ستخلق مستقبلاً ، او التي ستؤلف عند الانسان ، او كل الاشياء الضرورية التي سيخلقها الله في المستقبل الاعم من الحيوانات وغيرها ، ولكن ادراك مفهوم هذه الجملة بالنسبة لنا نحن الذين نعيش في عصر المحركات القوية أمرٌ يسير - كما اشار الى ذلك بعض المفسرين المتأخرين كالمرآغي والسيد قطب في الظلال ، بل هو اخبار القرآن عن عصرنا ، ولا منافاة بين عبارة (يخلق) مع اختراعها من قبل الانسان ، اذ ان عمل الانسان ليس سوى تركيب المواد التي خلقها الله تعالى ، هذا اولاً .

وثانياً : إن ابتكار الانسان في صنع هذه الوسائل ناتج من الاستعداد الذي وهبه الله تعالى له ! كل هذه الآيات تبين ان الله قد وضع بعضاً من العلم الغيبي تحت تصرف نبيه ﷺ .

الثمرة من مجموع آيات علم الغيب :

اوضحنا الى الآن طائفتين من الآيات التي تتحدث عن علم الغيب ، طائفة تنفي علم الغيب عن الانبياء ﷺ على الاطلاق والاخرى تُثبِتُهُ . وحينما نضعهما الى جانب بعضهما البعض ، ونجمع بينهما ندرك مفهومهما الاصلي النهائي (وهذا ما يمكن اداؤه عن طريق التفسير الموضوعي بسهولة) وهو الطريق الاول للجمع بينهما .

اجل يستفاد من مجموع هذه الايات بوضوح ان علم الغيب باطلاقه وبلا قيد او شرط مختص بـ « الذات » المقدسة فحسب .
هو المحيط بكل عالم الغيب والشهود ، وهذا العلم قائم بذاته المقدسة غير منفك عنها ابداً .

اما الآخرون (كالانبياء والائمة المعصومين والملائكة) فالطريق الوحيد لاطلاعهم على علم الغيب هو التلقين الالهي فحسب .
وبعبارة اخرى أن اشهر طريق للجمع بين هذه الآيات هو القول بان المراد باختصاص علم الغيب بالله تعالى هو « العلم الذاتي الاستقلالي » ، ولذا فلا اطلاع لاحد غيره على اسرار الغيب مستقلاً ، بل لا بد ان يكون منه تعالى وعن طريق تعليمه ولطفه وعنايته ، وهذا في الواقع له « ميزة غير استقلالية » .
الادلة على الجمع بين الآيات اعلاة كثيرة يمكن الاحاطة بها بالتحقيق والتدقيق فيها ثانية .

كما ان الاحاديث الشريفة ايضا تشير اشارة لطيفة الى هذا الامر :
منها ما ورد في نهج البلاغة ان علياً عليه السلام خلال حديثه للإخبار عن وقائع المستقبل (وتوقعه لهجوم المغول على الدول الاسلامية) قال : كاني اراهم قوماً كأنّ وجوههم المجان المطرقة ... فقال احد اصحابه : لقد اعطيت يا امير

المؤمنين علم الغيب .

فابتسم ﷺ وقال : ليس هو بعلم غيب ، وانما هو تعلم من ذي علم (اي من النبي ﷺ) (١) .

الطريق الثاني : للجمع بين هذين القسمين من الآيات هو القول بان علم الغيب الذي يختص بالله هو الاطلاع على اللوح المحفوظ ، الذي يتحقق كل ما فيه بلا زيادة ولا نقص لا محالة ، (وهو في الواقع علم بالعلل التامة للاشياء التي لا تنفك ابداً عن معلولاتها) .

واما الانبياء والائمة المعصومون ﷺ فلهم اطلاع على لوح المحو والاثبات القابل للتبديل والتغيير ، لانه علم بـ « العلل الناقصة » لا « العلل التامة » . وبعبارة اخرى إنّ من المحتمل ان تتواجد هناك موانع تعترضها وتغيرها ، او تغيب شروط تكاملها ، كما جاء في حديث عن الامام علي بن الحسين ﷺ انه قال : « لولا آية في كتاب الله لحدثتكم بما كان وما يكون الى يوم القيامة ! فقلت له : اية آية ؟ فقال : قول الله : يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (اي اللوح المحفوظ) (٢) .

الطريق الثالث : للجمع بين هذه الآيات هو القول بانقسام اسرار الغيب الى قسمين : احدهما يختص به تعالى ولا يعرفه احد سواه ، والاخر هو الذي يُعَلِّمه لانبيائه واوليائه ، كما جاء في نهج البلاغة ذيل الخطبة المتقدمة انه ﷺ قال : ﴿ وَائِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا عَدَدُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُهُ : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ (آخر آية من سورة لقمان) ، (لا اطلاع لاحد على كمّه وكيفه وجزئياته وان كان اصل نزوله قابلاً للاحتمال) وَيَعْلَمُ مَا فِي

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ١٢٨ .

(٢) نور الثقلين الجزء ٢ الصفحة ٥١٢ الحديث ١٧٠ .

الارحام (لم يكن اطلاعه على جنسيته وهل انه ذكر او انثى فحسب ، بل على كل القابليات والمميزات التي تكمن في جسمه وروحه) وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴿ (المراد هو العلم التفصيلي بهذه الامور) .

ثم يضيف في خاتمة هذا الكلام : « فيعلم الله سبحانه ما في الارحام من ذكر او انثى وقبيح او جميل ، وسخي او بخيل ، وشقي او سعيد ، ومن يكون في النار حطباً ، او في الجنان للنبيين مُرافقاً ، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه احد الا الله ، وما سوى ذلك فعلم عَلمه الله نبيه فعَلمَنيه ، ودعا لي بان يَعِيَهُ صدري ، وتَضَطَّمُ عليه جوانحي » ^(١) .

وعلى هذا فالذي يختص بالذات المقدسة هو العلم بكل خصوصيات وتفصيل الاجنة الروحية والبدنية .

نفس هذا الكلام يمكن تطبيقه على نزول المطر واعمال الانسان او مكان موته والذي لا يعلم جزئياته الا الله تعالى .

الطريق الرابع للجمع بين هذه الآيات هو التفريق بين « العلم الفعلي » و « العلم الشأني والاستعدادي » ، اذ لا يخفى شيء عن علمه اللامحدود ، في حين ان الكثير من اسرار الغيب يمكن ان تغيب عن الانبياء والاولياء فعلاً ، لكن الله يعلمهم ذلك متى ما ارادوا (طبعاً هذه الارادة لا تتحقق الا باذنه تعالى ورضاه) (تأمل جيداً) .

هذا المطلب يشابه حالة كون كل الاسرار العسكرية لدولة ما مدونة في كتاب ضخمة محفوظ عند شخص او اشخاص منتخبين من قبل الدولة بحيث يمكنهم الاطلاع عليه باذن من القائد العام للقوات المسلحة ، فالقائد هنا له

احاطة تامة بهذا الكتاب كما ويمكن للاخرين ايضاً الاطلاع عليه متى شاؤوا (على فرض كون مراجعتهم للكتاب مرهونة بإذن القائد واجازته طبعاً) .

الدليل على هذا الكلام هو الروايات التي جمعها المرحوم الكليني في كتاب الكافي في فصل تحت عنوان « ان الائمة اذا شاؤوا ان يعلموا علموا »^(١) .

نستنتج من مجموع ما قيل ان للانبياء والاولياء اطلاعاً على علم الغيب بلاشك ، كما ويمكن استخلاص طرق الجمع بين الروايات المرتبطة بعلم الغيب باربعة :

١ - العلم الذاتي المستقل خاص بالله ، وعلم الانبياء والاولياء يرتبط به تبعاً .

٢ - العلم التفصيلي هو من شأنه تعالى ، والعلم الاجمالي من شأن الاولياء والانبياء .

٣ - العلم باللوح المحفوظ خاص بالله ، والعلم بلوح المحو والاثبات من شأن الانبياء والاولياء عليهم السلام .

٤ - العلم الفعلي خاص بالله ، والعلم بالقوة من شأن الانبياء والاولياء .

روايات علم الغيب :

إنَّ لمسألة « علم الغيب » بالنسبة الى الانبياء والاولياء عليهم السلام بحثاً موسعاً في الروايات الاسلامية ايضاً ، وقد ذكرت كل الفرق الاسلامية نماذج كثيرة عن علم

الغيب فيما يرتبط بالنبي الاكرم ﷺ ، أو ائمتهم وقادتهم ، ونسبة مسألة علم الغيب الى الشيعة من قبل بعض المغفلين ، او القول بانهم يعتبرون ائمة اهل البيت ﷺ شركاء مع الله في هذه الصفة ، اشتباه عظيم لا يمكن جبرانه ، لانه :
 أولاً : لا يرى اي واحد من علماء الشيعة اي انسان لا نبي الاسلام ﷺ ولا الائمة ﷺ نظراء مع الله تعالى باية صفة ابدأ ، واعتقادهم بعلمهم بالغيب انما هو من باب « تعلم من ذي علم » (الائمة من النبي والنبي من الله العظيم) .
 وبعبارة اخرى ، كما ان كل ما لدينا هو من عند الله واننا محتاجون اليه ومتعلقون به في كافة شؤون حياتنا ، فكذلك علم غيب النبي ﷺ والائمة ﷺ انما هو من عند الله ومرتبطة بعلمه .

ثانياً : اطلاع الانبياء والاولياء ﷺ على الغيب مسألة واردة بكثافة في الروايات ايضاً ، فضلاً عن الآيات القرآنية ، وحسبنا ما في كتب اهل السنة من ان لبعض الصحابة وغيرهم فضلاً عن النبي ﷺ ، اطلاع على كل اسرار الغيب او جلّها !

ويكفي هنا ذكر خلاصة البحث التحقيقي الذي ذكره العلامة الاميني في كتابه « الغدير » الجزء ٥ ، (بالاضافة الى التطرق لبعض الروايات الاخرى اكماً للبحث) :

١ - جاء في الكثير من المصادر المعروفة لاهل السنة ان « حذيفة » قال : ان النبي الاكرم ﷺ علمني علم ما كان وما يكون الى يوم القيامة ^(١) .

٢ - وجاء في حديث اخر عن « حذيفة » ايضاً انه قال : والله اني لأعلم

(١) صحيح مسلم (كتاب الفتن باب اخبار النبي ﷺ فيما يكون الى قيام الساعة) ، مسند احمد الجزء ٥ الصفحة ٣٨٦ وكتب اخرى .

الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة^(١) .

٣- نقرأ في حديث آخر في صحيح مسلم ان ابا زيد اي « عمرو بن اخطب » قال : صلى النبي الاكرم ﷺ صلاة الصبح ، ثم ارتقى المنبر وخطب خطبة دامت الى الظهر ثم صلى الظهر وصعد المنبر الى صلاة العصر ثم نزل وصلى العصر وصعد المنبر ثانية وخطب الى غروب الشمس ، « فاخبرنا بما كان وبما هو كائن فاعلمنا اخفظنا »^(٢) .

ثم يذكر احاديث اخرى متعرضة لمسائل الغيب في بعض الاحيان عن بعض من الصحابة وامثالهم ، من جملتها قوله : وذكر الخطيب البغدادي في تأريخه عن ابي الحسن المالكي قال : كنت اصحب - محمد بن اسماعيل - سنين كثيرة ، ورأيت له من كرامات الله تعالى ما يكثر ذكره ، انه قال لي قبل وفاته بثمانية ايام ، اني اموت يوم الخميس المغرب فاذقني يوم الجمعة قبل الصلاة قال ابو الحسن : فانسيته الى يوم الجمعة فلقيني من خبرني بموته ، فخرجت لاحضر جنازته فوجدت الناس راجعين ، فسألتهم لم رجعوا فذكروا انه يدفن بعد الصلاة . فبادرت ولم التفت الى قولهم فوجدت الجنازة قد اخرجت للدفن قبل الصلاة !

ثم يضيف العلامة الاميني : توجد في طي كتب الحفاظ ومعاجم اعلام القوم قضايا جمّة في اناس كثيرين ، عدوها لهم فضلاً وكرامة تنبيء عن علمهم بالغيب وبما تخفي الصدور ولا يراها احد منهم شركاً وهو ما يدعو للعجب^(٣) .

(١) مسند احمد الجزء ٥ الصفحة ٣٨٨ .

(٢) صحيح مسلم الجزء ٤ الصفحة ٢٢١٧ (باب اخبار النبي فيما يكون الى قيام الساعة من كتاب الفتن) يتبين من هذا الحديث انه ﷺ كان مشغولاً ببيان اخبار الغيب لا صحابه يوماً باكملة من طلوع الفجر الى غروب الشمس .

(٣) الفدير الجزء ٥ الصفحة ٥٩ - ٦٢ (باختصار) وورد الحديث الاخير في تأريخ بغداد الجزء ٢ الصفحة ٤٩ .

كما نشاهد مسائل علم الغيب في روايات اهل البيت ﷺ بكثافة ايضاً ، من جملتها الباب الذي عقده المرحوم العلامة المجلسي في « بحار الانوار » الجزء (٢٦) حول هذا الموضوع ، وجاء بالعشرات من الروايات حول اطلاع الائمة المعصومين ﷺ على علم الغيب ، من جملتها الرواية التي وردت بتعابير شتى ، ومن مختلف الطرق من ان الامام الصادق عليه السلام قال :

« أترى من جعله الله حجة على خلقه يخفى عليه شيء من امورهم ؟ » .
ونقرأ عبارة اخرى لهذا الامام نفسه : « ان الله احكم واكرم واجل واعلم من ان يكون احتج على عباده بحجة ثم يغيب عنه شيئاً من امورهم » ^(١) .

كما نعر في نهج البلاغة ايضاً على العديد من الجمل التي تخبر عن الاطلاع الواسع لعلي عليه السلام على علم الغيب ، لكن وكما قال هو بنفسه في الخطبة (١٢٨) فهذه ليست علم غيب (استقلالي ذاتي) ، بل هي تعلم من ذي علم (اي نبي الاسلام ﷺ الذي تعلم هو بدوره من الله تعالى) .

هذه الاخبار الغيبية جاءت في عدة خطب من جملتها الخطبة (١٣) حول احداث البصرة القادمة .

وفي الخطبة (٤٧) حول مستقبل الكوفة .

وفي الخطبة (٥٧) حول بعض سلاطين بني امية .

وفي الخطبة (٥٩) حول عدد قتلى الخوارج واصحابه ومريديه في معركة النهروان وذلك قبل نشوبها .

وفي الخطبة (١١٦) حول ظهور الحجاج وجنayaته العجيبة البشعة في المستقبل .

وفي الخطبة (١٢٨) حول الفتن العظيمة التي ستقع في البصرة (فتنة

صاحب الزنج او الاتراك والمغول) .

وفي الخطبة (١٣٨) حول احداث الشام في المستقبل .

وفي الخطبة (١٥٨) حول المظالم الفجيعة لبني امية .

وفي الحكمة (٣٦٩) يتعرض لحوادث آخر الزمان .

واللطيف هنا هو اتكاؤه في الكثير من هذه الموارد على الجزئيات ، وعدم اقتناعه ابداً بذكر الكلّيات التي ربما تخطر على ذهن المتأمل الفطن غير المعصوم ايضاً ، يتضح جيداً ان كل هذه الاخبار نابعة من الاطلاع على علم الغيب .

ونذكر هنا ما جاء في الخطبة (٥٩) حول خوارج النهروان كمثال على ذلك ، قال : « مصارعهم دون النطفة ! والله لا يفلت منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة » ! .

وفي الخطبة (٦٠) حينما قالوا لعلي عليه السلام ، لقد اضمحل الخوارج وانقرضوا ، قال : كلا ! والله انهم تُطْف في اصلاب الرجال وقرارات النساء ، كلما نَجَمَ منهم قرنٌ قطع ، حتى يكون آخرهم لصوصاً سلابين !

فأشار عليه السلام هنا الى مسألة اخماد نار الخوارج خلال مختلف الانظمة وعاقبة امرهم ايضاً ، وعلى حد قول ابن ابي الحديد « وهكذا وقع وصحّ اخباره عليه السلام ايضاً انه سيكون آخرهم لصوصاً سلابين ، فان دعوة الخوارج اضمحلت ، ورجالها فنيت ، حتى افضى الامر الى ان صار خَلْفُهم قطاع طريق ، مُتظاهرين بالفسوق والفساد في الارض » .

ثم تعرض بعد ذلك لمقاطع مختلفة من تأريخهم بالتفصيل ، وخروج بعضهم في ايام الخلفاء والقضاء عليهم ^(١) .

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد الجزء ٥ الصفحة ٧٣ .

زبدة الكلام هي أنّ مسألة العلم بأسرار الغيب سواء فيما يتعلق بالماضي أو المستقبل أو حتى الأمور الخافية عن الانظار في الوقت الحاضر، ليست بذلك الشيء الذي يمكن انكاره من وجهة نظر القرآن، والأحاديث الاسلامية وتواريخ الانبياء والاولياء ﷺ .

وهذه المسألة من الوضوح بحيث انهم عدوا احتمال القرآن على الاخبار الغيبية احد وجوه اعجازه ، وقد اشير في كتب اعجاز القرآن الى تلك الموارد على الاعم الاغلب ، كما تعرّضنا نحن أيضاً في التفسير الامثل الى الموارد المرتبطة بهذا القسم في ذيل كل آية ، الم يكن القرآن تعليماً الهياً لنبي الاسلام ﷺ ؟ فما هو الفرق بين تعليمه عن طريق القرآن او غيره ؟ !

حدود علم الغيب وكيفيته :

لا كلام في مسألة اطلاع الانبياء والائمة المعصومين ﷺ على علم الغيب عن طريق التعليم الالهي ، وقد تقدمت ادلتها مفصلة في الابحاث السابقة . لكن هناك كلاماً مطوّلاً حول كيفية هذا العلم ومساحته ، وهذه المسألة تعدّ من اعقد المسائل التي تواجه في مثل هذه الابحاث ، وقد وردت بحقّها اخبار متفاوتة كما وتلاحظ هنالك آراء متنوعة من قبل العلماء ايضاً ، ومجموع هذه الاحتمالات الاساسية في هذه المسألة كالتالي :

١ - انهم يرون كل شيء « بالفعل » باستثناء القسم الخاص بالذات المقدسة ، كالعلوم الخمسة الواردة في آخر لقمان والتي تمت الاشارة اليها سابقاً ، وكالعلم بكنه ذات الباري جلّت قدرته وكنه أسمائه وصفاته .

الدليل على هذا الكلام هو الروايات المتظافرة التي تقول صراحة : ان

للائمة « علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة » ، ومن البديهي ان للنبي ذلك العلم بطريق اولي .

المرحوم الكليني وفي اصول الكافي ذكر باباً تحت عنوان : « ان الائمة عليهم السلام يعلمون علم ما كان وما يكون وانه لا يخفى عليهم الشيء » ^(١) .

٢ - انهم يعلمون كل هذه الامور لكن « بالقوة » لا « بالفعل » ، اي انهم كلما شاؤوا ان يعلموا شيئاً من اسرار الغيب الهمهم الله به ، او انهم يمتلكون قواعد واصول يستندون عليها للاطلاع على كل اسرار الغيب ، او ان معهم كتباً يطلعون على اسرار الغيب من خلال التأمل فيها ، او انهم يعلمون بهذه الاسرار كلما شاء الله ذلك ، اي كلما منحهم حالة البسط إصطلاحاً ، في حين ان هذه العلوم تختفي عند عودة المشيئة وحصول حالة القبض كما يصطلح على ذلك .

الدليل على هذا القول (في الحالة الاولى) هو الروايات القائلة : ان الائمة والقادة المعصومين اذا ارادوا ان يعلموا شيئاً علموه ، وقد عقد المرحوم الكليني في اصول الكافي باباً حول هذا الموضوع تحت عنوان : « ان الائمة اذا شاؤوا ان يعلموا علموا » ^(٢) .

هذا البيان يحل الكثير من المشاكل المتعلقة بعلم الانبياء والائمة ايضاً ، من جملتها انه لماذا شرب الامام الحسن عليه السلام مثلاً من ماء الجرّة المسموم ؟ ، وتناول الامام الثامن عليه السلام العنب او الرمان المسموم ؟ ، لماذا انتخبوا فلاناً المناسب للقضاء او القيادة ؟ ولماذا كان يعقوب قلقاً الى ذلك الحد على ابنه ؟

(١) اصول الكافي الجزء ١ الصفحة ٢٥٨ (ذكر المرحوم الكليني في هذا الباب ست روايات) كما ان المرحوم العلامة المجلسي قد تعرض لشرح هذه الروايات في مرآة العقول الجزء ٣ من الصفحة ١٢٩ - ١٣٤ .

(٢) نفس المصدر الصفحة ٢٥٨ (ذكرت في هذا الباب ثلاث روايات بنفس هذا المضمون) كما اشار اليها المرحوم العلامة المجلسي في مرآة العقول الجزء ٣ الصفحة ١١٨ .

مع ان ابنه كان يتدرج في المناصب الحساسة ، ثم استبدل الفراق الى الوصال في خاتمة المطاف ، لماذا ... ، ولماذا ... ؟

يمكن القول انهم وفي كل هذه الموارد لو شاؤوا ان يعلموا لعلموا ، لكنهم كانوا يعلمون ان الله لم يجز لهم الاطلاع اما اختباراً او لمصالح اخرى .
يمكن توضيح هذه المسألة بذكر هذا المثال : لو اعطى احد رسالة حاوية على اسماء اشخاص او مناصبهم او على حقائق سرية اخرى ، لشخص اخر .
فبامكان ذلك الشخص الاطلاع على هذه الحقائق بمجرد فتح الرسالة ، لكن حيث انها لم تفتح بعد فليس له اطلاع على محتواها ، كما إن الشخص المهم الذي اعطاه الرسالة كان قد أوكّل فتح الرسالة باذنه واجازته هو .

٣ - المراد من اطلاع المعصومين على علم الغيب هو الاطلاع على كل المسائل المرتبطة بهداية البشرية بصورة مباشرة او غير مباشرة ، وبناءً على هذا فهم مطلعون بالفعل على كل المعارف والاحكام ، وتواريخ الأنبياء ومسائل الخلق والحوادث السابقة واللاحقة الى كل ما يرتبط بهداية الناس ، لكن ليس من الضروري القول بما هو خارج عن نطاق هذه الدائرة في حقهم .

الروايات المتعددة التي اشرنا اليها والقائلة بـ : « ان الله احكم واكرم واجلّ واعظم واعدل من ان يحتج بحجة (للخلق) ثم يغيب عنه شيئاً من امورهم »^(١) .
ونقرأ في حديث اخر عن الامام الصادق عليه السلام انه قال : « من زعم ان الله يحتج بعبد في بلاده (بين خلقه) ثم يستر عنه جميع ما يحتاج اليه فقد افترى على الله ! »^(٢) .

(١) البحار الجزء ٢٦ الصفحة ١٣٨ الحديث الخامس (ورد هذا الحديث قبل عدة صفحات بتفاوت ضئيل) .

(٢) نفس المصدر الصفحة ١٣٩ الحديث الثامن .

هذه كلها اشارة الى العلوم الضرورية لهداية الخلق .

٤ - انهم مطلعون على كل اسرار الغيب ، لكن اطلعهم هذا مبتني على اصول كلية ، فهم يعلمون بكليات كافة الامور ، في حين ان العلم بكليات العالم وجزئياته كلها مخصوص بذاته تعالى .

هذا الكلام في الواقع يشبه ما ورد في روايات متعددة من ان علياً عليه السلام قال : « ان رسول الله ﷺ علمني الف باب من الحلال والحرام ومما كان ومما يكون الى يوم القيامة ، كل باب منها الف باب فذلك الف الف باب » (١) .

العدد (ألف) في هذا الحديث سواء كان للتعداد او كناية عن الكثرة فهو دليل على الكثرة ، التي تفوق الحد لابواب العلم التي علمه اياها النبي ﷺ ، وكذلك اشارة الى اشتغال هذه الابواب على سلسلة من الاصول الكلية التي تطل عليها مئات بل آلاف الابواب الاخرى .

والملاحظة الجديرة بالاعتبار هي ان الحديث ، اذا شاؤا ان يعلموا علموا يمكن ان يكون اشارة الى نفس هذا المعنى وهو انهم اذا شاؤا ان يعلموا بعضاً من الجزئيات ، لراجعوا الاصول الكلية التي علمهم اياها الله تعالى او النبي ﷺ واطلعوا عليها .

٥ - ان علمهم يكون بكل حقائق العالم لكن من خلال « لوح المحو والاثبات » ، في حين علم الله بكل الحقائق هو من خلال « اللوح المحفوظ » . بيان ذلك : حوادث الكون لها مرحلتان : المرحلة القطعية التي لا سبيل لأي تغيير اليها، اي ان حادثة ما بكل اسبابها وعللها حاضرة عند العالم ، وحيث

(١) المرحوم العلامة المجلسي عقد في المجلد الرابعين باباً تحت نفس هذا العنوان (ان النبي ﷺ علمه الف باب) وذكر ٨٢ حديثاً حول هذا الموضوع والذي ذكرناه اعلاه هو الحديث السادس (بحار الانوار الجزء ٤٠ الصفحة ١٣٠) .

انه مطلع على كل اسبابها وعللها وموانعها وعلاقتها بالماضي والمستقبل ، فهو يعلمها قطعاً ويخبر عنها بجدية ، وقد تم التعبير عن هذه المرحلة في لسان الآيات والروايات بـ «ام الكتاب» او «اللوح المحفوظ» .

الآخرى هي «المرحلة غير القطعية» او بعبارة اخرى «المرحلة المشروطة» ، فالشخص العالم مطلع على علل الحوادث في هذه المرحلة ، لكن من الممكن عدم وضوح كل شروطها وموانعها لديه ، ولذا لا يمكنه البت في وقوع الحوادث انما يمكنه ذلك مشروطاً ، وهذا ما تم التعبير عنه في لسان الآيات والروايات بـ «لوح المحو والاثبات» .

التفاوت بين علم الله وعلوم الانبياء والاولياء هو نفس التفاوت بين هاتين المرحلتين ، اي انه فضلاً عن كون احدهما ذاتياً ومستقلاً دون الآخر فان لاحدهما صفة القطع والبت دون صاحبه .

٦ - اخر كلام ونظرية يمكن بيانها فيما يتعلق بكيفية اطلاع الانبياء والاولياء ﷺ على اسرار الغيب ، هو القول باطلاعهم عليها اجمالاً ، لكن ما هي مساحة ذلك يا ترى ؟ فلا نعلم ذلك بالدقة ، وما نعلمه فقط هو ان الله العالم يعلمهم كلما وجد في ذلك مصلحة وضرورة ، لكن كيف ؟ وكم ؟ فهذا ما لا نعلمه .



كانت هذه هي الطرق الستة التي يمكن ذكرها للإجابة على مسألة كيفية اطلاع الانبياء والاولياء ﷺ على اسرار الغيب وحدود ذلك .

ونظراً الى ان البحث حول كل الجزئيات المرتبطة بعلم الغيب قد افرد في كتاب مستقل ، فضلاً عن ان هدفنا الرئيس من عرض هذه المباحث شيء آخر

(وهو رفع التضاد الذي ربما يتوهمه بعض المغفلين بين الآيات المرتبطة بعلم الغيب) فسنوكل مزيداً من الشرح والتفصيل حول هذا الموضوع ، واختيار النظرية الاقوى من بين هذه النظريات الى بحثه الخاص .

اثبات علم القادة
الالهيين
عن طريق العقل

اثبات علم القادة الالهيين عن طريق العقل

كان الكلام لحدّ الآن عن الآيات والروايات التي اثبتت مسألة علم الغيب للانبياء والائمة المعصومين عليهم السلام ، لكن علاوة على ذلك فهناك طريق اخر ايضاً لاثبات هذا المعنى بمنطق العقل ، الا وهو عجزهم عن اداء وظيفتهم على اتم وجه في حالة عدم اطلاعهم على اسرار الغيب أو بعض منها .

بيان ذلك : نحن نعلم ان دائرة وظيفتهم واسعة جداً ، سواء من الناحية الزمانية او المكانية ، خصوصاً فيما يتعلق بمسألة رسالة نبي الاسلام صلى الله عليه وآله وامامة الائمة عليهم السلام اذ هي « عالمية » و « وخالدة » ، اي انها شاملة لكل بقاع العالم ومحيطه بكل الازمنة الى قيام الساعة .

هل يمكن لمحافظ مدينة ما مثلاً ان يؤدي دوره في تلك المحافظة دون الوقوف على اوضاع اهاليها ، وامكانات المنطقة وامتيازاتهم ومحرومياتهم ؟ من البديهي انه غير قادر على ذلك .

ومع هذا فكيف يمكن لرسول مرسل الى البشرية جمعاء ، والى يوم القيامة تبليغ رسالته دون الاطلاع على وضع العالم الى اخر يوم من مهمته ؟! بديهي انهم لا يتمكنون من الاحاطة بكل الاعصار والقرون ، او الاطلاع

على الاقوام والطوائف عن طريق العلوم الاعتيادية ، اذن فلا سبيل لهم الى ذلك سوى علم الغيب (بالتعليم الالهي) .

علاوة على ذلك فمساحة دائرة مسؤوليتهم لا تنحصر بالظواهر فحسب انما تمتد لتشمل ظاهر المجتمع ، وباطنه وداخل الانسان وخواجه ايضاً . اتساع الوظيفة هذا يستلزم بدوره الاطلاع على اسرار افراد المجتمع الباطنية ايضاً ، وهذا هو نفس ذلك الذي ينعكس في روايات متعددة بشكل استدلال عقلي ، لا حكم تعبدي (تأمل جيداً) .

الامام الصادق عليه السلام على سبيل المثال يقول لاحد الرواة باسم « عبد العزيز الصائغ » في حديث اشرنا اليه سابقاً : « اترى ان الله استرعى راعياً (على عباده) واستخلف خليفة عليهم يحجب عنه شيئاً من امورهم »^(١) ؟ ! .

كما ورد نفس هذا المعنى بتعبير اوضح في حديث ابراهيم بن عمر انه قال ، قال الامام الصادق عليه السلام : « من زعم ان الله يحتج بعبد في بلاده ثم يستر عنه جميع ما يحتاج اليه فقد افترى على الله »^(٢) .

العلوم الاخرى للانبياء في القرآن المجيد :

يستفاد بوضوح من آيات قرآنية مختلفة ان لبعض الانبياء الالهيين فضلاً عن العلوم المرتبطة بهداية الخلق وتربيتهم والحفاظ على نظام المجتمع البشري والبلوغ الى الاهداف النهائية للخلق ، علوماً اخرى ايضاً ، من جملتها الموارد ادناه :

(١) بصائر الدرجات طبقاً لما نقله البحار الجزء ٢٦ الصفحة ١٣٧ الحديث الثاني .

(٢) نفس المصدر الصفحة ١٣٩ الرواية الثامنة .

١ - تعلم موسى من الخضر :

في سورة الكهف وخلال ٢٣ آية تم بيان قصة موسى ﷺ بعبارات لطيفة جداً وموزونة ، وتعلمه من عبد الهي لم يذكر القرآن اسمه لكنه « الخضر » كما هو المتعارف (الكهف / ٦٠ - ٨٢) .

هذه الحادثة تبين بوضوح ان موسى ﷺ قد ذهب وراء ذلك المعلم الالهي طبقاً للعنوان الذي كان لديه ، ليستفيد من العلوم التي تعلمها من الله ، ولذلك فحينما وصل اليه بعد جهد جهيد قال : ﴿ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ ! (الكهف / ٦٦) .

فوافق الخضر على ذلك ورافقه موسى ﷺ بدوره ، ثم إنه واجه ثلاث حوادث مؤلمة ومرفوضة بحسب الظاهر (وذلك لعدم احاطته بها) ، الاولى خرق السفينة التي تعود الى فريق من الطبقة المسحوقة ، والتي كانت تعدّ مصدراً لمعيشتهم ، الثانية قتل الشاب ، والثالثة اقامة الجدار الذي يريد ان ينقض ، مع عدم وجود اي دليل لها ظاهراً .

وفي كل مرة كان يتصاعد اعتراض موسى ﷺ وذلك لتعرض احكام شرعية مهمة في هذه الحوادث الثلاث لخطر الزوال والاضمحلال ، ففي اول حادثة تم نقض حرمة اموال الناس من قبل الخضر ، وفي الثانية هتكت حرمة حياة الناس ، وفي الثالثة صدر منه تصرف غير مسؤول بحسب الظاهر ، وذلك بينائه لجدار في حالة السقوط بلا اجر عليه او دليل على لزوم اعادة بنائه .

واخيراً بيّن له الخضر اسرار هذه الامور الغامضة ليقف على فلسفتها وحكمتها ، وتبين انه لو لم يخرق السفينة لآخذها ملك غاصب ولتدهورت احوال اصحابها ، ولو لم يُقتل ذلك الشاب المرتد لاحتتمل ان يُضلل ابويه المؤمنين ، وانه كان هناك كنز خفي تحت ذلك الجدار ليقيمين وكان ابوهما

صالحاً ، واراد الله الحفاظ على كنزهم عن هذا الطريق الى ان يبلغا اشد هما ويستخرجا كنزهما للاستفادة منه . مع ان موسى المأمور بظاهر الشريعة لم يتمكن من البقاء اكثر من هذا مع الخضر الذي كانت له وظائف اخرى ايضاً وانه انفصل عنه طبقاً للعهد الذي اخذه على نفسه ، لكنه توصل من خلال هذه القصة بشكل عام الى ان الكثير من الحوادث التي لها ظاهر مؤلم تعد اسباباً لليمن والبركة في باطنها ، فضلاً عن وقوفه على العلم التفصيلي لهذه القصص الثلاث ، واننا لعلمنا المحدود نتوهمها في غير محلها في حين ان وقوفنا على حقيقة الامر يدفعنا لاقتفاء اثره وادراكه بكل سرور .

كانت هذه علوماً تعلمها موسى من الخضر الى جانب علم الشريعة ، والاسمى منها هو الخضر الذي يعد من الانبياء الالهيين عظيمي الشأن ، والذي كان له اطلاع واسع على هذه الامور^(١) .



٢ - اطلاع داود على اعداد وسيلة دفاعية :

تم البحث في سورتين من القرآن المجيد حول اختراع الدرع المناسب ، الذي كان يعد وسيلة دفاعية مهمة لحروب الازمنة الغابرة ، وذلك من قبل داود النبي الالهي العظيم الشأن .

يقول تعالى في احد المواضع : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (الانبياء / ٨٠) .

يتضح جيداً من هذه الآية ان ابداع هذه الوسيلة الدفاعية قد تم في عهد

(١) لمزيد من التوضيح فيما يتعلق بهذه الآيات وجزئيات هذه القصة ، راجع التفسير الامثل الجزء ١٢ ذيل الآيات ٦٠ - ٨٢ من سورة الكهف .

داود عليه السلام وبتعليم رباني ، في حين اننا نعلم بعدم ضرورة أن يكون نبي الهي مبتكراً لمثل هذا الموضوع .

كما ونقرأ في سورة سبأ الآية ١٠ و ١١ ﴿ وَالنَّاسُ لَهُ الْخَدِيدُ - أَنْ اِغْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

لا شك ان هذا الامر يكشف عن ان اقدام داود عليه السلام على صنع شيء فريد من نوعه ، كان بامر الهي وانه تعالى هو الذي علمه كيفية الصنع وسبل تليين الحديد ، سواء كانت لهذه المسألة صفة اعجاز ام تعليم الهي بالاستفادة من المعدات والاسباب ، وعلى اية حال فابتكار هذا الامر (صنع الحلقات الدقيقة والقوية لغرض نسج الدرع في ذلك الزمان ، بحيث لا يعيق حركة المقاتل ، كما ويسهل ارتدائه بالاضافة الى مقاومته لضربات واسنة السهام والسيوف والرماح في نفس الوقت) كان عملاً شاقاً ومعقداً للغاية ، ولم تكن اهميته في ذلك العصر ادنى من ابداع الاسلحة المتطورة في عالم اليوم .

كما ويحتمل ان تكون الآية ١٥ من سورة النمل اشارة الى نفس علم ومعرفة داود بصناعة هذه الوسيلة الدفاعية ايضاً ، او ان تكون مضافة الى العلوم الاولى حيث يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ عِلْماً ﴾ ^(١) .

لقد تناولنا هذا البحث فيما سبق ايضاً - بمناسبة اخرى - .

٣ - معرفة يوسف بتفسير الحلم :

هل بإمكان الحلم ازالة الستار عن حوادث المستقبل والكشف عن

المسائل ؟

(١) ورد هذا الاحتمال في تفسير القرطبي الجزء ٧ الصفحة ٤٨٧٩ ذيل الآية مورد البحث .

لو كان الجواب « نعم » ، فأَيَّ حلم هذا ، وهل تنطق الاحلام صراحة أم كنايةً ، أو تكون صريحة تارة وكناية أخرى ؟ وفي الحالة الثانية فمن أولئك الذين يجيدون لغة كناية الحلم ، ومن بيده هذا العلم ؟

واساساً ما هي حقيقة الحلم ؟ وكيف يرتسم في روح الانسان وذهنه ؟ هذه هي الاسئلة المعقّده التي تتطلب الاجابة عليها الخوض في ابحاث مطوّلة مفصّلة ، وخارجة عن موضوع بحثنا في نفس الوقت ^(١) .

إنَّ من المسلّم به في الابحاث القرآنية ان بإمكان الحلم التحقيق في الاحداث كناية او صراحة ، وقد اشار القرآن الى سبع احلام صادقة في سورٍ مختلفة بالامكان الوقوف عليها في « رسالة القرآن » ، المجلد الاول في مبحث مصادر المعرفة (المصدر السادس - الكشف والشهود) ^(٢) .

إنَّ بعضاً من هذه الاحلام كان كنائياً (مثل حلم عزيز مصر) وبعضها صريحاً مثل حلم نبي الاسلام ﷺ حول دخول المسلمين الى المسجد الحرام ، واداء مراسم الحج .

ويصرح القرآن في سورة يوسف بأننا علمنا يوسف هذا العلم ، ونقرأ في الآية السادسة : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ ، وفي الآية (٢١) من نفس هذه السورة نقرأ : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ .

ثم تجسدت نماذج من تفسير يوسف للاحلام ، بما فيها الحلم الذي قصّه كل من السجينين عليه ، وحلم ملك مصر ، والتي تحكي كلها عن احاطته الكاملة

(١) ورد هناك في التفسير الامثل الجزء ٩ في الآيات المرتبطة بيوسف ، بحث مفصل نوعاً ما حول هذا الموضوع ، وان كان بيانه بالكامل يحتل كتاباً مستقلاً لوحده .

(٢) نفحات القرآن الجزء ١ .

بعلم التفسير .

بديهي ان عدم اطلاع الانبياء ﷺ على تفسير الاحلام لا يחדش في نبوتهم ، لكن بامكان هذا العلم ان يلعب دوراً فعالاً في الاسراع من عجلة تطور مأموريتهم ، واخفاء المزيد من التقدم على خططهم .

٤ - العلم بمنطق الطير :

تمت الاشارة في القرآن الكريم الى نوع اخر من العلم والمعرفة بالنسبة لسليمان عليه السلام ، والذي يبدو لاول وهلة امرأ عجيبة ، الا وهو مسألة القدرة على مخاطبة الطيور وفهم حوارها ، ونقرأ في الآية ١٦ من سورة النمل : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ .

الكلام هنا طويل :

هل حقاً تتكلم الحيوانات ؟ كيف يكون حديثها ؟ هل هو هذه الاصوات المتنوعة التي تنبعث منها في مختلف الحالات ، ام ان هناك كيفية خاصة اخرى ؟

لا شك ان للطيور اصواتاً متفاوتة حسب مختلف الظروف ، كالغضب والرضا والجوع والعطش والمرض والضجر ، وان بامكان من لهم ادنى اطلاع على حالها ادراك مرادها .

لكن من المستبعد ان تكون الآيات اعلاه وامثالها ناظرة الى هذا المعنى ، اذ انها تحكي عن مطالب أدق وأهم ، فالبحث هو عن تفاهمها وتخطبها مع الانسان ، والحديث هو عن سلسلة من المفاهيم العالية والراقية .

مع احتمال اقدام البعض على حمل هذه الآيات وامثالها على الكنايات او

لغة الاساطير ، توهماً منهم باستحالة مثل هذا الشيء للحيوانات ، فامتلاك سليمان ﷺ للمعجزة واطلاعه على العلوم الالهية الخاصة لا يستبعد ابداً .

السؤال هو : هل أنّ للحيوانات مثل هذا الفهم والشعور لتتحدث مثلاً عن عبادة ملكة سبأ للشمس من دون الله ؟

التمعّن في اسرار حياة الطيور ، والمطالب العجيبة التي ينقلها العلماء فيما يتعلق بذهنها ومهارتها ودقتها ، يكشف عن سقم وسطحية افتراض مجرد الحيوانات خصوصاً الطيور من الشعور .

إنّ ابحاث العلماء تشير الى ان للكثير من الحيوانات القدرة على تحديد الظروف الجوية ، حتى قبل حدوثها بعدة اشهر ، في حين ان الانسان ومع كل الاجهزة التي يستعين بها يعجز احياناً عن مثل ذلك ، ولو لساعات قليلة قبل ذلك .

اغلب الحيوانات تعلم بالزلازل قبل وقوعها وتبدي رد فعلها لذلك ، في الوقت الذي تعجز فيه اجهزة رصد الزلازل عن تخمين ولو مقدماتها .

غرائب حياة النحل واقتفائها العجيب للمناطق التي تكثر فيها الزهور ، نشاطات النمل العجيبة وتطورها المعقّد ، معرفة الطيور المهاجرة بوضع الطرق حين تطوي احياناً المسافة بين القطبين الشمالي والجنوبي للكرة الارضية ، اطلاع البعض من الطيور على احوال فراخها قبل تفقيسها ، وتوقعها الدقيق لا حتياجاتها مع عدم امتلاكها لتجربة سابقة ، وامور اخرى من هذا القبيل والتي ذكرت في الكتب المعتبرة والمستندة في هذه الايام ، تشير بمجموعها الى ان لا غرابة في تمتع الحيوانات بنوع من الحوار فيما بينها ، مع تمكنها من التحدث مع من له اطلاع على ابجديات لغتها ، وخلق رابطة ما معه .

الكثير من آيات القرآن تدل على ان للحيوانات شعوراً وادراكاً على

خلاف ما يتوهمه البسطاء ، بل بلغ الحد بالبعض الى الاعتقاد بان لكل ذرات الكون بما فيها الجمادات نوعاً من الشعور ، ومن هنا فقد اعتبروا عموم تسبيحها مقروناً بالشعور .

هذه المواضيع تعود بطبيعة الحال الى بحوث اخرى ذكرناها في محلها ، اما الذي ينبغي الالتفات اليه هنا فهو مسألة اطلاع البعض من الانبياء على « منطق الطير » ، وتحدث قسم من الحيوانات معهم ، والتي لا تعد علماً ضرورياً لاداء الرسالة بل باعثاً على كمال النبوة .

طرق معرفة
سفراء الله

طرق معرفة سفراء الله

تمهيد :

لا شك أنّ أيّ ادعاء لا يمكن قبوله من دون دليل ، خصوصاً الدعوى الخطيرة جداً كدعوى النبوة مثلاً ، وبالاخص بعد معرفتنا للكثير من الاشخاص وعلى امتداد التاريخ ممن ادعوا السفارة والنبوة ، ومأمورية هداية الخلق من قبل الله زوراً وبهتاناً ، بهدف اضلال البسطاء من الناس ، فادّعوا أنّهم مرسلون من قبل الله لتحقيق اهدافهم المشؤومة وضمان طموحاتهم اللا مشروعة ، وقد وُفقوا بعض الشيء في جذب بعض المغفلين نحوهم .

وبناءً على هذا فلا بدّ من العثور على مقاييس يمكن من خلالها تمييز الانبياء الالهيين من المدّعين الكذّابين ، وبعد مطالعة هذا الموضوع بدقة تنكشف امامنا اربعة طرق :

١ - « الاعجاز » وهو القيام بامور خارقة للعادة خارجة عن طاقة الانسان ،

مرفقة بدعوى النبوة .

٢ - التأمل في مضمون دعواتهم والتي يمكن ان تكون لوحدها في بعض

الاحيان دليلاً على صدقهم وحقانيتهم ، وقد يكون هذا الطريق اكثر قبولاً وثقة

لدى العلماء حتى من المعجزة .

٣ - ملاحظة مختلف القرائن التي تحف بمدعي النبوة ، وسوابقه وسلوكه ومحيطه والذين آمنوا ، به بالاضافة الى الطرق التي يسلكها لنشر دعوته وامثال ذلك .

وكثيراً ما يحدث ان تدفع هذه القرائن مجتمعة للايمان برسالته وصدق دعوته دون حاجة للجوء الى شيء اخر .

٤ - التشخيص عن طريق الاخبار وتزكية الانبياء السابقين ،اي انه يمكن لأخبار من اتضح أنه نبي أن تكون دليلاً وعاملاً مساعداً لمن يأتي بعدهم .
على أية حال فالشيء المسلم به هو عدم امكان تقبل اي دعوى بلا دليل مقنع ، وقد عاتب القرآن مراراً وكراراً أولئك الذين يدعون أو يتبعون بلا علم ولا دليل .

من البديهي ان اشخاصاً كهؤلاء سيكونون في مهب ريح اللوم والعتاب على الدوام ، وعلى حد قول بعض الفلاسفة : « من يقبل كلاماً بلا دليل لا يستحق اسم الانسان » .

كما ان القرآن الكريم يعتبر امثال هؤلاء الاشخاص من اضل الناس اذ يقول : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ (القصص / ٥٠) .
وفي موضع اخر يقول بصراحة لمن يدعي دعوي فيما يتعلق بالتوحيد او النبوة : ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقره / ١١١) (النمل / ٦٤) .
كما يقول في موضع آخر : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (الاسراء / ٣٦) .

واخيراً فقد اعتبر اولئك الذين يتكلمون بغير علم من اكثر الناس كذباً وافتراءً وظلماً ، يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِّيُضِلَّ

النَّاسِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿ (الانعام / ١٤٤) .

بعد هذه المقدمة الخاطفة يأتي دور كل واحد من هذه الطرق الاربعة ونبدأ بمسألة « الاعجاز » .

وينبغي الالتفات الى ان القرآن لا يعبر بالاعجاز أو المعجزة في هذه المسألة ، بل يستعمل وبشكل رئيسي ثلاثة تعابير اخرى وهي : « آية » و « بيّنة » و « برهان » ، والآن لنستمع خاشعين الى الآيات الواردة في هذا المجال :

١ - ﴿ قَالَ (فرعون) إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ (من جيبه) فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِيْنَ ﴾

(الاعراف / ١٠٦ - ١٠٨)

٢ - ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰئِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِيي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَآتِبُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾

(آل عمران / ٤٩)

٣ - ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

(الاعراف / ١٣٢ و ١٣٣)

٤ - ﴿ وَالِى (قوم) ثَمُودَ (ارسلنا) أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ

اغْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ... ﴿

(الاعراف / ٧٣)

٥ - ﴿ قَالَ (نوح) يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ (فهل تنكرون دعوتي ثانية) أَتُلْزِمُكُمْوهَا وَ أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿

(هود / ٢٨)

٦ - ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ... أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ... فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴿

(القصص / ٣١ و ٣٢)

٧ - ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿

(الاسراء / ٨٨)

تفسير وفذلكة :

الاعجاز ، اول دليل على النبوة :

كما تمت الإشارة سابقاً فان لفظة الـ « معجزة » لم ترد في القرآن بالمعنى المصطلح عليه اليوم ابداً ، بل ان الفاظاً اخرى من قبيل « آية » و « بينة » و « برهان » قد حلت محلها ، وعلى الرغم من اطلاق هذه الالفاظ الثلاثة في

القرآن على معاني اخرى ايضاً ، فان « المعجزة » احد معانيها .

الآيات المختارة اعلاه هي من اجلى الآيات التي تتحدث عن المعجزة بلسان هذه الالفاظ الثلاثة ، بالاضافة الى بعض الآيات الاخرى التي تعكس مفهوم ضعف الانسان وعجزه عن مقابلة بعض خوارق عادات الانبياء بالمثل ، بالرغم من خلوها من كل واحدة من هذه الالفاظ الثلاثة ، وبالنتيجة فهي تثبت استعانة الانبياء بـ « الاعجاز » للتدليل على حقانيتهم من جهة ، ومطالبة الناس بـ « المعجزة » من جهة اخرى .

يقول في اول آية : ﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ - فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ .

اذ نرى هنا ان فرعون قد اعتبر المطالبة بـ « آية » اي « معجزة » حقاً مشروعاً ، له ومن المعلوم ان موسى قد وافق بدوره على هذا الطلب برحابة صدر ، وجاء بنموذجين من معجزاته .

وبهذا فالآيات اعلاه تعتبر الامور الخارقة للعادة (مشروطة) بمثابة الطريق لمعرفة الانبياء ﷺ .

هذه الآيات لم تقل ابداً ان هذا الشيء قد تجسم امام انظار فرعون ، بل تحكي عن حقيقة متحققة الا وهي استبدال العصا بثعبان رهيب ، وبياض يد موسى حينما اخرجها من جيبه ، كما ان التعبير بالـ « مبين » اشارة الى نفس هذا الشيء ايضاً .

يحتمل ان يكون السبب وراء اختيار هاتين المعجزتين يعود الى امتلاك احدهما ميزة الارهاب للمستكبرين والمعاندين وتهديدهم ، والاخرى ميزة الترغيب لايمان المؤمنين ، على امل ان يمتزج « اللين » بـ « الشدة » ليقدماً معاً



وفي ثاني آية تمت الاشارة بقوة الى معجزات السيد المسيح ، وتم التعبير عنها بالـ « آية » ، وكان ذلك في وقت بشرت فيه مريم بولادة المسيح ، اذ قال تعالى : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰئِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَابْرِيءُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَابْتَلُوكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ٥٠ .

تم في هذه الآية ذكر مجموعة من معجزات السيد المسيح : خلق الطير من الطين ، وإبراء الأكمه والابرص الذي يستحيل علاجه ، واحياء الموتى ، والتي تمت كلها باذن الله بالاضافة الى الاطلاع على الامور الخفية واسرار الغيب .

لم تكن معجزة المسيح لتتحصّر بهذه المعاجز الأربع فحسب ، اذ ان هناك خوارق اخرى للعادات قد نقلت عنه في القرآن الكريم ، من جملتها تكلمه في المهد ، ونزول مائدة من السماء على الحواريين بدعائه .

والمعروف هو ان اختيار الله لقسم من هذه المعجزات للمسيح ﷺ ، انما كان بسبب انتشار العلوم الطبية وتطورها في ذلك الزمان ، وحاجة الناس الماسة الى مهنة الطبابة نظراً لشيوع الامراض آنذاك ، فوضع الله هذه المعجزات الخاصة تحت تصرف المسيح ، ليتعرف به العالم وغيره ويستسلم له ولتتجلى عظمة اعجازه بشكل اكبر^(١) .

(١) وردت هذه الملاحظة في حديث عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام (بحار الانوار الجزء ١١ الصفحة ٧٠).

هذه الملاحظة ايضاً جديرة بالاعتبار وهي وجود نوع من التنسيق بين هذه المعجزات المادية ، وبين البرامج المعنوية والتربوية للسيد المسيح : فلقد ربي بدعوته هذه اناساً متفتحين على افكار ومعارف جديدة هذا من جهة ، ومن جهة اخرى اشفى المرضى الذين يستحيل علاجهم ، واحيى ضحايا وادي الضلال وهداهم ، ومسح باسرار الغيب وانوار المعرفة على القلوب ، وبهذا كانت تلك المعجزات المادية متناسبة مع هذه الاهداف المعنوية .

صحيح ان « المعجزة » يجب ان تكون عملاً خارقاً للعادة بحيث يعجز الكل عن الاتيان بمثله ، لكن الله الحكيم الذي يتصرف بحكمة ، قد اختار المعجزات طبقاً لبرنامج مدروس .

هذه الملاحظة ايضاً جديرة بالتأمل والتفحص وهي ان التعبير بـ « اذن الله » قد تكرر مرتين في الآية اعلاه ، لئلا يتيه الجهال في وادي الشرك او يُبالغوا في درجة النبي الى مرتبة الغلو ، خصوصاً وان كيفية خلق عيسى كانت بشكل يساعد على تهيئة الارضية المناسبة للغلو في افكار قصيري النظر ، ولذا فقد تم التأكيد مراراً على اذن الله وامره لئلا يذهب بهم خيالهم الى اتصافه واقعاً بصفات الربوبية ، وكون هذه الاعمال صادرة منه بنفسه ، بل ليعلموا أنها جميعاً من عند الله .



الآية الثالثة تبين بوضوح ان موسى عليه السلام قد جاء للفراعنة بالعديد من خوارق العادة ، (او بعبارة اخرى بالآيات المفصلات) ، لكن الملام من فرعون لم يستسلم بحجة كون ذلك « سحراً » ، يقول تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ

وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧﴾ .

هذه الحوادث العجيبة وغير المتوقعة كانت لها صفتي التأديب والاعجاز معاً .

كما ان الآيات اللاحقة عليها تبين ايضاً انهم كانوا يلجأون الى موسى عند الشدائد ، ويرجون منه الطلب من الله برفع « البلاء » ويعدونه لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننَّ لك ، ولكن حينما كان يكشف عنهم الرجز ينكثون عهدهم ، الى ان استحقوا اخيراً « عذاب الاستيصال » وزالوا عن بكرة ابيهم .

صحيح ان الفراعنة وبني اسرائيل كانوا يعيشون معاً ، لكن لا يخفى ان الفراعنة كانوا هم المستهدفين بهذه البلايا ، فهذه قصورهم المجللة تطل على طرفي النيل ، بينما تتواجد منازل بني اسرائيل في مناطق نائية ، ولذا ذهب الطوفان والفيضان بقصور الفراعنة .

كما دمر الجراد والآفات الزراعية مزارعهم الواسعة ، وحصلت زيادة مطردة ومفاجئة في تكاثر الضفادع لتخرج من النيل وتدخل في كل جزئيات حياة الفراعنة ، بل لم تترك حتى غرف نومهم وموائد طعامهم واوانيهم بالاضافة الى تحملهم لخسائر فادحة جداً حينما تلون نهر النيل بلون الدم .

لكن هذه البلايا او بعبارة اخرى « المعجزات المنبهة » التي ورد شرحها في التوراة الحالي ، في « سفر الخروج » الفصل السابع الى العاشر لم توقظهم ابداً .

ويحتمل ان يكون اختيار هذه المعجزات الخمس ناظراً الى احاطة العذاب الالهي بكافة شؤون حياتهم ، فالطوفان قلب قصورهم رأساً على عقب ، والجراد دمر بساتينهم ، و « القمل » ذهب بزراعتهم ، والضفادع سلبتهم راحة

بالهم وسكينتهم ، واستبدال ماء النيل بلون الدم حرهم ماء شربهم !

وهناك اشارة مختصرة في رابع آية الى معجزة نبي اخر وهو النبي صالح عليه السلام ، حيث تعبر عنها بـ « البينة » ، وكذلك الـ « آية » ، يقول تعالى .
﴿ وَاللّٰى ثَمُوْدَ اٰخَاھُمْ صَالِحًا قَالَ يٰۤاَقُوْمِ اعْبُدُوْا اللّٰهَ مَا لَكُمْ مِّنْ اِلٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ هٰذِهِ نَاقَةٌ لَّكُمْ اٰیَةٌ ... ﴾ .

« الناقة » تعني في الاصل انثى البعير ، وقد اشير في القرآن الى ناقة صالح بهذه اللفظة اكثر من مرة ، والتي كانت ناقة استثنائية بلا شك ، وذلك في كيفية خروجها بالاضافة الى بقية الحالات والصفات التي يكون الخوض في جزئياتها خارجاً عن موضوع هذا البحث ، اذ لا نعلم اكثر من عدم كونها ناقة عادية ، ولذلك يعتبرها بمثابة البينة و الآية ولغرض الوقوف على أهمية هذه المعجزة فقد تم التعبير عنها في الآية اعلاه بـ « ناقة الله » .

لماذا اختار الله هذه المعجزة من بين كل المعجزات لصالح ؟ قال البعض :
كان ذلك استجابة لطلب القوم لمثل هذه الناقة .

نقرأ في احدى الروايات : « حينما بُعث صالح بالنبوة بين قوم ثمود الذين كان لهم سبعون صنماً يعبدونها ، لبث فيهم مدة طويلة يدعوهم وينصحهم ، لكنهم لم يجيبوه الى خير ، فقال لهم ذات يوم : انا اعرض عليكم امرين ، ان شئتم فاسألوني حتى اسأل الهي فيجيبيكم فيما تسألون ، وان شئتم سألت الهتكم فان اجابوني خرجت عنكم ، فقد شنئتمكم وشنئتموني ، فقالوا قد انصفت !

فتواعدوا ليوم يخرجون فيه ، فخرجوا باصنامهم الى عيدهم واكلوا وشربوا فلما فرغوا ، دعوه فقالوا يا صالح سل فسألها فلم تجبه ، فقال : لا ارى

الهلكم تجيبني فاسألوني حتى اسأل الهى فيجيبكم الساعة ، فقالوا يا صالح !
اخرج لنا من هذه الصخرة (وشاروا الى صخرة منفردة) ناقة مخترجة جوفاء
وبراء فان فعلت صدقناك وآمنا بك ، ففعل صالح ذلك ولم يؤمنوا » ^(١) .



الكلام فى خامس آية هو عن « البينة » ايضاً ، وقد ذكرت هنا « بينة نوح »
تلك البينة التى يراد منها « معجزة ظاهرة » ، اذ نراه يعقب على كلام مشركى القوم
حينما قالوا : « بل نظنكم كاذبين » ، بالقول : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اَرَأَيْتُمْ اِنْ كُنْتُ عَلَى
بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَآتَانِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ (تعصباً وعناداً)
اَنْلِزْكُمْوْهَا وَ اَنْتُمْ لَهَا كَاِرِهُونَ ﴾ ^(٢) .

قال الكثير من المفسرين ان « البينة » تعنى هنا المعجزة ، وعلى الرغم من
المنقول عن ابن عباس ان المراد بالبينة هو الدليل المنطقى الجلى ، لكن نظراً
للتعبير بـ « من ربي » ولكون هذه البينة قد اقيمت فى مقابل تكذيب نوح
واتباعه ، فلا يمكن ان يفهم منها سوى المعجزة ، وربما كان مراد ابن عباس من
الدليل الواضح نفس المعجزة ايضاً .



نواجه فى الآية السادسة تعبيراً آخر حول هذا الموضوع الا وهو « البرهان » ،
اشارة الى معجزتي موسى المعروفتين واللتين وردتا فى الآيات السابقة ،اي
استبدال العصا بثعبان عظيم وبياض اليد ، يقول تعالى : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ

(١) مجمع البيان الجزء ٤ الصفحة ٤٤١ (بتلخيص) .

(٢) جملة « انلزمكموها » هي بمثابة الجزاء للقضية الشرطية « ان كنت » .

رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ ﴿ .

« البرهان » وعلى حد قول الراغب في المفردات يعني الدليل المحكم ، وقد اعتبره البعض مصدراً لمادة « بَرَّة - يَبْرَةُ » اذا اِبْيَضَّ ، واطلاق هذه المفردة على الادلة المحكمة من باب بيانه للمطلب ، وتوضيحه له ، او لانه يبعث على افتخار المتكلم ، او انه اشارة الى الكلام الواضح الذي يعتريه الابهام .

وفي « لسان العرب » فسر البرهان بمعنى الدليل الواضح الذي يميز الحق عن الباطل ، ومن هنا فسر المفسرون لفظة « برهانان » في ذيل الآية بمعنى الدليلين الجليين ^(١) .

لكن صاحب كتاب « التحقيق » يعتقد بان استعمال لفظة البرهان بمعنى الدليل اصطلاح منطقي خارج عن دائرة اللغة ، وان معناه هو ذلك الكلام الواضح الخالي من الابهام ، او الموضوع الواضح تماماً .

على اية حال ، ففي الآية اعلاه قد استعملت هذه اللفظة في مورد المعجزة ، التي تعد دليلاً جلياً وواضحاً على صدق مدعي النبوة ، اي النبي موسى عليه السلام هنا .



وفي الآية السابعة والاخيرة من الآيات مورد البحث لم يكن التعبير بالـ « آيه » او الـ « بينه » او الـ « برهان » ، بل بمصداق من المصاديق البارزة جداً للمعجزة ، وبعد ذلك تم التصريح بالقول : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ .

الهدف لا يكمن في الخوض في بحث « اعجاز القرآن » لان هذا البحث

قد جاء في ذيل هذه الآية المجلد الثاني عشر من « التفسير الامثل » ، كما سيأتي ايضاً في المجلد القادم من رسالة القرآن ، بشرح اوفى ، انما الهدف هو بيان حقيقة كون المعجزة هي احدى الطرق القطعية لمعرفة الانبياء ﷺ .

ولذا نقرأ في ذيل آية اخرى حين دعوة المخالفين للإتيان بعشر سور مثل سور القرآن : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ ^(١).

ثمرة البحث :

يمكن الاستنتاج بوضوح من مجموع ما تقدم اعلاه ، بان المعجزة لم تكن بنظر القرآن احد الادلة الرئيسية لاثبات نبوة نبي الاسلام ﷺ فحسب ، بل لنبوة سائر الانبياء ايضاً .

لكن ينبغي الالتفات الى ان هناك آيات قرآنية تعد بمثابة العلة لمنكري المعجزة ، والتي سنتكلم عنها بالتفصيل في قسم التوضيحات .

توضيحات :

١ - ما هي حقيقة الاعجاز :

لفظة الاعجاز والمعجزة وكما اشرنا سابقاً لم ترد في القرآن بالمعنى المصطلح عليه اليوم ، بل قد تمت الاستعانة بتعابير اخرى في هذا المجال ، وقد

تقدم شرحها في الآيات التي مر ذكرها ، فالبحث هنا ليس بحثاً لغوياً ، اذ الهدف هو بيان حقيقة الاعجاز والمعجزة ، لكن لا بأس بإشارة خاطفة قبل ذلك الى المفهوم اللغوي للفظه « الاعجاز » ، ليتضح السبب الذي دفع العلماء والاكابر الى انتخاب هذه المفردة لخصوص هذا المعنى .

مع ان هناك معنيين قد ذكرا في مقاييس اللغة لا صل « الاعجاز » اي « العجز » وهما : « الضعف » و « عقب كل شيء » ، لكن الراغب ارجع هذين المعنيين في المفردات الى معنى واحد ، واعتبر المعنى الاصلي هو « عقب كل شيء » ، وقد ترد بمعنى « الضعف » نظراً لتبعية الافراد الضعفاء للآخرين ، وحيث ان معجزات الأنبياء هي من القوة بحيث يعجز الآخرون عن التصدي لها ومقابلتها بالمثل ، فقد اطلقت لفظة المعجزة عليها .

على اية حال فـ « المعجزة » في التعريف الذي ذكره لها علماء العقائد ، عبارة عن ذلك الشيء الجامع للشروط الثلاثة ادناه :

١ - العمل الخارق للعادة والخارج كلياً عن طاقة النوع البشري ، والذي يعجز عن الاتيان بمثله حتى اكبر نوابغ العالم .

٢ - ان تكون مرافقة لدعوى النبوة او الامامة من قبل الله ، وبعبارة اخرى ان تكون بمثابة الدليل على حقانية مدعي الرسالة والامامة .

٣ - ان تكون بلسان « التحدي » اي الدعوة للمعارضة والمقابلة بالمثل ، وبعبارة اخرى ان يتحدى مدعي النبوة او الامامة اولئك الذين ينكرون كونها من عند الله الاتيان بمثلها ، بالضبط كما عرض القرآن هذا الامر اكثر من مرة فيما يتعلق باعجاز هذا الكتاب السماوي ، وقد مر بنا مثال ذلك في الآيات السابقة .

مما تقدم اعلاه يمكن استنتاج الامور التالية :

الف - المعجزة مستندة على القدرة الالهية ولا يمكن قياسها باعمال نوابغ العالم ، والاكتشافات العلمية العجيبة ، اذ يحتمل مثلاً وجود طفل ذكي لم يتجاوز عمره السبع سنين ، ومع ذلك نراه يخطب خطبة عصماء ، فهذا نوع من النبوغ ، ولذا يحتمل العثور على طفل اخر مثله ايضاً ، اما الطفل الرضيع فمن غير الممكن (عادة) ان ينطق بفصاحة ليقول كما نقرأ بالنسبة للمسيح : ﴿ قَالَ اِنِّي عَبْدُ اللَّهِ اَتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ ^(١) .

أو أنّ من الممكن لعالم اختصار فترة نضوج فاكهة ما من سبع سنين مثلاً الى عدة اشهر ، وذلك باكتشاف علمي جديد وادوية خاصة ، فمن الواضح ان هذا العالم قد جاء باكتشاف عظيم ، لكن من المحتمل ان يأتي مكتشف ونابغة آخر بعمل مشابه له ايضاً ، اما لو تحولت شجرة يابسة الى ثمرة في لحظة واحدة (وكانت ترافقها دعوى النبوة والتحدّي) فهي معجزة الهية .

ب - المعجزة لا تعني عمل المستحيل عقلاً (سواء كان محالاً ذاتياً كاجتماع النقيضين والضدين في مكان واحد وزمان واحد ، او محالاً بالغير كالامر الذي ينتهي وجوده في خاتمة المطاف الى محال عقلي) لانه غير ممكن بحكم العقل ، أو بعبارة اخرى هو خارج عن دائرة القدرة ، اي ان استعمال كلمة « القدرة » في حقها لا معنى له اصلاً ، مثل ان يريد احد الانبياء ان يكون الشيء موجوداً وغير موجود في آن واحد ، او ان يضع صخرة عظيمة داخل بيضة دون ان تصغر الصخرة او تكبر البيضة ، مثل هذه القضايا انما تزرع التضاد في داخلها

بنفسها ، اي انها في حقيقتها قضية خاطئة ، ومفهومها في الحقيقة هو ان يريد الانسان شيئاً ولا يريده (تأمل جيداً) .

وبناءً على هذا فالمحالات العقلية لا محل لها لا في بحث الاعجاز ، ولا حتى في اي بحث اخر ، بل الذي يمكن عرضه هو المحال العادي فحسب ، وبهذا فالمعجزة محال عادي لا غير .

اي ان مثل هذا الشيء لا يمكن تحقيقه طبقاً للتسلسل الطبيعي لقانون العلة والمعلول ، واستناداً الى الاسباب والشروط العادية والطاقة البشرية ، لكن لا مانع من تحقيقه ابدأً بالقدرة الالهية كالمثله الواردة اعلاه .

ج - المعجزة لا تعني تحطيم قانون العلية :

قد يتوهم البعض باننا وبقبولنا للمعجزات يجب ان نضرب اصل العلية عرض الحائط ، وان نسلم بإمكان صدور المعلول بلا علة ، إلا أن هذا المعنى غير مقبول لدى اي عالم ومفكر .

ومن الواضح أن اصل العلية لا ينحصر في الاصول البديهية للعلوم البشرية ، بل يمتد ليعد في الفلسفة ايضاً من المسائل البديهية ، وذلك لعدم امكان وجود اية حادثة بلا علية ، والقائلون بالمعجزة لا ينكرون هذا الاصل البديهي والمسلم به .

وبناءً على هذا فللمعجزات علل واسباب حتماً خلافاً لهذا التوهم ، و يحتمل ان تكون هذه العلة امراً ميتافيزيقياً وراء عالم الطبيعة (وذلك لعدم انحصار الوجود بعالم المادة والطبيعة فقط) ، بل يمكن ان تكون علة طبيعية الا انها غير مكتشفة ، اي تلك العلة التي يستحيل لافراد البشر ادراكها دون الاتكاء

على علم وقدرة الخالق ، وبهذا فكلما وصل انسان ما لهذا العامل الطبيعي والمجهول في نفس الوقت ، لاستنتجنا إتكائه على قدرة الهية .

ومعجزات الانبياء ﷺ يمكن ان تكون من النوع الاول او الثاني ، وذلك لستاويهما في اثبات ارتباطهم بالله .

اعتمد القرآن في موارد كثيرة على قانون العلية وتقبله كأصل مسلم به ، سواء فيما يتعلق بعالم الطبيعة والخلقة او بحياة الانسان الاجتماعية او حتى بالحياة الشخصية لكل فرد . وهناك ما لا يعد ولا يحصى من الآيات الشريفة حول هذا الموضوع ، وطبقاً لهذا فلا يمكن القول بان المعجزات معاليل بلا علة .

* * *

د - المعجزة لا تنزل اساس التوحيد ومعرفة الله :

قد يتوهم البعض ويقول : لقد عرفنا الله من خلال نظام عالم الخلقة الثابت ، فلو أمكن زلزلة هذا النظام عن طريق المعجزات ، لتزلزل اساس التوحيد ومعرفة الله ، انكم تريدون تثبيت اساس النبوة باثبات المعجزات ، وفاتكم انكم انما تهدمون بذلك اساس التوحيد .

وعلى حد قول البعض الاخر : ان النظام الالهي ليس العوبة بيد المتباهين ، يحركونه كيفما شاؤوا وامثال ذلك .

الحقيقة ان المتفوهين بمثل هذا هم من المتغربين الماديين ، الذين توهموا بان انكارهم للمعجزات هذا ، سيلفت انظار المفكرين الغربيين اليهم ، حتى الماديين منهم كذلك ، مع ان هذا محض اشتباه .

اولاً كما تقدم سابقاً من أنه لا شك لا حد في « اصالة » و « عمومية » قانون العلية ، كما ان تفسير المعجزة بـ « المعلول بلا علة » خطأ فادح ، وغياب مسير

العلل العادية استثناءً بمثال محدود واحد او اكثر ، لا يחדش في نظام الكون ابداً ، لان ما يتجسد امامنا كل ساعة من الآلاف المؤلفة من مصاديقه لا يمكن ان يتزلزل بحالة استثنائية تحدث بالسنة مرة مثلاً فضلاً عن كون حصول ذلك الاستثناء لاثبات هدف اكبر ، نعم لو حدثت كل يوم آلاف الآلاف من المعاجز لكان هناك مجال لتردد البعض في اصل وجود نظام الكون .

ثانياً لم يدع احد ان نظام الله هو العوبة ، او ان الانبياء ﷺ يتصرفون به كما يحلو لهم ، بل الذي نقوله هو ان الانبياء ﷺ انما يظهرون امراً خارقاً للعادة بأمر من الله ، ليثبتوا ارتباطهم بعالم ما وراء الطبيعة ، مع اكتفائهم بالحد الأدنى من المعاجز ، وعدم استعدادهم لتقبل المعجزات المقترحة (المعجزات التي تثار من قبل المتذرعين الشكاكين) .

وهناك العديد من الآيات القرآنية التي تشير الى هذا المعنى ، والتي سنتكلم عنها بالتفصيل انشاء الله عند عرضنا لمنطق « المخالفين للمعجزات » .



هـ- فرق المعجزة عن النبوغ : لقد اتضح عدم وجود اي شبه بين المعجزة وعمل النوابع ، اذ ان المعجزة هي العمل الخارج اساساً عن قدرة الانسان ، في حين من الممكن ان يظهر امام كل نابغة شخص مثله ليقابله بالمثل ، فضلاً عن أن أعمال النوابع محدودة بحدود معينة على الدوام ، فأحدهم يبرز مثلاً في الادبيات والآخر في الفن والثالث في الرياضيات والرابع في الصناعة و.... ، اما اعجاز الانبياء ﷺ فلا يحده اطار معين .

وبعبارة اخرى فالنوابع انما يؤدّون ما يعلمون لا ما يطلبه الناس منهم ، في حين ان معجزات الانبياء تتم طبقاً لمراد الناس (وهم اتباع الحقيقة طبعاً ، لا من

يبحث عن الحجج والمعاذير) .

بالإضافة الى قيام النوابع عادة بتنمية قدراتهم الباطنية عن طريق التربية والتعليم ، وعجزهم عن اداء اي شيء مع غياب التعلم المستمر والتمرين المتواصل ، في حين ان هذا لا يصدق في حق الانبياء ﷺ .

و - هل ان المعجزات عملٌ إلهيٌّ أو نتيجة قوّة نفوس الانبياء ؟

طبقاً لما قلناه سابقاً ، فالامور الصادرة من النبوغ او ارادة الانسان القوية او النفوس السامية ، هي امور محددة ومشخصة ، وبالامكان العثور على نظير ذلك الشيء عند باقي البشر ، في حين ان المعجزات غير محدودة وغير قابلة للمعارضة ، كما انه لا يمكن العثور على امثالها في غير الانبياء والائمة ﷺ .

اما حديثنا فيدور حول المعجزة ، وهل أنها من عند الله واقتصار دور الانبياء على الدعاء والطلب فحسب ، أم أن الله يمنح نفوس الانبياء وارادتهم قوّة تمكّنهم من اداء هذه الاعمال الخارقة للعادة باذنه تعالى ؟

لا شك ان بعضاً من المعجزات كالقرآن المجيد هو عمل الله وكلامه ، والحديث هنا عن معجزات اخرى كمعجزة عصا موسى ﷺ واليد البيضاء ، ومعجزات المسيح ﷺ فيما يتعلق باحياء الموتى وشفاء المرضى .

وكلا الاحتمالين ممكنان بنظر العقل ، اي انه لا مانع ابدأ في ان تتحقق المعجزة من قبل الله ودعاء النبي وطلبه ، او ان يمنح الله مثل هذه القدرة لنفوس الانبياء ، ولا منافاة لاي منهما مع اصل التوحيد واسناد المعجزات الى الله .

كما ان هناك اختلافاً بين ظواهر آيات القرآن ايضاً ، يقول تعالى فيما يتعلق باحياء الموتى من قبل المسيح ﷺ : ﴿ وَأَخْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ اذ انه نسب

احياء الموتى هنا الى نفسه .

في حين انه يقول فيما يتعلق بخلق الطير : ﴿ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران / ٤٩) .

فالاولى تبين ان بعضاً من المعجزات يكون من عمل الانبياء ﷺ بامر من الله ، والثانية تدل على ان البعض الاخر هو من عمل الله ، وكما قلنا فكلاهما يعودان في خاتمة المطاف الى الارادة الالهية ولا منافاة لاي منهما ابداً مع اصل التوحيد .

فهل أن الدواء الشافي باذن الله يتنافى و أصل التوحيد ؟

من البديهي انه لا مانع ابداً في ان تؤثر ارادة شخص النبي ﷺ في احياء الموتى وشفاء المرضى باذن الله ، وقد فات المصّرّين على نفي هذا المعنى تلك الحقيقة وهي ان تأثير كل شيء انما هو باذن الله وهذا هو عين التوحيد .

٢ - العلاقة بين الاعجاز والنبوة :

هناك كلام بين العلماء فيما يتعلق بكيفية دلالة المعجزة على نبوة صاحبها ، اي كيف ثبت أن المعارف والقوانين والاحكام التي جاء بها هي وحي الهي ؟ :

قال البعض بان دلالة المعجزة على هذا المعنى هي دلالة عقلية ، في حين رجّح الكثير منهم كونها دلالة وضعية .

بيان ذلك : قد يُتصور احياناً ان اداء عمل خارق للعادة لا يمكنه اساساً ان يكون دليلاً على صدق مدّعي النبوة ، اذ لا مانع من قيام شخص بمعجزة ما مع عدم كونه نبياً ، فلو ان احداً كان خطّاطاً ماهراً ، فهل يدل هذا على ضرورة كونه

عالمًا متبحراً ايضاً ؟ !

لكن هناك ملاحظة فانت انظار القائلين بهذا الكلام ، الا وهي ان الامر الخارق للعادة الصادر من العلماء المتبحرين لا يُعَدُّ معجزة و الذي يفوق قدرة الانسان ، اي المستند على خصوص القوة الالهية .

هل يمكن ان يضع الله امراً خارقاً للعادة ، خارجاً عن عهدة البشر ، تحت تصرف مدع كذاب ليُضل عباده ؟ هل يتلاءم هذا المعنى مع حكمة الله ؟ هذا يشبه تماماً ادعاء احد بانى وكيل للشخص الفلاني اليكم ، ويستدل على ذلك بالخاتم الخاص الذي في يده ، والذي يعود الى ذلك الشخص ، مع علم صاحب الخاتم بذلك .

لا شك في كون هذا الامر دليلاً على قبوله ورضاه ، والا فمن المستحيل ان يسكت على عمل كهذا .

وهذا هو ما بينه القرآن فيما يتعلق بنبي الاسلام ﷺ في الآيات (٤٤ - ٤٦) من سورة الحاقة ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَا خَذَنَّا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ .

اشارة الى ان : نبي الاسلام ﷺ ومع امتلاكه لتلك المعجزات ، لو انحرف عن الحق ونسب الى الله كلاماً مخالفاً ، لا ستلزمت الحكمة الالهية عدم امهاله ولو لحظة واحدة ولاهلكته في الحال .

من الطبيعي ان المدعين للنبوّة كذباً كانوا ولا زالوا كثيرون في العالم ، ولا داعي لان يهلك الله احداً لمجرد ادعائه النبوة كذباً ، هذا الكلام انما يصدق في حق أولئك الذين توجد بايديهم معجزة ، اذ انهم لو كذبوا على الله لما امهلهم ابداً باعتباره اغراء بالجهل .

الجواب الاخر على هذا السؤال هو ان الانبياء ﷺ كانوا يدعون أن الرسالة

انما تعطى لهم عن طريق الوحي ، سواء كان الوحي نازلاً عليهم مباشرة ، أو عن طريق نزول الملائكة ، اياً كان فهو امر خارق للعادة غير مشابه لادراكات الانسان الاعتيادية ، وحتماً فان هناك نوعاً ما من السيطرة على عالم ماوراء الطبيعة في نفوس الانبياء .

ومن هنا كان المخالفون يستشكلون عليهم بانكم بشر مثلنا فكيف امكنكم الارتباط بما وراء الطبيعة ؟ ولذا فقد توسلوا بالمعجزات لاثبات تفاوتهم مع الآخرين^(١) .

ومع ان كلا الجوابين مناسبان وفي نفس الوقت لا تنافي بينهما ، فالاول يبدو وكأنه اوضح من صاحبه .



٣ - التفاوت بين معجزات الانبياء :

من المعلوم أنَّ معجزات الانبياء الالهيين كانت متفاوتة ومتنوعة كثيراً ، فهل ياترى أنَّ هذا الامر كان من قبيل الصدفة ؟ ام ان هناك فلسفة ما وراء ذلك . إنَّ احتمال الصدفة بعيد جداً ، الظاهر هو ان الله الحكيم قد وضع معجزات الانبياء بشكل بحيث تترك كل واحدة منها اكبر الاثر ، قياساً بالظروف الزمانية والمكانية لكل نبي على حده .

فمثلاً حينما نجد ان التران يُعتبر اكبر معجزة لنبي الاسلام ﷺ ، فان ذلك بسبب : اولاً ان نبي الاسلام ﷺ مبعوث الى كل البشرية والى ابد الدهر ، ومن هنا فلا بد والحالة هذه ان يأتي بمعجزة خالدة لا تفقد دورها بمرور الايام ، ثانياً انه ﷺ كان امياً ، فاتيان مثل هذا الانسان بمثل ذلك الكتاب يُعد من ارفع

(١) تفسير الميزان الجزء ١ الصفحة ٨٦ ذيل الآية ٢٣ من سورة البقرة (باقتباس) .

مراتب الاعجاز ، ثالثاً : انحطاط المستوى الفكري لذلك المحيط مع رفعة مضامين القرآن ، وهذا قرينة واضحة أخرى .

مضافاً الى ذلك نجد أنّ ادبيات العرب وعلى خلاف افكارهم ومعارفهم كانت في ذلك الزمان قد بلغت الذروة ، اذ كان لهم شعراء فحول وخطباء يضرب بهم المثل ، وبالأماكن الوقوف على نماذج منها في الشعر الجاهلي . فحينما يستسلم مثل هؤلاء امام فصاحة وبلاغة القرآن ، تتجلى هذه المعجزه بشكل أوضح .

وهكذا معجزة سليمان عليه السلام في مسألة تسخير الرياح والشياطين وامثال ذلك ، ومعرفة منطق الطير كانت متناسبة مع اتساع رقعة ملكه وحكومته ، نظراً لتجاوز حدود مملكته لعالم البشرية .

هذا الكلام يمكننا استنتاجه بوضوح من قول الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام في معرض جوابه على « ابن السكيت » (العالم المعروف بادبيات العرب) .

حينما سأل « ابن السكيت » : لماذا بعث الله موسى بن عمران بيده البيضاء والعصا وآله السحر ، وبعث عيسى بالطب ، وبعث محمداً ﷺ بالكلام والخطب ؟

قال الامام عليه السلام : ان الله تبارك وتعالى لما بعث موسى كان الغالب على اهل عصره السحر ، فاتاهم من عند الله بما لم يكن في وسع القوم مثله ، وبما ابطل به سحرهم واثبت به الحجة عليهم .

وان الله بعث عيسى في وقت ظهرت فيه العاهات واحتاج الناس الى الطب ، فاتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله ، إذ احيى لهم الموتى وابرأ الاكمه والابرص باذن الله ، واثبت به الحجة عليهم ، (طبعاً كانت مهنة الطب

والطباية رائجة كثيراً) .

وان الله بعث محمداً ﷺ في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام ، فاتاهم من كتاب الله ومواعظه واحكامه ما ابطال به قولهم ، واثبت الحجة عليهم .

فحينما سمع ابن السكيت هذا الكلام قال : « تالله ما رأيت مثل اليوم قط » او (تالله ما رأيت مثلك اليوم قط) (١) .

٤ - السحر لا يضاهي المعجزة :

وهنا يرد سؤال مهم آخر كان قد تجسد في كلمات العلماء منذ قديم الايام ، وهو أنه كثيراً ما يشاهد أن أشخاصاً حتى من الكفار قد نالوا قسطاً من خوارق العادات نتيجة للرياضات الشاقة ومقاومة ميول النفس والتمارين الصعبة للغاية ، وبالخصوص بين مرتاضي الهند ، وهناك نماذج مختلفه منها في كتب العلماء والصحف اليومية ، وهي بكثرة بحيث لا يمكن انكارها ، بل ان اصعب الناس تصديقاً حينما يرى هذه المواقف يذعن بامكان صدور الامور الخارقة للعادة من افراد معينين .

والآن يثار هذا السؤال : وهو انه كيف يمكننا التمييز بين خوارق العادات هذه وبين معجزات الانبياء ؟ ولو كان هناك تفاوتاً بينهما فما هو ؟ الا يحتمل ان تكون معجزة النبي من قبيل خوارق عادات المرتاضين ايضاً ؟ .

الجواب : للاجابة على هذا السؤال ينبغي اولاً تقديم تعريف مختصر عن « السحر » فهناك ابحاث موسعة عن ماهية السحر وتأريخ ظهوره ، اذ من الصعب

(١) بحار الانوار الجزء ١١ الصفحة ٧٠ (باب علة المعجزة ، الحديث الاول) .

تحديده بتأريخ معين ، لكن يمكن القول بان السحر يعني في الاصل كل امر لا يعرف مصدره ، ويطلقونه عادة على الامور الخارقة للعادة التي تتم بطرق معينة ، والهدف هو اغفال الناس وخداعهم .

كما ويتوسلون احياناً بالعوامل التلقينية اي انهم يعكسون امام انظار العوام مسائل لا حقيقة لها ، بالتلقينات القوية والمؤثرة ، ويستفيدون احياناً من المهارة والخدعة ، وهي ما يصطلح عليها بـ « الشعوذة » ، وهكذا يشغلون الناظر باشياء معينة ثم يحركون الاشياء عن مواضعها بسرعة ومهارة بحيث لا يلتفت اليها بل يظنها خرقاً للعادة .

كما ويستعينون احياناً بالخواص الفيزيائية والكيميائية المجهولة لبعض الاجسام ، او الامور المرتبطة بكيفية صدور النور من زوايا مختلفة ، بحيث يرى الناظر امامه اموراً خارقة للعادة لا يعلم باسرارها .

واخيراً تلك الامور الخارقة للعادة عن طريق الارتباط بالارواح والاستعانة بالشياطين ، وهذه كلها تندرج تحت المفهوم اللغوي الجامع لكلمة « السحر » . كما يمكن اعتبار اعمال المرتاضين التي يؤدونها عن طريق التمارين الشاقة ، وتمركز القوى الروحية والبدنية ضرباً من « السحر » ايضاً ، وان كانت تعد احياناً خرقاً للعادة في قبال السحر .

على اية حال فاداء هذه الامور من قبل البعض لا يمكن انكاره ، لكن الشيء المهم هو الوقوف على مميزات كل من « المعجزات » و « السحر وخرق المرتاضين للعادات » ، ليتبين الفرق بينهما بالكامل .

وهنا نواجه بعض الاختلافات البارزة :

١ - المعجزة مستندة على القوة الالهية في حين ان سحر السحرة وخرق المرتاضين للعادات ينبعان من القوه البشرية ، ولذا فالمعجزات عظيمة جداً

وغير محدودة ، بعكس السحر وخرق العادات المحدودين .

وبعبارة اخرى فالسحرة والمرتاضون على استعداد لاداء تلك الامور التي تمرنوا عليها لاغير ، دون التي تقترح عليهم ، ولم يحدث الى الآن ان عَبَّرَ السحرة او المرتاضون عن استعدادهم لاداء ما يشير اليه الآخرون ، وذلك لِتَدْرِبِ كل واحد منهم على نوع معين .

صحيح ان الانبياء ﷺ كانوا يبادرون الى اظهار المعجزات حتى قبل ان يطالبهم بها الناس ، (كالقرآن بالنسبة لنبي الاسلام ﷺ ، ومعجزة عصا موسى ويده البيضاء ، واحياء المسيح للموتى) لكنهم مع ذلك لم يستنكفوا ابداً من العمل باقتراحات الامم عليهم ، كمسألة شق القمر ، او رفع الفتن والبلايا عن الفراعنة ، او نزول مائدة سماوية للحواريين ، وامثال ذلك (طبعاً على شرط كون ذلك بدافع الكشف عن الحقيقة لا التعتت) .

ولذا نجد في قصة موسى عليه السلام ان الفراعنة طلبوا منه مزيداً من الوقت لجمع السحرة وترتيب مقدمات العمل ، وذلك تحت عنوان : ﴿ فَاجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اِثْبُوا صَفًا ﴾ ^(١) ، في حين ان موسى كان في غنى عن مثل هذه المقدمات ، كما انه لم يطلب منهم امهاله الفرصة للتفكير في كيفية مقاومة السحرة ، حتى بعد اطلاعه على سحرهم ، وذلك لاعتماده على القوة الالهية واعتماد السحرة على القوة البشرية المحدودة .

ومن هنا فالخرق البشري للعادات قابل للمعارضة والمقابلة بالمثل ، وبامكان الآخرين الاتيان بمثله ، ولنفس هذا السبب ايضاً لا يجرو من يأتي بهذا العمل على « التحدي » اي الدعوة للمقابلة والادعاء بعجز الكل عن اداء ما يؤدّيه ، في حين ان المعجزات كانت مرفقة بالتحدي دائماً ، وذلك لعجز اي

انسان عن الاتيان بمثلها ابدأ (اعتماداً على القوه البشرية) ، فهذا نبي الاسلام ﷺ مثلاً يقول : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ (١) .

ومن هنا ايضاً فسرعان ما تُقهر الخوارق البشرية أمام المعجزات ، ولا يستطيع السحر مبارزة المعجزة ابدأ لعجزه عنها ، بالضبط كعجز اي انسان عن الوقوف امام الخالق .

المثال الواضح لهذه المسألة في القرآن الكريم قصة موسى وفرعون ، اذ انهم جمعوا كل السحرة من مختلف اصقاع مصر ، واخذوا قسطاً وافراً من الوقت لترتيب مقدمات ابداء السحر ، وقاموا برسم الخطط لذلك ، لكنهم ما لبثوا ان تقهقروا في لحظة واحدة امام اعجاز موسى وأضحى سحرهم كسراب بقيعة .



٢ - نظراً لكون المعجزات من قبل الله فهي غنية عن التربية والتعليم الخاصين ، في حين ان السحر ورياضات المرتاضين مسبوقة دائماً بضرب من التعليم والتمارين المستمرة ، الى درجة أن التلميذ لم يتقن تعليمات استاذة لا تحمل عجزه عن اداء ذلك امام الناس وافتضاحه في خاتمة المطاف . وبعبارة اخرى يمكن للمعجزة ان تتحقق في لحظة واحدة وبدون اية مقدمات ، في حين ان الخوارق الاخرى للعادات عبارة عن تلك الامور التدريجية التي تحصل الاحاطة بها والسيطرة عليها بمرور الايام ، والتي لا يمكنها الظهور بشكل دفعي فجائي ابدأ .

وقد تمت الاشارة في قصة موسى وفرعون الى هذه المسألة ايضاً ، حيث

يتهم فرعون السحرة بكونهم تلامذة موسى ، وانه استاذهم الذي اطلعهم على اسرار السحر : ﴿ إِنَّهُ لَكَيْبُرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ ﴾ ^(١) ، ومن هنا يحدث احياناً ان يستغرق السحرة عدة اشهر وسنين في تعليم تلاميذهم والتدرب معهم .



٣ - احوال صاحب المعجزة دليل على صدقه ، الطريق الاخر لتمييز المعجزات عن خوارق العادات البشرية هو المقارنة بين حالات أصحابها ، فاصحاب المعجزات من قبل الله مسؤولون عن هداية الناس ، ولذا نراهم متصفين بأوصاف تتناسب ودورهم ذلك ، في حين ان السحرة والكهنة والمرتابين لا يهدفون الى الهداية ، ولا يتكفلون بمتابعة مثل هذه الاهداف ، بل ينحصر هدفهم عادة في واحد من الامور الثلاثة التالية :

١ - استغفال البسطاء من الناس .

٢ - كسب الشهرة بين عامة الناس .

٣ - المكاسب المادية التي تجنى عن طريق اشغال الناس والهائم .

حينما ينزل هذان الفريقان (الانبياء ، والسحرة وامثالهم) الى الميدان لا يتمكنون ابداً من كتمان امنياتهم واهدافهم مدة طويلة ، بالضبط كما طلب السحرة وقبل نزولهم للميدان اجراً عظيماً من فرعون ، وموافقته على ذلك : ﴿ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ - قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ^(٢) .

(١) (طه / ٧١) .

(٢) (الاعراف / ١١٣ و ١١٤) .

في حين ان الانبياء يكررون القول : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ (١)
(وقد ورد هذا التعبير في حق الكثير من الانبياء في العديد من الآيات) .
وقوف السحرة في خدمة فرعون يكفي بنفسه للتمييز بين « السحر »
و « المعجزة » .

لا يخفى ان حقيقة الانسان لابد وان تنعكس من خلال تصرفاته ، وان
اجاد في التغطية على افكاره واهدافه .

خلاصة القول هي ان الوقوف على بدايات حياة امثال هؤلاء الاشخاص
وكيفية استفادتهم من خرقهم للعادات التي يؤدونها ، مع الاخذ بنظر الاعتبار
مكانة امثالهم بين مختلف شرائح المجتمع ، بالاضافة الى نوعيه تصرفاتهم
واخلاقهم ، يمكنها بمجموعها ان تكون دليلاً حسناً لتمييز « السحر » عن
« المعجزة » ، ومع قطع النظر عن موارد الاخلاق الاخرى التي ذكرت اعلاه ، نجد
أن من السهل تشخيص المعجزات عن السحر وبقية خوارق العادات من خلال
هذا السبيل .

وقد اشار القرآن الى هذه الحقيقة بتعابير دقيقة ، اذ يقول في موضع :
﴿ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ
الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .

أجل فالسحرة اشخاص مفسدون ذووا اعمال باطلة ، ومن الواضح ان
اعمالاً كهذه لا يمكنها ابداً ان تكون لها حيثية ايجابية في المجتمع .
وفي موضع اخر حينما يخاطب الله تعالى موسى يقول : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ ثم يضيف : ﴿ وَآلَتِي مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَّا

(١) (الشعراء / ٩٠) .

(٢) (يونس / ٨١) .

صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿١﴾ .

نعم ، فعمل الساحر مكر وخديعة ، ولا بد لميوله النفسية ان تتلاءم وعمله هذا ، انهم اشخاص متقلبون مخادعون ، كما يسهل تشخيصهم بسرعة من خلال صفاتهم وتصرفاتهم ، في حين ان اخلاص وصدق وصفاء الانبياء ﷺ دليل مقرونٌ باعجازهم أضفى عليهم المزيد من الجلاء والوضوح (٢) .

٥ - منطق منكري الاعجاز :

يتشبت منكروا الاعجاز في بعض الاحيان بدلائل عقلية ظاهرية ، وقد ذكرنا فيما سبق نماذج لها واجبنا عليها ، كما تمسك البعض ايضاً بقسم من آيات القرآن ظناً منه بنفيها لمسألة معجزة الانبياء ، خصوصاً معجزة نبي الاسلام ﷺ ، او انكارها للمعجزات من غير القرآن ، واهم الآيات التي تمسكوا بها او التي يحتمل البحث فيها هي الآيات التالية :

١ - نقرأ في سورة الاسراء : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً - أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيراً أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفاً (قطعاً) أَوْ تَأْتِي بَالِهٍ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلاً - أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي (من هذا الكلام الفارغ) هَلْ كُنْتُ إِلَّا

(١) (طه / ٦٨ و ٦٩) .

(٢) ورد نظير هذا المعنى في سورة يونس الآية ٧٧ .

بَشْرًا رَسُولًا ﴿١﴾ .

وكما نلاحظ فنبى الاسلام ﷺ لم يستسلم ابداً امام أية واحدة من خوارق العادات والمعجزات التي طلبها هذا الفريق من مشركي قريش ، بل اقتصر جوابه على القول : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشْرًا رَسُولًا ﴾ .

٢ - كما ونقرأ في نفس هذه السورة : ﴿ وَمَا مَنَعْنَا أَنْ نُزِيلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (الاسراء / ٥٩) . اذ ان هذه الآية ايضاً تبين ان الله لم يعط المعجزة لنبي الاسلام ﷺ وذلك لاجل تكذيب الاولين بالآيات الالهية !

٣ - وجاء في سورة هود : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (هود / ١٢) .

هذه الآية كالاولى ايضاً التي تقول في قبال طلب الكفار : «انما انت نذير» .

٤ - وجاء في سورة الرعد ايضاً : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد / ٧) .

الا تصرح هذه الآيات بعدم استسلام النبي ﷺ امام طلباتهم للمعجزة ؟

٥ - ونقرأ في سورة الانعام ايضاً : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الانعام / ٣٧) .

يقول المفسر الكبير المرحوم امين الاسلام الطبرسي في ذيل هذه الآية : وقد اعترضت جمع من الملاحدة على المسلمين بهذه الآية فقالوا انها تدل على ان الله تعالى لم يُنْزِلْ على محمد آية ، اذ لو نزلها لذكرها عند سؤال المشركين

اياها (ثم يتعرض بعد ذلك للرد على هذه الشبهة وهو ما سنشير اليه فيما بعد) .
يتضح من كلام هذا المحقق ان مثل هذه الوسوس حول المعجزات كانت
منذ قديم الايام ، ولم تقتصر بعصرنا هذا .
كما ان هنالك آيات اخرى ذكرت حول هذا الموضوع ، لكن ضعف
استدلالاتها دفعنا لغض الطرف عنها .

الجواب :

الالتفات الى بعض الملاحظات يكفي لتوضيح تفسير هذه الآيات ، كما
ويضع نهاية لهذه الحجج ايضاً .

١ - من الواضح ان اياً من هذه الآيات لا ينفي المعجزات بشكل مطلق ،
وعلى فرض دلالتها على ما توهمه المستدلون فهي لا تتعدى اكثر من نفي
المعجزة عن نبي الاسلام فحسب ، فضلاً عن بدهة عدم نفيها لمعجزة القرآن ،
وذلك لان الكثير من آيات القرآن قد اعتبرت هذا الكتاب السماوي معجزة
خالدة ، كما ودعت كل المخالفين للمنازلة ، لكنهم عجزوا عن مقابلتها ، فاية
معجزة اكبر وارفع من دعوة الانس والجن للمقابلة وعجزهم عن ذلك ^(١) .

وبناءً على هذا فعلى فرض صحة كل هذه الاستدلالات ستنحصر معجزة
نبي الاسلام ﷺ بالقرآن المجيد ، وهذه المسألة (وعلى فرض صحتها) لا
تخدش في مسألة نبوة نبي الاسلام ﷺ ، كما انها لن تخدم مخالفتي النبوة باني
وجه .

آيات القرآن مليئة بمعجزات الانبياء السابقين وخرقهم للعادات ، وبهذا
فمعجزاتهم هي مما لا يمكن انكاره ، اما فيما يتعلق بنبي الاسلام ﷺ فانها

(١) راجع الآيات (يونس / ٣٨) و (هود / ١٣) و (الاسراء / ٨٨) .

تصرح باعجاز القرآن ، وهكذا لن يبقى سوى نفي باقي المعجزات عن نبي الاسلام ﷺ ، وهذا على فرض صحته لا يؤثر في المسائل الاعتقادية باعتباره مسألة فرعية وتاريخية لا غير .

٢ - لسان هذه الآيات يكشف عن ان الهدف ليس نفي المعجزات الحقيقية بل الاقتراحية .

بيان ذلك : إن الواجب على كل الانبياء هو اثبات صدق دعواهم عن طريق المعجزات او طرق اخرى ، وبناءً على هذا فكلما جاؤا بالمعجزة بما فيه الكفاية لم يبق هناك دافع يدفعهم لاثبات المزيد من المعجزات ، اذ ان مهمة النبي ﷺ لم تكن خرق العادة فقط ، ليجلس في زاوية ويقترح عليه كل شخص معجزة طبقاً لهواه ، ثم يقترح اخرى بعد مشاهدتها لو طاب له ذلك ويعبث بقوانين الخلق ، وبعد كل هذا ايضاً فاما ان يدعن لدعوة النبي ﷺ او يرفضها لو لم يرغب فيها .

وبعبارة اخرى ، فالنبي مكلف بابداء المعجزات لطالبي الحق ، بما يكفي لاقامة الحجة وليس مسؤولاً ابداً للاستجابة للمعجزات الاقتراحية التي يثيرها المتذرعون طبقاً لاهوائهم ، لا لتحقيق الحق ، بل للحصول على منفذ يخلصهم من الحقيقة .

الاقتراحات التي ذكرت في اول آية دليل واضح على هذا الموضوع ، فهم من جهة قد طلبوا سبع معجزات ! مع ان واحده تكفي للباحث عن الحقيقة .

وطلبوا من جهة اخرى معجزات يكمن فيها فناؤهم ، اذ قالوا مثلاً : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ﴾ ، ومن الواضح ان طالب الحقيقة لا يطلب تلك المعجزة التي فيها فناؤه ابداً ، اذ الهدف من المعجزة هو الايمان لا الموت والفناء .

ومن جهة ثالثة فقد طلبوا المحال ، كاقتراحهم مثلاً نزول الله والملائكة عليهم : ﴿ أَوْ تَأْتِي بَالَهُ الْمَلَائِكَةُ قَبِيلاً ﴾ ، وعدم وجود الله في مكان معين لتركه ويأتي الى هؤلاء المتعللين هو مما لا يخفى .

ومن جهة رابعة نراهم يصرحون بعد طلبهم للمعجزة المقترحة بانهم لا يؤمنون به ، حتى تؤدي العمل الفلاني الاخر ايضاً : ﴿ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً (من الله) نَقْرُؤُهُ ﴾ .

ومع الاخذ بنظر الاعتبار لما تقدم نفهم بوضوح ان هدفهم لم يكن سوى المعجزات الاقتراحية ، وليس هناك اي نبي يستسلم لمثل هذه الطلبات .

اللطيف هو ما نقرؤه في الكثير من الحوادث التاريخية المرتبطة بعصر ظهور الانبياء ، خصوصاً نبي الاسلام ﷺ من ان الكفار وبعد مشاهدتهم للمعجزات نراهم يتوسلون بذريعة كونها سحراً ، تهرباً من المسؤولية وتحاشياً للرضوخ لها ، وهو ما قام به بالضبط فرعون واتباعه ايضاً في قبال موسى عليه السلام ، حيث انهم وحتى بعد مشاهدتهم لغلبة موسى عليه السلام بمفرده على كل اولئك السحرة الماهرين المرتاضين وإيمان السحرة به ، والذي يدل بمالا يدع مجالاً للشك على اعجاز موسى عليه السلام ، واعتماده على القدرة الالهية ، لم يتنازلوا عن كلامهم ايضاً ، بل قالوا :

﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السُّحْرَ ﴾ (طه / ٧) .

ولذا يقول في سورة (الانعام / ١١١) : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (ليجبرهم على الايمان) ﴾ .

ويقول في سورة (الانعام / ٢٥) ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ ، كما يصرح في سورة (العنكبوت / ٥١) وفي معرض الرد على طلبهم لمعجزات

مختلفة ، بالقول : ﴿ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ .

مفهوم هذا الكلام هو ان المعجزة يجب ان تهدف الى اثبات حقانية دعوة النبي ﷺ وان هذا الكتاب السماوي « القرآن » هو افضل دليل ومعجزة ، فما الداعي بعد كل هذا للاصرار على المزيد من المعجزات الواحدة تلو الاخرى ؟ .

٣ - لا شك ان المعجزات هي من عند الله في الواقع ، وان كل ما يملكه الانبياء منها انما هو باذن الله وأمره ، لكن ربما يخطر على ذهن البعض احياناً تصور بأن الانبياء ﷺ ، قد اصبحوا فيما يتعلق بالمعجزات مصداقاً لـ « فَعَالَ لَمَّا يَشَاء » . وانهم يفعلون كل ما يريدونه ، وهذا ما ساعد على اتساع رقعة الغلو في الانبياء ﷺ ودفع بالكثير الى اعتبارهم كالاله ، ولهذا السبب لم يستجب الرسل والانبياء الالهيون لما يقترح عليهم من المعجزات ، بل قالوا ان هذا ليس من شأننا ، انما هو منوط باذن الله وامره ويجب ان نعرف ما هي ارادته .

الدليل على هذا الكلام هو ما نقرأه في سورة (الرعد / ٣٨) : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

كما ورد نفس هذا المعنى بوضوح في سورة (الانعام / ١٠٩) اذ يقول تعالى : ﴿ وَاقْسُمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

هذه الآية تكشف عن الحاحهم في طلب المعجزات من جهة ، وارتباط المعجزات بارادة الله المطلقة من جهة اخرى .

آخر ما يتعلق بهذا الموضوع هو ان القرآن قد ذكر الكثير من معجزات الانبياء السابقين وخرقهم للعادات ، ومن البديهي ان نبي الاسلام ﷺ لم يتمكن ابداً من ذكر هذه المعجزات في كتابه السماوي ، ويكشف الستار عن بعضها عن طريق الوحي الالهي ، لو لم يعكس هو بنفسه جزءاً منها في وقت

يعتبر نفسه خاتم الانبياء وافضلهم ، وكون دينه دينَ الخلود وافضل الاديان .
كيف يقتنع الناس بامتلاك باقي الانبياء ﷺ لكل تلك المعجزات دون نبي
الاسلام ﷺ ، مع كل ما يتمتع به من منزلة وعظمة ؟
هذا التحليل يبين ان لنبي الاسلام ﷺ بالاضافة الى القرآن معجزات
اخرى كثيرة ، لم تكن أقل أهمية من معجزات سالف الانبياء ﷺ ، وهناك ايضاً
آيات قرآنية تشهد على هذا الموضوع ستأتي في محلها انشاء الله ، وبناءً على
هذا فالاصرار على نفي باقي المعجزات من قبل بعض المغفلين لا يبدو صحيحاً
بأي وجه .

الطريق الثاني :

التحقق في مضمون
دعوة الانبياء عليهم السلام

الطريق الثاني

« التحقيق في مضمون دعوة الانبياء ﷺ »

احدى الطرق الاخرى لمعرفة الانبياء الالهيين ﷺ هي التحقيق فيما تتضمنه دعواتهم ، اي مجموعة المعارف والاحكام والقوانين ، والبرامج الانسانية والاخلاقية البناءة التي يدعون اليها .

وسنتكلم عن هذه المسألة بالتفصيل في بحث النبوة الخاصة ، اي اثبات نبوة نبي الاسلام ﷺ كمثال على ذلك ، اذ حينما نتأمل في تعاليمه بدقه نجدها وبالرغم من ظهوره في محيط يفتقر الى كل انواع الحضارة الانسانية بين قوم نصف متوحشين غارقين في الخرافات والعادات الجاهلية ، تمزقهم الخلافات الكثيرة والعقائد السخيفة والكثير من الاحقاد والعداوات ، نعم ، وبالرغم من كل ذلك نجد ان تعاليم بصورة مجموعة من العقائد التوحيدية الخالصة الحاوية على افضل المعلومات عن الله وصفاته الجلالية والجمالية ، والعديد من تواريخ الانبياء ﷺ المذكورة بما يتناسب ورفعة منزلتهم بالاضافة الى الاحكام والقوانين المتضمنة للعدالة الاجتماعية ، والبرامج العارية عن اوهام الخرافات والاخلاق

والقيم التي تعد بحق متممة لمكارم الاخلاق ، ونظير هذه المسائل هو ما سنتطرق لشرحه مستدلين بالآيات والروايات .

هل بالامكان ظهور مثل هذه التعاليم في مثل ذلك المحيط ومن انسان امي ؟ أليس هذا بنفسه خير دليل على صدق مَنْ جاء بها ؟

ويكفي صدق نظير هذا المعنى لوحده في حق كل واحد من الانبياء والائمة عليهم السلام للتدليل على صدقهم ايضاً ، وبعبارة اخرى : هل هناك معجزة اكبر من ظهور مثل تلك التعاليم من البشر ؟ ، إِنَّ استحالة هذه المسألة بدون امداد الهي لا تخفى على أحد ، فهي المعجزة بعينها .

بل التحقيق في مضمون دعوة الانبياء ونكاتها الدقيقة ، وروعة ارشاداتهم يعدّ احياناً عند اهل النظر والمعرفة ارفع درجة من المعجزات من قبيل شق القمر واحياء الموتى واشفاء المرضى ، وان كانت المعجزات المادية والحسيّة اهم عند عامة الناس ، وسنكتفي بهذه الخلاصة حول هذا البحث ، ونترقب شرحه في مكان اخر .

الطريق الثالث :

جمع القرائن

الطريق الثالث

« جمع القرائن »

المراد بـ « جمع القرائن » الذي نطرحه باعتباره احد ادلة النبوة هو كون دعوة كل نبي ممزوجة بسلسلة من الخواص الزمانية والمكانية ، والحديثات الاخرى المحيطة بحياته الخاصة والعامة ، فتشكل بمجموعها عاملاً قوياً يدل على صدق مدعي النبوة (مع قطع النظر عن مضمون دينه والذي تمت الاشارة اليه سابقاً) .

وهذا هو ما يستفاد منه اليوم في المحافل القضائية ، للكشف عن الحقيقة عند عدم الشهود وعدم الاعتراف من المتهم ، بل يتيقن القاضي من سلسلة القرائن التي تحف بالواقعة ببراءة المتهم او ادانته ، وقد تفوق هذه القرائن بمجموعها الاقرار وشهادة الشهود من حيث الاهمية في بعض الاحيان ، نظراً لامكان الاقرار بدافع المصلحة الشخصية كالاقرار بالجريمة لتبرئة ساحة المجرم الحقيقي في قبال اجر يتقاضاه سراً ، أو أن يكون للشهود باطنٌ يخالف ظاهرهم الحسن . في حين انه لو تم جمع القرائن بشكل صحيح وكانت بالقدر

الذي يعتد به القاضي لكان لها دور اكبر .

فوقوع حادثة قتل مثلاً في مكان ما مع انكار المتهم او المتهمين وعدم الشاهد ، يدفع بالقاضي الفطن الى الخوض في جمع القرائن وتسليط الضوء على امور من قبيل :

نوع العلاقة التي تربط المتهمين بالمقتول وهل هي قائمة على الصداقة ام العداوة ؟

مكان وقوع الحادثة ومميزاته ومدى انسجامه مع المتهمين .
وكذلك زمان وقوع الحادثة والمكان الذي كان فيه المتهم حينها (وما هو الدليل على ذلك) .

كيفية القتل ونوعية السلاح الذي استخدم في القتل ، مع مقارنته بالسلاح الذي شوهد احياناً عند المتهم .

روحية المتهم وسوابقه :

ومن القرائن ردود فعل المتهم حين مشاهدة ثياب المقتول الملوثة بالدماء او باقي آثار الجريمة ، وافادات الجيران وتردد المتهمين هناك وامور اخرى من هذا القبيل .

والتحقيق في بعض الامور الاخرى قد يدفع بالقاضي احياناً للبت بانتفاء العلاقة بين المتهم والجريمة ، منها السيرة الحسنة وعدم تضاد الاجوبة وامور اخرى وبذلك يكشف عن براءة المتهم أو كونه المجرم الحقيقي ، وبامكان القاضي اصدار حكمه النهائي على اساس يقينه الحاصل من هذه المقدمات التي هي اقرب الى الحس .

هذا النوع من الاستدلال لا يختص بالمسائل القضائية ، بل كثيراً ما يستند اليه العلماء لحل المشاكل التاريخية والاجتماعية العالقة ، وحتى فرضيات العلوم الطبيعية ، بل فعالية هذا الأسلوب لا يمكن انكارها خصوصاً فيما يتعلق بالمسائل السياسية التي تبقى جذورها - ولأسباب لا تستحق التعليق - غامضة على الأعم الأغلب .

كما ويمكن غالباً التعرف عن هذا الطريق على الانبياء الصادقين ، وتمييزهم عن غيرهم فيما يتعلق بالمدعين للنبوّة ، اذ ينبغي هنا مثلاً الالتفات الى الأمور التالية :

١ - ما هو وضع المحيط والاصول العقائدية والاخلاقية الحاكمة عليه ، وهوية القوم الذين ينتمي اليهم ؟

٢ - زمان الدعوة ووضع العالم آنذاك ، وماهية الظروف المهيمنة على محيط حياة مدعي النبوة في ذلك الزمان .

٣ - الخصوصيات الاخلاقية والصفات والروحيات وسيرته من حيث التقوى والورع والامانة .

٤ - هل الافراد الذين اتبعوه متصفون بالصدق والذكاء ام انهم سفهاء لا تقوى لهم ؟

٥ - مدى ايمانه بادعائه وحجم تضحيته وايثاره .

٦ - الطرق التي يسلكها للتعجيل بتحقيق اهدافه وهل هي مشروعة ، ام ظالمة وغير منطقية ؟

٧ - ما هو رد فعله فيما يتعلق بالقبائح او خرافات المجتمع ، وهل انه يخطط لاصلاح المجتمع أم يساوم مع مفاسد المجتمع طمعاً في كرسى الحكم ؟

٨ - مدى حبه للدنيا والمظاهر المادية والمال والمقام ؟

٩ - ما هو موقفه من الاعداء لحظة الانتصار ، وهل يتصرف مع معارضيهِ بعدالة ام لا ؟ .

١٠ - هل تدور شعاراته مدار المصلحة الشخصية ، أم انه يسير دائماً على اصول ثابتة بقدّم راسخة ؟ وقرائن اخرى .

جميع هذه القرائن التي تحف بحياة المدعي العامة والخاصة (مع قطع النظر عن مضمون دعوته ، يكون احياناً بمثابة المشعل الوضاء الذي يكشف عن صدقه او كذبه بكل وضوح دونما حاجة الى معجزة او دليل) ، بل وأحياناً يُعتبر توفر بعض ما تقدّم ذكره دليلاً قاطعاً على اثبات هذا المقصود . وسنتناول هذا البحث بالتفصيل في مبحث النبوة الخاصة لنبي الاسلام ﷺ انشاء الله .

الملفت للنظر هو ما نقرؤه في العديد من الروايات في التواريخ الاسلامية عن اعتناق اشخاص لدين الله ، لمجرد الوقوف على عدد من هذه القرائن ، بل أنّ عدداً من الاعداء اللدودين غيرّوا مواقفهم وعادوا اصدقاء حميمين نتيجة ذلك ، ولو تم جمع هذه الروايات لظهر منها بحث موسع ولطيف ، يعكس نور الايمان الذي سطع من القلوب المؤمنة لمجرد اطلاعها على هذه القرائن دون البحث عن أية معجزة .

ارشادات القرآن حول هذين الدليلين :

إنّ لايات القرآن الكريم تعابير لطيفة حول الدليلين الاخيرين (جمع القرائن ، والتحقيق في مضمون الدعوة) او على الاقل اشارات بليغة اليهما من جملتها :

١ - نقرأ في سورة (الاعراف / ١٥٧) ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ... ﴾ .

تشير هذه الآية الى احد الادلة اللاحقة أي شهادة الانبياء السابقين من جهة ، والى عظمة مضمون دعوة ذلك النبي من جهة اخرى ، وتذكر من جهة ثالثة قسماً من صفاته كشاهد على حقانيته .

لا شك ان الدعاة غير الالهيين انما يهدفون الى كبت طاقات الشعب واستثمارها واستعمارها بدل السعي لتحريرها .

انهم لا يؤيدون ابداً الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهل يعقل صدور كل هذه المعارف الرفيعة والاحكام والقوانين والاوامر

المدروسة من شخص امي يا ترى ؟

٢ - تمت الاشارة في سورة (التوبة / ١٢٨) الى خمسة اوصاف من صفات

النبي ﷺ ، والتي يمكنها أن تشهد على صدق دعوته ، يقول تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ

بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

٣ - تمت الاشارة في سورة (الكهف / ٦) الى حرص النبي ﷺ الشديد

على هداية المؤمنين ، والذي يعد بنفسه دليلاً ناطقاً على ايمانه بهذا الدين الالهي :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ

أَسْفَا ﴿١﴾ .

٤ - تم التأكيد في سورة (العنكبوت / ٤٨) على ان النبي كان امياً ، لما في ذلك من دور في ازالة حالة الشك والتردد التي تثار حول نبوته ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأَزْتَابِ الْمُنْطَلُونَ ﴾ .

٥ - وفي الآية التي بعدها (العنكبوت / ٤٩) تمت الاشارة الى المبشرين بهذا الدين والمؤمنين به ، يقول تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ (القرآن) آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ .

لا شك ان تأكيد علماء الامة ومفكريها على شيء ما ، يمكنه ان يكون دليلاً وقرينة على حقانيته .

٦ - كثيراً ما نقرأ في آيات القرآن عند وصفها للانبياء الالهيين ونبي الاسلام ﷺ انهم لم يطلبوا اجراً ابداً ، ولم يفكروا في العطايا المادية وانهم بقوا على عهدهم هذا طول عمرهم ، في حين ان المدعي كذباً لهذا الأمر سيكون ادعاؤه بلاشك لامور مادية .

من جملتها ما نقرأه في سورة (يس / ٢١) : ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ وآثار التقوى والنزاهة ظاهرة عليهم) ﴿ .

٧ - كما نجد في اكثر آيات القرآن ان الطبقات المسحوقة والمستضعفة ، كانت في الصف الاول من الذين آمنوا بالانبياء الالهيين ، وهذا ما كان يطعن به الاثرياء المتكبرون غالباً .

من جملتها ما نقرأه في سورة (الكهف / ٢٨ و ٢٩) حينما استشكل فريق من الاغنياء على نبي الاسلام ﷺ حول هذا الموضوع اذ امره القرآن بعدم

التخلي عن هذه الثلة المؤمنة المستضعفة ابداً :

﴿ وَ اضْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا
وَلَا تُطِيع مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا *
وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ... ﴾ .

ولا شك ان المصلحة المادية تدفع بالمدعين كذباً ، وعبدية الدنيا للإلتفاف
حول اهل الشراء على طول الخط .

بل نقرأ في قسم من الآيات الشريفة ان هذه الطبقة المستكبرة اعتبرت
المؤمنين المستضعفين طبقة المجتمع السفلى ، التي لم تثبت وجودها وعبرت
عنها بـ «الاراذل» ^(١) ، والتدقيق في آيات القرآن يكشف عن أن الكثير منها تشير
الى هذا الدليل والذي قبله .

الطريق الرابع :

شهادة
الانبياء السابقين

الطريق الرابع

« شهادة الانبياء السابقين »

الطريق الاخر الذي يمكن من خلاله تمييز الانبياء ﷺ عن المدعين كذباً هو اخبار الانبياء السابقين القطعية الصريحة بالنسبة للانبياء اللاحقين ، باستثناء اول نبي اذ لا يمكن التعرف عليه عن هذا الطريق بل لا بد من الرجوع الى أحد الطرق الثلاثة التي تقدم شرحها وهي (الاعجاز ، والتحقيق في مضمون الدعوة ، وجمع القرائن) .

وهذا الطريق ليس بتلك السهولة التي توهمها بعض المنتفعين بالرغم من كونه أسهل من سابقه ، ولغرض الحصول على نتيجة قطعية غير قابلة للانكار هنا ينبغي مراعاة الشروط الاربعة التالية :

١ - اثبات « نبوة » النبي السابق الذي يخبر عن خلفه ويذكر صفاته ، بالدليل القطعي الذي لا يقبل الانكار ، ولا يعتد باخباره وشهادته هذه الا بعد احراز نبوته بشكل تام مسلّم به .

٢ - صدور هذا الخبر عن النبي السابق يجب ان يكون قطعياً ، وعلى هذا

فلا يعتد بالاخبار الضعيفة والمشكوكة من اي مصدر كانت ، بل لا يعتد حتى
 باخبار الكتب المعتمدة لو لم تبلغ مرتبة القطع واليقين .

٣- دلالة هذا الخبر يجب ان تكون صريحة قطعية غير قابلة للاحتمال ، اذ
 من الخطأ التمسك باحد شقي الاحتمال والتكلف بتطبيقه على نبوة المدعي
 الجديد بتفاسير وتوجيهات ، بل وحتى « تحريفات » في بعض الاحيان ، لان
 هدف النبي السابق من اخباره هذا انما هو الكشف عن حقيقة خطيرة تقرر مصير
 المستقبل ، وتوقف اصحابه على هوية النبي الجديد ، وليس اللعب بالالغاز
 لإسْدال الستار على « السر المكتوم » ، اذ الصراحة في موقف كهذا حاكمة على
 الكناية بكل تأكيد ، وذلك لسد الباب امام المتذرعين ومثيري الفتن .

وقد تمسك بعض مبتدعي الدين المحترفين بتأويلات وتخريجات
 عجبية بالنسبة للكتب السماوية ، وبلغ بهم الحد الى التوسل بحسابات
 الـ « ابجد » ! وحسابات العرافين وامثالها .

كيف يفكرون ياترى ؟ فالنبوة التي ينبغي ان تكون مشعلاً لهداية البشرية
 ليست شيئاً محظوراً مرموزاً كاسرار الكيمائيين القدماء لتتم عن طريق حسابات
 الـ « ابجد » الصغير » و « الكبير » خوفاً من وقوعها في غير محلها .

٤- يجب ان تنطبق العلامات التي جاءت في اقوال الانبياء السابقين
 بالكامل على حالة المدعي الجديد ، لا ان نتصرف فيها بملء الفراغات وحذف
 الاضافات التي نتصورها ، لان ذلك يعني بالتاكيد خداعنا لانفسنا ، اذ ان نبأ كهذا
 انما هو مرسل من قبل « أفكارنا الشيطانية » لا من قبل الله تعالى !

لو تم جمع هذه الجهات الأربع الواردة في اخبار النبي السابق لا يمكن
 التعرف من خلالها على مقام نبوة المدعي الجديد ولو غاب احدهما لاعتلت
 النتيجة .

وعلى أية حال فقد تمت الإشارة الى هذه المسألة في موردين قرآنيين على أقل تقدير، وقد اكتفينا في هذا البحث الكلي (النبوة العامة) بشرح مختصر على امل تفصيل ذلك في « النبوة الخاصة » :

١ - حول بشارة المسيح ﷺ بالنسبة لظهور نبي الاسلام ﷺ نقرأ في سورة (الصف / ٦) : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

لا يخفى وجود هذه البشارة (او البشارات) حتى في اناجيل اليوم المحرفة ، وهو ما سنوكل البحث فيه وكذا فيما يتعلق بكون الاسم « احمد » من اسمائه الشريفة ﷺ الى جانب الاسم « محمد » (مدعوماً بالشواهد والقرائن) الى المستقبل .

٢ - بشارة التوراة (او التوراة والانجيل) بظهور نبي الاسلام ﷺ والتي تعرضت لها عدة آيات قرآنية ، هي من الوضوح عند ذكرها لصفاته وكأنه ﷺ يعيش بين ظهرانيهم يعرفونه كأحد أبنائهم .

بل جاء في التواريخ ان هجرة اليهود من الشام وفلسطين الى المدينة والاستقرار فيها انما كان لاجل تلك البشارات التي وجدوها في كتبهم حول ظهور النبي (هذا الموضوع ورد بالتفصيل في التفسير الامثل ذيل الآية ٨٩ من سورة البقرة)^(١) ، وعلى الرغم من كون الكثير منهم من المبلغين لنبي الاسلام ﷺ لكنهم سرعان ما انقلبوا على اعقابهم وامتنعوا عن الايمان به بعد ظهوره ، نظراً لتعرض مصالحهم الشخصية للخطر ، وقد لامهم القرآن على ذلك .

من الآيات التي تشير الى هذا المعنى هي الآية ١٤٦ من سورة البقرة ،

يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ !

وورد نفس هذا المعنى في سورة (الانعام / ٢٠) : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ ﴾ !

وجاء هذا المعنى بصراحة اجلى في سورة (الاعراف / ١٥٧) : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ .

كما أن احد الاحتمالات الواردة في تفسير الآيات القائلة بتصديق القرآن ، والكتب السابقة « : ان المراد من « التصديق » هو انطباق القرآن وصفات النبي ﷺ على تلك العلامات التي جاءت في تلك الكتب (١) .

كما اشارت الروايات الاسلامية الى بشارة الانبياء السابقين باللاحقين ، اذ نقرأ في اول خطبة من خطب نهج البلاغة : (مِنْ سَابِقِ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ ، أَوْ غَايِرَ عَرَفَهُ مَنْ قَبْلَهُ) .

هذا التعبير الذي كشف النقاب عن طرفي القضية يعد من أبلغ التعابير حول هذا الموضوع ، كما تم التصريح بهذا الشيء في حديث مفصل عن الامام الباقر عليه السلام اذ يقول : (وَبَشَّرَ آدَمُ بِنُوحٍ) .

وقال في مكان اخر : (وَبَشَّرَ نُوحٌ سَامًا بِهُودٍ) .

وجاء عنه عليه السلام في موضع اخر : (فَلَمَّا نَزَلَتِ التَّوْرَةُ عَلَى مُوسَى بَشَّرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ... فَلَمْ تَزَلِ الْأَنْبِيَاءُ تُبَشِّرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ فَبَشَّرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ) (٢) .

(١) لمزيد من الاطلاع راجع التفسير الامثل ذيل الآية ٤٩ سورة البقرة الجزء ١ الصفحة ٢٧ .

(٢) شرح نهج البلاغة للخوئي ، الجزء ٢ الصفحة ١٣٨ - ١٤١ ط . طهران .

مسألة الوحي

مسألة الوحي

« كيفية الارتباط بعالم الغيب »

تمهيد :

لاشك ان للانبياء الالهيين ارتباطاً بعالم الغيب وما وراء الطبيعة ، وبعبارة اخرى ، أن لهم علاقة خاصة بالله تعالى ، وقد استلهموا عن هذا الطريق التعاليم الخاصة والاحكام والقوانين الالهية وبلغوها الامم .

لكن كيف كانت هذه الرابطة ياترى ؟ فهذه مسألة في غاية التعقيد ، ومن السهل الاطلاع عليها اجمالاً في حين تعد الاحاطة بها تفصيلاً في غاية الصعوبة ، لاستحالة ادراكها بالدقة من قبل من يفتقر لهذه العلاقة ، بالضبط كاحساس البصير منذ ولادته بامتلاك الاخرين لحس اضافي ، يطلعون من خلاله على كل الموجودات المحيطة بهم ولامتدادات واسعة ، كما ويدركون من خلالها مختلف الالوان والانوار ، اما ما هو هذا الحس وما هي حقيقة « اللون » و« النور » ؟ فهذا ما لا يمكنه ادراكه ابداً .

اذن فالذي سيعرض في مبحث الوحي وحقيقته لا يتعدى سوى الحصول

الانبياء عليهم السلام وعلم الغيب

تمهيد :

لفظة « الغيب » تقابل « الشهود » ، والشهود يطلق على الموارد التي يكون فيها الشيء قابلاً للاحساس والمشاهدة ، وبهذا فالغيب يطلق على كل الامور الخافية عن شعور الانسان ، ولذا ورد في البعض من آيات القرآن تعبير « الايمان بالغيب » عند التطرق للايمان بالله واليوم الآخر : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (البقرة / ٣) .

وفي موضع آخر يصف القرآن المتقين : ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ (الانبياء / ٤٩) .

بل وحتى يمكن ان يعد الشيء واضحاً محسوساً لفرد وغير محسوس لآخر ، وذلك لعدم حضوره في ذلك المكان ، حيث يطلق « الغيب » على ذلك ايضاً ، كما نقرأ في قصة يوسف أن امرأة عزيز مصر حينما اعترفت بطهارة يوسف في غيابه اضافت قائلة ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ (يوسف) أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ (يوسف / ٥٢) .

بعد هذا يدور الكلام حول الانبياء الالهيين ، وهل انهم مطلعون على

على ذلك العلم الاجمالي بخواص الوحي ، مع الاجابة على الاسئلة التي ستثار هنا ، ومن هنا لا ينبغي مطالبة هذه المباحث بالكشف عن « كنه » الوحي ، لاستحالة ذلك لغير الانبياء ﷺ بالضبط كالمثال المتقدم اعلاه .

في المجلد الاول من هذا التفسير « رسالة القرآن » وعند شرح خامس مصدر من مصادر المعرفة تحدثنا بالتفصيل عن مسألة الوحي ، وكشفنا النقاب عما يرتبط به من معارف قدر المستطاع ، ولذا فقد اكتفينا بذكر موجز لمبحث الوحي ، مع اضافات جديدة على ما قيل هناك ، وسنوكل توضيح باقي المسائل الى ذلك البحث ، وبهذه الخلاصة نعود الى القرآن ونستمع خاشعين الى الآيات التالية الواردة في هذا المجال :

١- ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخِياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾

(الشورى / ٥١)

٢- ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ « الطاهر » ﴾

(الشعراء / ١٩٤)

٣- ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىِٔ ﴾

(هود / ٦٩)

٤- ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

(الصافات / ١٠٢)

هـ - ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ
الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾
(القصص / ٣٠)

تفسير وفذلكة :

طرق الارتباط بعالم الغيب :

تم في هذه الآيات بيان مختلف الطرق التي اتصل الانبياء الالهيون عن
طريقها بعالم الغيب وما وراء الطبيعة بصورة اجمالية ، والتي تبلغ أربعة أو خمسة
طرق :

في الآية الاولى اشير الى ثلاثة طرق ، يقول المرحوم الطبرسي في تفسير
هذه الآية :

« ليس لاحد من البشر ان يكلمه الله الا ان يوحى اليه وحيًا كداود الذي
اوحى في صدره الزبور ، او يكلمه من وراء حجاب مثل موسى او يرسل رسولا
كجبرائيل الى محمد ﷺ ليلغه امره » .

فهذا الارتباط انما يكون احيانا عن طريق الالتقاء في القلب ، واخرى عن
طريق الامواج الصوتية التي يسمعها النبي من الخارج ، وثالثة عن طريق نزول
الملك الموكل بالوحي .

اصل « الوحي » الاشارة السريعة ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز او
بالصوت المجرد عن التركيب اللغوي ، وتارة بالاشارة او الكتابة .

هذا ما ذكره « الراغب » في « المفردات » ، لكن « ابن فارس » في

« المقاييس » يرى معناه الاصلي القاء علم ما بشكل خفي او علني على شخص اخر .

ذكر « ابن منظور » اهم معاني هذه اللفظة واعتبرها الرسالة والالهام والكلام من غير معاينة ، واللقاء في الروح ، كما ذكر معظم ارباب اللغة هذه المعاني بزيادة او نقيصة ، ولكن الخليل بن احمد ذكر معناه في كتاب (العيس) بانه الكتابة والتدوين !

اما في اصطلاح اهل الشرع فيطلق على ابلاغ الرسائل الالهية من قبل الله الى الانبياء ﷺ ، وان كانت دائرة استعماله في القرآن اوسع من هذا المعنى كثيراً ، وشاملة لكل انواع اللقاء للعلم المرموز ، ولذا استعمل في مورد الغرائز او العلوم التي استودعت عند بعض الحيوانات كالنحل مثل : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ (النحل / ٦٨) .

ويقول فيما يتعلق بما القاه الله على قلب ام موسى بالنسبة لولدها : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ ﴾ (القصص / ٧) اذ قد تم التعبير عن الالهام الالهي لها بالوحي مع عدم كونها نبياً قطعاً ، كما ان يوسف لم يكن في طفولته نبياً ومع ذلك يقول القرآن في حقه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ ﴾ (اخوتك) بِأَمْرِهِمْ هَذَا (التخطيط لقتلك) .

كذلك استعملت هذه المفردة فيما يتعلق بوساوس الشياطين المرموزة الى اتباعهم (الانعام / ١١٢) ^(١) والوامر الالهية المرموزة الى الجمادات كالارض (الزلزال / ٥) ^(٢) .

(١) ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَخَرَفَ الْقَوْلُ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ .

(٢) ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ .

جملة « من وراء حجاب » تعني ان الله كان يخاطب نبيه بامواج صوتية خاصة خافية على الآخرين او أن نبيه كان يسمع الخطاب دون مشاهدة مصدره ، بالضبط كالكلام الذي يطرق السمع من وراء الستار .

ودار الحديث في ثاني آية عن نزول ملك الوحي واتيانه بالقرآن للنبي ﷺ ، يقول تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ (القرآن) لَنَزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ - نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ - عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ .

الملفت للنظر هو ان ملك الوحي قد تم وصفه بوصفين « الروح » اي عين الحياة و « الامين » اشارة الى الامانة التي هي اهم شرط للرسالة والتبليغ .

يستفاد جيداً من مختلف الآيات والروايات ان ملك الوحي المأمور بابلاغ الرسالة الى نبي الاسلام كان اسمه جبرائيل ، في حين انه يظهر من ثالث آية من الآيات مورد البحث ، ان الملائكة بـ « صيغة الجمع » كانوا احياناً يؤمرون بابلاغ الرحي الالهي الى الانبياء ، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالبُشْرَى قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ ﴾ .

البشارة التي كان يحملها هذا الفريق من الملائكة هي البشارة بولادة اسماعيل واسحاق ، اذ أن ابراهيم عليه السلام كان قد قضى كثيراً من عمره محروماً من الولد مع تمنيه الذرية لحمل لوائه .

كما كانت هنالك وظيفة اخرى للملائكة ذكرت في الآيات التي بعدها ،

الى جانب وظيفتهم الاولى في إبلاغ ابراهيم بالبشارة الالهية الا وهي تدمير مدينة قوم لوط وقلبها رأساً على عقب .

هنالك نوع اخر من انواع الوحي ذكر في رابع آية وهو الرسالة التي كانت تصل الى النبي عن طريق الرؤيا ، وهي « رؤيا صادقة » لا تتفاوت مع حالة اليقظة ، يقول تعالى : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ .

ونقرأ في الآيات التي بعدها ان ابراهيم عليه السلام استعد لتنفيذ هذا الامر ، ولا يخفى ان هذه الرؤيا لو كانت مثل الرؤيا العادية لما اقدم ابراهيم عليه السلام على ذبح ابنه ابدأ وهذا يكشف عن كونها وحياً الهياً قطعياً .

كما يصدق نفس هذا المعنى في حق نبي الاسلام ﷺ فيما يتعلق بالبشارة التي بُشِّرَ بها في الحلم من دخول المسلمين الى المسجد الحرام ، وادائهم لمناسك الحج بكل امان :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ (الفتح / ٢٧) .

التعبير بـ ﴿ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا ﴾ يدل بوضوح على كون هذا الحلم حلماً الهياً اي نوعاً من انواع الوحي .

في خامس وآخر آية من الآيات مورد البحث تمت الاشارة الى احدى طرق ارتباط الانبياء بمبدأ عالم الوجود ، والتي اشير اليها كناية في اول آية ايضاً

(بالتعبير من وراء حجاب) يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا (حينما اتى موسى النار التي رآها بجانب الطور) تُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أجل فلقد سمع موسى ﷺ كلام الله مباشرة ، وطبقاً لبعض الروايات ^(١) يقول موسى : « لقد سمعت كلام ربي بجميع جوارحي ، ولم أسمعه من جهة واحدة من جهاتي » .

هذا الكلام سمعه موسى ﷺ من كل الجهات وبكافة جوارحه (لا الاذنين فقط) ، ومثل هذا الارتباط على حد قول الطبرسي في مجمع البيان يعدّ من افضل منازل الانبياء وارفع انواع ارتباطهم بمبدأ عالم الوجود .

لا شك ان الله لم يكن جسماً وليس له سائر العوارض الجسمانية واللسان والامواج الصوتية ، لكنه يتمكن من ايصال مشيئته الى سمع خواص عباده بالأمواج الصوتية التي يوجدها ، ولغرض العلم بكونه من كلام الله ينبغي ان يكون محفوظاً بالقرائن لنفي اي احتمال آخر عنه ، وهذه القرائن كانت موجودة في قصة موسى ﷺ وسائر الانبياء ﷺ .

هذه القرائن يمكنها ان تكون رؤية النار من الشجرة الخضراء او سماع الصوت من كافة الجهات ، مع الاحساس بكونه صادراً من الشجرة او سماعه بكل اعضاء بدنه ، او على حد قول البعض اتحاد صوت كل الكون بهذا الصوت ، او مضموناً خاصاً غير ممكن من غير الله ، او قرائن اخرى . يستفاد من سور (طه / ١١) ، و (النمل / ٨) ان هناك كلاماً اخر ايضاً قيل لموسى ﷺ في هذه اللحظة اذ نقرأ في سورة طه : ﴿ تُودِي يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ .

ونقرأ في سورة (النمل / ٨) : ﴿ تُوَدِّيْ اَنْ بُوْرِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ! على اية حال فمن مجموع الآيات اعلاه انعكست اشكال مختلفة من ارتباط الانبياء بمبدأ عالم الوجود .

إنَّ عجز الادلة العقلية عن حل جزئيات هذه المسألة هو مما لا يخفى ، لانحصار وظيفتها في بيان لزوم ارسال الرسل ، وانزال الكتب المستلزمة لارتباط الانبياء بعالم الغيب ، ومن هنا فينبغي الرجوع الى الادلة النقلية للوقوف على جزئياتها .

توضيحات :

١ - اقسام الوحي وكيفيته في الروايات الاسلامية :

مع خروج مسألة الوحي عن دائرة حس الانسان الاعتيادي ، وامتلاكنا لعلم اجمالي عنه دون العلم التفصيلي كما قلنا ، فهناك توضيحات اكثر في الروايات الاسلامية حول هذا الموضوع نشير فيما يلي الى بعضها :

١ - نقرأ في حديث عن الامام علي عليه السلام انه ذكر تفاسير واقسام متعددة

للوحي :

الاول : « وحي النبوة والرسالة » الوارد في الآية الشريفة : ﴿ اِنَّا

اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ كَمَا اَوْحَيْنَا اِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ... ﴾

(النساء / ١٦٣)

الثاني : « الوحي الالهامي » الوارد في الآية : ﴿ وَاَوْحَى رَبُّكَ اِلَى

النَّخْلَ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا
يَغْرِشُونَ ﴿

(النحل / ٦٨)

الثالث : « الوحي بالاشارة » كما قال الله عن زكريا : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى
قَوْمِهِ مِنَ الْمَخْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

(مريم / ١١)

الرابع : « الوحي التقديري » كما يقول تعالى : ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ
سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾

(فصلت / ١٢)

الخامس : « الوحي الامري » كما نقرأ عن الحواريين : ﴿ وَإِذْ
أَوْحَيْنَا إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾

(المائدة / ١١١)

السادس : « الوحي الكاذب » بالشكل الذي يخبر الله تعالى به عن
الشياطين : ﴿ يُوحِي بَغْضَهُمْ إِلَى بَغْضِ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

(الانعام / ١١٢)

السابع : « الوحي الاخباري » كما يقول تعالى عن فريق من الانبياء :
﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ
الْخَيْرَاتِ ﴾

(الانبياء / ٧٣) (١)

٢- يُستفاد من بعض الروايات ان حالة النبي ﷺ كانت طبيعية عند نزول جبرائيل بالوحي عليه ، في حين كان ﷺ يحس بضيق شديد عند عدم الوسطة (جبرائيل) ، بل ربما يغشى عليه كما ورد في توحيد الصدوق عن الامام الصادق عليه السلام حينما سأله : « الغشية التي كانت تصيب رسول الله ﷺ اذا نزل عليه الوحي ؟ قال ذلك اذا لم يكن بينه وبين الله احداً ، ذاك اذا تجلّى الله له » (١) .

٣- الاخر هو ان جبرائيل حينما كان ينزل عليه ﷺ كان ينزل بادب ووقار، كما جاء في حديث عن الامام الصادق عليه السلام : (كان جبرائيل اذا اتى النبي قعد بين يديه قعدة العبيد ، وكان لا يدخل حتى يستأذنه) (٢) .

٤ - يستفاد من روايات اخرى ان النبي ﷺ قد تعرف على جبرائيل بتوفيق الهي كما جاء في حديث عن الامام الصادق عليه السلام انه قال : « ما عَلِمَ رسول الله ﷺ ان جبرائيل من قبل الله الا بالتوفيق » (٣) .

٥ - وهنالك تفسير ملفت للنظر لمسألة غشية النبي ﷺ عند نزول الوحي ، في حديث عن ابن عباس اذ يقول : « كان النبي اذا نزل عليه الوحي وجد منه المأ شديداً ويتصدع رأسه ويجد ثقلاً ، وذلك قوله انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ،

(١) « توحيد الصدوق » طبقاً لما نقله بحار الانوار الجزء ١٨ الصفحة ٢٥٦ الحديث ٥ .

(٢) علل الشرايع طبقاً لما نقله بحار الانوار الجزء ١٨ الصفحة ٢٥٦ .

(٣) بحار الانوار الجزء ١٨ الصفحة ٢٥٦ .

وسمعت أنه نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ ستين ألف مرة .

٢ - الوحي في كلمات الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين :

فات الكثير من الفلاسفة القدماء والمعاصرين هذه الملاحظة وهي كون مسألة الوحي ارتباطاً خاصاً للأنبياء بعالم ما وراء الطبيعة ، وانحصار علمنا به بالاجمال دون التفصيل ، اذ اننا لا نرى سوى شبح من بعيد ، ونتيقن بوجوده دون العلم بحقيقة ماهيته .

ومن هنا فقد سعوا للوصول الى حقيقة الوحي ، لكنهم اصطدموا بطريق مسدود بطبيعة الحال .

وهنا نتعرض لنقد وتحليل نظريتين او فرضيتين على الاصح للفلاسفة المتقدمين والمتأخرين حول هذا الموضوع لتتضح الحقيقة اعلاه :

النظرية الاولى : الفلاسفة القدماء كانوا يعتقدون ان حقيقة الوحي هي

ارتباط الانسان بـ « العقل الفعال » !

بيان ذلك : انهم يعتقدون بالافلاك التسعة البطليموسية وبوجود النفس المجردة لكل واحدة من تلك الافلاك (اي ما يماثل الروح بالنسبة لأبداننا) ! كما اضافوا بان « النفوس » الفلكية تستلهم من موجودات مجردة تدعى « العقول » ، وبهذا فقد قالوا بـ « بتسعة عقول » لتلك الافلاك التسعة ، واعتقدوا وراء ذلك بـ « العقل العاشر » او « العقل الفعال » باعتباره المصدر لكل المعلومات .

كما كانوا يعتقدون من جهة اخرى بضرورة افاضة العقل الفعال على النفوس الانسانية وارواحها لتدرك الحقائق وتضفي الفاعلية على قابلياتها ، ويعتقدون بكون النسبة بين قوة الروح الانسانية وشدة اتصالها بالعقل الفعال

الذي هو مصدر العلوم طردية .

واستنتجوا من هذه المقدمات بان اتصال ارواح الانبياء بالعقل الفعال
ولشدة قوتها يفوق العادة ، ولهذا السبب تمكنت من استلام معلوماتها الكلية
(صورها) من العقل الفعال في اغلب الاحيان ، ونظراً لحدة « قواهم التخيلية »
التي يدركون بواسطتها « الصور الجزئية » ولتبعيتها للقوة العقلية في نفس الوقت ،
فقد تمكنت من اعطاء صور محسوسة مناسبة لتلك « الصور الكلية » التي
استلموها من العقل الفعال ، لتتجسد في افق اذهانهم ملبوسة بلباس الحس .
فمثلاً لو كانت تلك الحقائق الكلية من قبيل المعاني والمعارف والاحكام
فبامكانهم سماعها على شكل الفاظ موزونة جداً ، وفي غاية البلاغة والفصاحة
على لسان شخص في غاية الكمال ، ونظراً لكمال هيمنة قواهم التخيلية على
الحس المشترك (الحس الذي يدركون من خلاله صور المحسوسات) فبامكانها
إضفاء صبغة « الحسية » على هذه الصور « الذهنية » ، وتمكين النبي من مشاهدة
ذلك الشخص على هيئة مَلَكٍ يبصره وسماع الفاظه باذنيه ! (تأمل جيداً) .



انتقادات

هذه الفرضية قابلة للنقد من عدة جهات :

اولاً - ابتناؤها على « الافلاك البطليموسية التسعة » و « العقول العشرة »
التي ابطال احدها بشكل قاطع ، ولم يوجد اي دليل لاثبات الاخر ، وبديهي ان
فرضية كهذه لا يمكن قبولها او تقييمها .

ثانياً - هذه الفرضية ليست سوى محاولة للعثور على الطريق الى مسألة خارجة عن نطاق افكارنا ، والاحاطة بها تفصيلاً ، (بالضبط كـرغبة البصير للوقوف على حقيقة النور والالوان عن طريق الفرضيات التي ينسجها مستعيناً بحواسه) اذ من الواضح ان فرضية كهذه لا يمكنها ان تفلح ابداً .

ثالثاً - لا تتناسب هذه الفرضية باي وجه مع الآيات القرآنية التي تدور حول الوحي ، لان الاخيرة تقول بصراحة : الوحي نحو ارتباط بالله ، لا بالعقل الفعال وعن طريق الالهام على القلب او بواسطة ملك الوحي (الملك الذي هو وجود واقعي يظهر امامه لانه متولد من القوة التخيلية او تأثير الحس المشترك) ، او انه يسمع تلك الامواج الصوتية التي اوجدها الله في جسم ما بأذنيه لا ان للاصوات صبغة خيالية ومتولدة من تأثير القوة التخيلية او الحس المشترك . وبناءً على هذا فالفرضية اعلاه مردودة عقلاً ونقلاً .



النظرية الثانية - فسر بعض الفلاسفة المعاصرين الوحي كاحد مظاهر الشعور الباطني .

يقول فريد وجدي في « دائرة معارف القرن العشرين » في مادة « الوحي » :
كان الغربيون الى القرن السادس عشر كجميع الامم المتدينة يقولون بالوحي ، لان كتبهم مشحونه باخبار الانبياء فلما جاء العلم الجديد بشكوكه وماديته ، ذهبت الفلسفة الغربية الى ان مسألة الوحي من بقايا الخرافات القديمة ، وغالت حتى انكرت الخالق والروح معاً .

لكن بحلول القرن التاسع عشر الميلادي تغيرت وجهة النظر في المسائل الروحانية وأحييت مسألة الوحي ، اذ اعاد فريق من العلماء البحث فيها على

قاعدة العلم التجريبي ، فتوصلوا الى نتائج وان كانت غير ما قرره علماء الدين الاسلاميون ، الا انها خطوة كبيرة في سبيل اثبات امر عظيم كان قد نُسب الى عالم الامور الخرافية « ، ثم يضيف قائلاً : ان المؤيدين لمسألة الروح والمظاهر الروحية دونوا الى الآن (زمن تأليف دائرة المعارف) خمسين مجلداً ضخماً حول المطالب اعلاه ، وتم حل الكثير من المسائل الروحانية بها من جملتها مسألة الوحي ^(١) !

هذا نموذج من كلمات العلماء حول هذه المسألة اذ الكلام حولها كثير ، ولكن بالامكان بيان خلاصة كلامهم كما يلي :

انهم اكتشفوا ان للانسان شعوراً وادراكاً وراء شعوره وادراكه الظاهري ، اطلقوا عليه اسم الشعور الباطن او الوجدان الخفي ، واعتبروا القسم الاعظم من شعور الانسان كامناً فيه ، حتى انهم شبهوه احياناً بالثلوج الطافية في مياه المحيطات ، والتي لا يخرج منها فوق الماء الا عشرها في حين تبقى تسعة اعشارها تحته .

لقد اعتبروا الوحي نوع « تجلٍ للشعور الباطني » ، ونظراً لكون الانبياء رجالاً يفوقون العادة ، فمن الطبيعي ان يتمتعوا بشعور باطني اقوى ، وتجلٍ يفوق العادة في اهميته ، وهو نفس ما كان يطلق عليه القدماء اسم الوحي !

كما ذهب البعض احياناً اكثر من هذا وقالوا بان افكار وعلوم ورغبات النبي ، تخلق له الهامات وتطل من خلال شعوره الباطني ووجدانه الخفي على تخيله الرفيع ! بل وتترك اثراً حتى في نظراته فيرى الملك امامه ويسمع كلامه ^(٢) !

(١) دائرة معارف القرن العشرين ، مادة الوحي .

(٢) الوحي المحمدي ، الطبعة الثانية الصفحة ٢٤ .

نقد وتحليل :

هذه الفرضية التي قال بها فريق من الفلاسفة المتقدمين تماثل الاولى ، من حيث افتقارها للسند الكافي والدليل والشاهد ، ومصدرها هونفس ما اشرنا اليه ، اي انهم يريدون قياس مسألة خارجة عن نطاق افكارنا بعمقها ومحتواها بالمقاييس المتداولة ، ومن المسلم ان هذا الامر محال وغاية لا يبلغها مُفكر ابداً .

حينما نذعن بمحدودية المعلومات دون المجهولات ، يجب ان نقبل هذه الحقيقة ايضاً وهي ان للانبياء الواقعيين نوع ارتباط بعالم ما وراء الطبيعة ، لا يمكن شرحه وتفصيله بحواسنا الفعلية وادراكاتنا الاعتيادية .
على اية حال فلهذه الفرضية جذور مشتركة مع نظرية الفلاسفة القدماء من جملتها :

١ - الوحي نوع ارتباط خاص بعالم ما وراء الطبيعة ، غير مغاير للروابط الفكرية والعقلية لسائر الافراد !

٢ - منبع الوحي هو نبوغ الانبياء وتفوقهم الروحي ذاك .

٣ - الوحي لا يتحقق عن طريق وجود مجهول روحاني مستقل عن وجودنا يطلق عليه رسول الوحي او الملك الالهي ، بل منشأه هو الشعور الباطني والاتصال بالعقل الفعال الذي يترك اثره في عالم الخيال ، ثم في احساس النبي فيرى مظاهر الوحي ويسمعها !

لا شك ان مثل هذه التحليلات لا تتلاءم ابداً مع ما جاء به الانبياء وما يستفاد من آيات القرآن من جهة ، ومع الدليل العقلي الذي ذكرناه سابقاً من جهة اخرى .

فضلاً عن افتقارها كلها للسند والدليل ، واساساً ما هو السروراء اعجاب

بعض العلماء بعلومهم ومعارفهم الى هذا الحد الذي دفعهم لتفسير وتوجيه كل اسرار الكون بهذه الثلة من العلوم والاكتشافات الحاصلة ، هذا الامر يماثل قيام النحلة بتفسير وتوجيه انواع الكامبيوترات والسفن الفضائية والاقمار الصناعية بمعلوماتها المحدودة ، فهل نمنحها مثل هذا الحق ياترى ؟

مؤلف تفسير المنار وبعد نقله لهذه النظرية من فريق من الفلاسفة الماديين ، وبعبارات شبيهة للتي ذكرناها اعلاه ، يضيف قائلاً : لقد سرى هذا الاشتباه الى الكثير من المسلمين الغارقين في الشك والترديد ، الذين يقلدون العلماء الماديين (بابصار وآذان مقفلة) او يقتنعون بتفاسيرهم ، ثم يتعرض بعد ذلك لنقد مثل هذه الأفكار بالشرح والتفصيل ^(١) .

وبهذا نكون قد وصلنا لخاتمة البحث المختصر الذي اعد حول مسألة الوحي ، اذ وكما قلنا سابقاً فقد شرحنا هذا الموضوع شرحاً وافياً في « نفحات القرآن » « المجلد الاول » في مبحث « مصادر المعرفة » (المصدر الخامس) .

الاصول العامة
للدعوة الانبياء عليهم السلام

الاصول العامة لدعوة الانبياء

تمهيد :

احدى النكات المهمة في مباحث النبوة العامة هي الالتفات الى الاصول العامة لدعوة الانبياء المتمتعة بانسجام خاص ، والتي تعكس النشاط الذي تقوم به هذه السلسلة الجليلة لانبياء الله بين البشرية ، كقافلة عظيمة متحدة .

وبعبارة اخرى : يمكن تشبيههم بالهيئة العلمية للجامعة التي تقوم بتعليم الطلبة وفق برمجة دقيقة ، اعتباراً من المرحلة الاولى والى الاخيرة بشكل منسجم صفاف بصف .

مطالعة هذه الاصول العامة تكشف هذه الحقيقة المتكررة في القرآن ، من انه « لا تفاوت بين انبياء الله ، كما لا ينبغي التفريق بينهم » .

من المسلم لا منافاة لهذا الانسجام مع نسخ الاديان بعضها للبعض الاخر ابداف ، بالضبط كاستبدال المناهج الدراسية للجامعة سنة بسنة ، اذ ان كتب السنة الاولى لا تصلح للثانية ، وهذه لا تصلح للثالثة و ... مع ان اصولها العامة منسجمة مع بعضها في نفس الوقت ، فكذلك لا منافاة لهذه المسألة مع تفاوت درجات الانبياء لاجل تفاوت مسؤولياتهم .

هذا الانسجام في الاصول العامة يؤكد من جهة على الخطوط الاساسية
للاديان الالهية ويوقفنا عليها ، كما ويوضح حقانية دعوتهم من جهة اخرى ، اذ انّ
الساسة الدنيويون ينفي خلفهم سلفهم طبقاً للاية : ﴿ كَلَّمَا دَخَلْتَ أُمَّةً لَعَنْتَ
أَخْتَهَا ﴾ (الاعراف / ٣٨) باعتبار ان احدى مميزات الطواغيت هي حالة
التضاد القائمة بينهم على طول الخط .

كما ويمكن لهذه المسألة من جهة ثالثة ان تكون معياراً لمعرفة الانبياء
بحق ، من المدعين كذباً ، لان انسجامهم وتوافقهم مع الانبياء المعروفين
السابقين سيكون كقرينة لها دورها .

وبهذه الخلاصة نعود لنستمع خاشعين الى الآيات القرآنية التالية الواردة
في هذا المجال :

١ - ﴿ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (ولاتدفعنا
التعصبات العرقية والمصالح الشخصية لقبول فريق ورفض
الآخر) ﴿

(البقرة / ١٣٦)

٢ - ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ
وَ أَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ
وَ الْأَسْبَاطِ (انبياء بني اسرائيل) وَ عِيسَى وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ
وَ هَارُونَ وَ سُلَيْمَانَ وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾

(النساء / ١٦٣)

٣ - ﴿ وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

(الانبياء / ٢٥)

٤ - ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَ الْأَرْضِ
يَدْعُوَكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

(ابراهيم / ١٠)

٥ - ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ
عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَ يُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾

(الانعام / ١٣٠)

٦ - ﴿ وَ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ
اتَّقُوا اللَّهَ ﴾

(النساء / ١٣١)

٧ - ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَ أُنزِلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ
وَ الْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾

(الحديد / ٢٥)

٨ - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا (بنبي الاسلام) وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ النَّصَارَى
وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(البقره / ٦٢)

٩ - ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي
الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾

(الاحزاب / ٣٨)

١٠ - ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
وَ الْمُزْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا
قَلِيلًا - مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِلُوا تَقْتِيلًا - سُنَّةَ اللَّهِ فِي

الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿

(الأحزاب / ٦٠ - ٦٢)

١١ - ﴿ وَ جَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَاقَامَ الصَّلَاةَ وَ آيَتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾

(الأنبياء / ٧٣)

١٢ - ﴿ وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾

(الانبياء / ١٠٥)

١٣ - ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(البقرة / ٢١٣)

١٤ - ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾

(هود / ١١٦)

١٥ - ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾

(آل عمران / ١٩)

تفسير وفذلكة :

وحدة المسير لدى الانبياء جميعاً :

١ - الكلام في أول آية هو عن الامر الذي أصدره الله الى كافة المسلمين بالقول لمخالفهم باننا : آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى الانبياء السابقين ، كابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب وموسى وعيسى ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ وورد نفس هذا المضمون في آيتين اخريين من القرآن (البقره / ٢٨٥)^(١) و (النساء / ١٥٢)^(٢) ، وبهذا فهي تؤكد على ان المؤمنين الحقيقيين هم الذين لا يفرقون بين الانبياء الالهيين ، ويؤمنون بكل تعاليمهم ، وهذا خير دليل على اتحاد الاصول العامة لتعاليمهم .

ولم يكن كذلك وقد بعثوا كلهم من قبل الله ، وتساوت ادوارهم ، كما ان اصول المعارف الالهية وسعادة البشرية واحدة في كل مكان ، اذ ليست بذلك الشيء الذي يتغير بتغير جزئياته على مر الأيام .

بالضبط كحاجة الانسان الى الطعام والملبس والمسكن والصحة والنظافة والتربية والتعليم ، اذ ان اصول هذه الامور ثابتة لا تقبل التغير ، في حين ان جزئياتها هي في تحول وتغير ، أي في حالة تكامل بعبارة اخرى .

لا بد من القول بان هذه الآية وطبقاً لشأن نزولها كانت رداً على اليهود والنصارى ، اذ كان ينفي احدهما الآخر ويعتبر نبيه هو الافضل وكتابه هو الاقدس

(١) ﴿ اَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا اُنْزِلَ اِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلُّ اَمَّنَ بِاللّٰهِ وَمَلٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ اَحَدٍ مِنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرٰتُكَ رَبَّنَا وَ اِلَيْكَ الْمَصِيْرُ ﴾ .
(٢) ﴿ وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوْا بَيْنَ اَحَدٍ مِّنْهُمْ اُولٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيْهِمْ اُجُوْرَهُمْ وَكَانَ اللّٰهُ غَفُوْرًا رَّحِيْمًا ﴾ .

(مع اهمالهم للآخرين) ، فجاء دور المسلمين للتعبير بصراحة باستحالة التفريق بين انبياء الله .

على اية حال فهذا يعد توضيحاً مجملاً لوحدة الاصول العامة لدعوة الانبياء ، والآن نعود الى بقية الآيات التي تؤكد على كل واحد من هذه الاصول .

٢ - مسألة الوحي هي واحدة من هذه الاصول والتي عرضت في ثاني آية من الآيات مورد البحث ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ (انبياء بني اسرائيل) وَ عِيسَى وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ هَارُونَ وَ سُلَيْمَانَ وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِقَالِ الْإِنسَانِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ .

وعلى هذا فالكل يشير الى الوحي والارتباط بعالم الغيب ، والكل يخطو في مسيرة ابلاغ الدعوة الالهية واتمام الحجة على الناس ، لم يقل احد منهم شيئاً من عنده ، والهدف النهائي للكل واحد .

٣ - اصل التوحيد ونفي الشرك هو أحد أهم اصول دعوة الانبياء ، وبشهادة آيات مختلفة من القرآن فالتوحيد هو كلامهم الأول حين بعثتهم ، التوحيد في كافة الابعاد خصوصاً في العبادة .

ثالث آية من البحث تدور حول هذا الموضوع باعتباره اصلاً كاملاً في دعوة الانبياء ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ .

وورد هذا المعنى بتأكيد اكبر في سورة (النحل / ٣٦) : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي

كُلُّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿١﴾ .

وعلى هذا فمقاومة الطواغيت و تخصيص العبادة لله كانتا تتصدران قائمة تعاليم كل الانبياء ، باعتبار كون الانسان اسيراً ما دام في عبادة الطاغوت ، ومتحرراً حيث يعبد الله وحده ، الله الذي هو منبع كل القيم السامية وصاحب الاسماء والصفات الحسنی .

الملفت للنظر هو ان ﴿ الطَّاغُوتَ ﴾ صيغة مبالغة للطغيان الذي يعني التعدي وتجاوز الحد ، ومن هنا تطلق لفظة الطاغوت على الشيطان والوثن والحاكم الجبار والمتكبر والمستكبر ، وكل طريق ينتهي الى غير الحق ، هذه المفردة وعلى حد قول الراغب في المفردات تستعمل في المفرد والجمع كليهما (كما وتجمع في نفس الوقت على صيغة « طواغيت » . وفسر لسان العرب لفظة الـ « طاغوت » بمعنى الشيطان وائمة الضلال والانحراف ^(١) .

على اية حال فاحدى علامات الانبياء الحقيقيين هي الدعوة للتوحيد ، واجتناب كل الطواغيت ، في حين ان المدعين كذباً يدعون الناس للشرك وعبادة الاوثان ، بل وحتى الى عبادتهم احياناً كفرعون ، هذا النحو من النظرة السلبية للطاغوت - كما قيل في محله - له أثره في كافة شؤون الانسان ، خاصة في فك يديه ورجليه من قيود الرق والعبودية ودعوته للاتحاد والعزة والتحرر .

٤ - التأكيد على نظام الكون للتعرف من خلاله على الله هو احد الاصول

(١) العجيب هو ان المرحوم العلامة الطباطبائي في الميزان (الجزء ١٢ الصفحة ٢٤٢) قد اعتبر هذه اللفظة مصدراً مع انها تستعمل بالمعنى الوصفي في كل المواضع ، خصوصاً الموارد الثمانية الواردة في القرآن اذ انها افادت المعنى الوصفي على الاعم الاغلب .

العامة لدعوة هؤلاء الرجال الالهيين ، كما نقرأ في الآية الرابعة من آيات بحثنا : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِىِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَ الْأَرْضِ (مع كل هذه العظمة والنظام في الكون والاسرار الكامنة) يَدْعُوَكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (لتطووا طريق معرفة الله وتبلغوا الكمال اللازم) .

اي هل يبقى هناك مجال للشك في وجود الله مع الاخذ بنظر الاعتبار كل اسرار خلق السماوات والارض ، وانواع البدائع التي تحتويها والاسرار التي يتم كشفها يوماً بعد اخر نتيجة تطور العلوم والمعارف ؟

صحيح ان معرفة الانسان باسرار خلق السماوات والارض كانت في قديم الزمان بسيطة ، لكن نفس ذلك النظام البسيط الحاصل للانسان بدقة متواضعة يكفي لاثبات وجود الخالق ، اما اليوم حيث تم فلق الخلية وانشطار الذرة والجزيء ، والوقوف على الكثير من اسرارها فالتأمل في احدى الذرات كاف ليشع نور معرفة الله على القلوب ، ويتحقق البيت الشعري المعروف باللغة الفارسية والذي مضمونه :

قلب كل ذرة حين فتحه تجد نوره يشع فيه

وقريب من هذا المعنى نجده في البيت الشعري المعروف والمنسوب للامام علي عليه السلام :

اتزعم انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

٥- التأكيد على مسألة المعاد اصل اخر من اصول دعوتهم كما يقول تعالى في خامس آية : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَ يُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ .

هذا الكلام سواء كان صادراً من الله ام الملائكة لا يفرق ، اذ المهم انه

يعكس قيام كل الانبياء والمرسلين بتحذير الناس من هول يوم القيامة واشتراكهم في هذا الأصل الاساسي .

وهل ياترى أرسل اليهم رسل من « الجن » (كما يبدو من كلمة « منكم ») ام ان كل الرسل الالهيين كانوا من الانس ؟ هناك نقاش بين المفسرين وان ذهب معظمهم الى الاحتمال الثاني باعتبار ان ما جاء في الآية اعلاه انما هو من باب التغليب اصطلاحاً ، ومع ذلك لا مانع من قيام الانبياء والرسل الالهيين بتكليف رسل ووكلاء لهم من جنسهم لدعوتهم كما يستفاد ذلك من سورة (الاحقاف / ٢٩) حيث يقول تعالى :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۖ ﴾ .

٦ - الدعوة للتقوى : هي ايضاً من الاصول العامة لدعوتهم ، وذلك لاستحالة ضمان الهدف النهائي من خلق البشر ونظام حياته الفردية والاجتماعية بدونها ، نقرأ في سادس آية من البحث : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ۖ ﴾ .

وهذا التعبير الى حدّ يشمل كل الكتب السماوية السابقة ، وبناءً على هذا فالايضاء بالتقوى اي حفظ النفس و تجنب الذنوب وعدم الخروج عن طاعة الله ، كان ولا يزال من الاصول المشتركة للاديان السماوية .

كما نعلم ان للتقوى فروعاً كثيرة ، التقوى في العمل والحديث والتفكر والنية والعزم ، كما ان للتقوى العملية فروعاً متعددة ايضاً ، التقوى الاخلاقية والاجتماعية والسياسية ، الخلاصة هي ان للتقوى مفهوماً واسعاً يقابل كل

اهمال وتسبب في كافة الامور ولذا جاء في تفسير القرطبي عن بعض الفضلاء العرفاء ان هذه الآية هي بمثابة القطب من الرحى وان كل الآيات القرآنية تدور حولها^(١).



٧ - الدعوة الى العدالة الاجتماعية هي أصل آخر من هذه الاصول الاساسية ، وقد وردت بصراحة في سابع آية ، يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ . وَلَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ حِينَ يَسْتَحِيلُ عَلَى الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ بَلُوغُ أَهْدَافِهِ النَّهَائِيَّةِ أَيِ التَّكَامُلِ الْمَعْنَوِيِّ مَعَ غِيَابِ أَقَامَةِ الْقِسْطِ وَالْعَدَالَةِ الاجتماعية ؟

الملفت للنظر هو قوله : ان الهدف من ارسال الرسل والبيانات والكتاب والميزان هو قيام الناس بالقسط والعدل مباشرة مع تنفيذه ، لا ان يفرض عليهم ذلك فرضاً ، اجل فضمن هذا الهدف مرهون ببلوغ المجتمع البشري مرحلة اقامة القسط والعدل وتنفيذه بذاته .

وحول المراد من « البيانات والكتاب والميزان » هناك ابحاث كثيرة للمفسرين ، اقواها كما يبدو ان « للبيانات » معنى واسعاً شاملاً لكل المعجزات وانواع الادلة العقلية التي تقام لاثبات النبوة ، و « الكتاب » اشارة الى مجموع تعاليمهم ، واما « الميزان » فيعني معايير قياس الحق من الباطل ، او القوانين والمقررات التي يصل بها الحق الى اهله .

وهذه كلها وسائل لبلوغ العدالة الاجتماعية واقامة القسط والتي تكون

بدورها مقدمة لتوفير الارضية المناسبة لتربية الانسان وتعليمه وتكامله (١).

٨ - اهمية « الايمان » و « العمل الصالح » كقيم أساسية لانقاذ البشرية هي

ايضاً من الاصول المشتركة لتعاليم الانبياء ، نقرأ في ثامن آية من البحث :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَخْزَوْنَ ﴾ .

يقول أحد التفاسير المعروفة : ان اهل النجاة هم المسلمون الذين آمنوا
بنبي الاسلام ﷺ ، وثبتوا على ايمانهم وعملوا صالحاً وكذا الذين عاشوا قبل
ظهور نبي الاسلام ﷺ وآمنوا بالاديان السماوية وعملوا صالحاً .

طبقاً لهذا التفسير فـ « الايمان » و « العمل الصالح » كانا كأصلين عامين في
برامج كل الاديان الالهية لغرض نجاة الانسان .

وهناك طبعاً تفاسير اخرى لهذه الآية بامكانك الاطلاع عليها بالرجوع الى
الجزء الاول من التفسير الامثل صفحه ٢٨٢ (ذيل هذه الآية) .

٩ - تحطيم « السنن الخاطئة » التي تتسبب في انحراف المجتمعات

البشرية وتأخرها يعد ايضاً من الاصول العامة لدعوة الانبياء .

في تاسع آية من البحث وضمن الاشارة الى مسألة زواج النبي ﷺ من

مطلقة ابنه بالتبني والتي نزلت لتحطيم احدى العادات الجاهلية (حيث كانوا

يعتبرون الابن بالتبني كالابن الحقيقي) يقول تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ

خَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا

(١) لمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع راجع التفسير الامثل الجزء ٢٣ (ذيل الآية مورد البحث) .

مَقْدُوراً ﴿ .

حول ماهية هذه السنة التي كانت جارية في الاقوام السابقة والتي عطف الله عليها مسؤولية النبي ﷺ ، قال فريق من المفسرين ان المراد بها هو السنة الالهية في رفع الموانع من الاستفادة من اللذائذ المحللة ، او تعدد الزوجات التي كانت جارية في الامم السابقة ايضاً ^(١) .

في حين ان هناك ادلة واضحة في الآيات التي تحف بهذه الآية تشهد بان هذه السنة كانت ترتبط بابلاغ رسالة الهية لا تيسير اللذائذ المحللة ، كما نقرأ في الآية التي بعدها : ﴿ الَّذِينَ (الانبياء السابقون) يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ .

لكن انسبها كما يبدو هو ان هذه الرسالة الالهية ليست سوى « تحطيم السنن الخاطئة » فحسب .

كم نقرأ في الآيات التي قبلها : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ كما يصرح بعد هذه الآية : ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ (الاحزاب / ٣٧) .

هذه القرائن بمجموعها تشهد بوضوح على ان المراد من هذه السنة الخالدة للانبياء السابقين هو تحطيم السنن الخاطئة والخرافية تلك .

ولم لا ؟ ! واحد اهداف بعثة الانبياء هو تخليص الناس من مخالب مثل هذه السنن الباطلة ، لتحل محلها السنن الالهية .

(١) مجمع البيان الجزء ٧ الصفحة ٣٦١ ، تفسير الفخر الرازي الجزء ٢٥ الصفحة ١٣ ، تفسير القرطبي الجزء ٨ الصفحة ٥٢٧٧ ، روح المعاني الجزء ٢٢ الصفحة ٢٥ .

١٠ - مقاومة المنافقين بشدة وعدم الاستسلام لهم هي احدى الاصول الاخرى لتعاليم الأنبياء الثابتة ، كما جاء في نفس هذه الآية وبعد الاشارة الى اعمال المنافقين القبيحة المتعمدة في المجتمع الاسلامي ، والتهديد بان هؤلاء المنافقين الكذابين ، والذين في قلوبهم مرض والذين يشيعون الابطايل لولم ينتهوا عن غيهم ويرجعوا عن مواصلة اعمالهم العدوانية ، لجعلناك تثور عليهم وتطردهم من كل مكان وتمزقهم شرممق : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

صرح معظم المفسرين بان المراد من هذه السنة هي نفس مقاومة المنافقين والافراد المضرين الذين لا يتوانون عن اعمالهم الشنيعة في المجتمعات البشرية وبين الانبياء والمؤمنين ^(١) .

١١ - اصول العبادات والاعمال الحسنة : كانت ايضا من ضمن التعاليم المشتركة لهؤلاء القادة الحقيقيين كما يقول في الآية الحادية عشرة من البحث ، وضمن الاشارة الى فريق من الانبياء الكبار : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ﴾ .

اشارة الى انه وفضلاً عن مقام النبوة والرسالة اللذين يتطلبان استلام الوحي وابلاغه للناس ، كانت الامامة اي قيادة كل الجوانب الجسمانية والروحانية ، الظاهرية والباطنية للناس ضمن مسؤوليتهم ، وكان دورهم في هذه المرحلة هو « الهداية بامر الله » اي الايصال الى المطلوب وبلوغ المراد ، وضمن هذه المرحلة اوحى الله اليهم فعل الخيرات والعبادات .

(١) مجمع البيان و المراغي والفخر الرازي والقرطبي وروح البيان ، ذيل الآيات مورد البحث .

مع ان اقامة الصلاة وايتاء الزكاة تعدان من الخيرات والافعال الحسنة ، فقد تم التأكيد عليهما بالخصوص نظراً لاهميتهما .

حول المراد من « الوحي » هنا في جملة ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ ، فقد اعتبره اكثر المفسرين بمعنى « الوحي التشريعي » ، اي إنّ انواع الاعمال الحسنة وضعناها ضمن برامجهم الدينية ^(١) ، لكن البعض الاخر فسرهُ بمعنى « الوحي التكويني » اي اننا منحناهم التوفيق لاداء هذه الاعمال بلهفة وايدناهم بروح القدس ليؤدوها على اتم وجه .

١٢ - حكومة الصالحين : ويشكل عام فقد كانت حكومة « العدل الالهي » مندرجة ايضاً ضمن برامج الانبياء ، سواء وفقوا في اقامتها ام اعاقتهم ظروفهم واوضاعهم الخاصة عن ذلك .

في الآية الثانية عشرة من البحث اشارة لطيفة الى هذا المعنى ، يقول تعالى : ﴿ وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ (التوراة) اَنَّ الْاَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ .

المرحوم الطبرسي في مجمع البيان ذكر ثلاثة اقوال في تفسير « الزبور » و « الذكر » : ١ - « الزبور » يعني كل كتب الانبياء و « الذكر » يعني اللوح المحفوظ ، اي ان هذا الحكم جاء اولاً في اللوح المحفوظ ثم في كل كتب الانبياء . ٢ - « الزبور » يعني الكتب النازلة بعد التوراة و « الذكر » اشارة الى التوراة . ٣ - « الزبور » يعني زبور داود و « الذكر » يعني التوراة ^(٢) .

(١) طبقاً لهذا التفسير فلآية محذوف تقديره : واوحينا اليهم الامر بفعل الخيرات .

(٢) مجمع البيان الجزء ٧ الصفحة ٦٦ ، ووردت نفس هذه المعاني الثلاثة في تفسير القرطبي .

على اية حال فالآية تبين ان هذا كان حكماً عاماً وسنة الهية دائمة ، تقوم بتوجيه تعاليم الانبياء نحو تأسيس حكومة الصالحين والطاهرين في الكرة الارضية ، وقد وفق البعض منهم احياناً في تشكيل نموذج لها ، وطبقاً للروايات المتواترة فسيتجسد مصداقها الكامل عند ظهور المهدي (ارواحنا فداه) .

ومن البدهة ايضاً ان ضمان اهداف اديان الانبياء الالهيين مرهون بتشكيل مثل هذه الحكومة ، اذ اثبتت التجارب ان الاحكام الالهية لا يمكن تطبيقها بالكامل عن طريق الوصايا والنصائح والحكم فقط ، بل لا بد من استثمار كل طاقات الحكومة وفي كافة الابعاد ، مع وضع الانسان منذ لحظة ولادته والى وفاته تحت اشراف التعاليم السماوية .

التعبير بـ « عبادي الصالحون » تعبير جامع وبلغ جداً ، شامل لكل اللياقات من حيث « الايمان » و « العلم » و « التقوى » و « الادارة والتدبير » ، اجل فمثل هؤلاء الاشخاص يمكنهم ان يكونوا وارثي حكومة السماء في الارض .



١٣ - الدعوة الى الوحدة : الاختلاف اكبر عامل لفساد المجتمع وضياح الطاقات المادية والمعنوية لكل قوم وشعب ، ومن هنا فاحد الاهداف الرئيسية للانبياء وبرامجهم العامة هو محاربة الاختلافات ، كما نقرأ في الآية الثالثة عشرة من البحث حيث يقول تعالى :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ (ثم ظهر الاختلاف فيما بينهم) فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُخَكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿ (ولينهوا على تلك الخلافات) .

ومع هذا فقد اشعل فريق نار الفتنة وشق الكلمة ، بل اختلفوا حتى في

الحقائق النازلة في الكتب السماوية : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ .

لكن : ﴿ فَهَدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

وبناءً على هذا فقد ظهر هنالك نوعان من الاختلاف بين الامم ، الاختلاف الاول قبل ظهور الانبياء والناشئ من اختلاط العلوم البشرية بانواع الاخطاء والجهل والاشتباه في تشخيص الحقائق ، ففرق الانبياء بين الحق والباطل ووضعوا نهاية لتلك الخلافات مدعومين بالوحي .

الاختلاف الذي كان بعد ظهور الانبياء ، والناشئ من البغي والظلم والحسد وعبادة النفس ، حيث قام فريق بتفسير ثمرة تعاليم الانبياء طبقاً لميولهم ومصالحهم وحرفوا الحقائق وفقاً لاهوائهم ، فلم ينج من عاقبة هذا الاختلاف سوى المؤمنين الحقيقيين نظراً لعدم امكان ازالة هذه الاختلافات الا في ظل الايمان والتقوى .

ومن هنا يتضح الجواب على سؤال يثار حول هذه الآية وهو انه : لو كان مجيء الانبياء هو من أجل حل الخلافات العقائدية والفكرية والاجتماعية ، فلماذا واصلت هذه اللافات مسيرها بعدهم ايضاً ؟

الآية اعلاه تقول بوجود التفاوت بين هذين الاختلافين ، فالاول نابع من الجهل والغفلة وعدم الاطلاع وقد زال ببعثة الانبياء، اما الاخر فقد كان متضمناً لدوافع كالبغي والظلم والعناد والغرور حتى دفع بالبعض الى مواصلة طريق الفرقة عن قصد ، حتى بعد ان تبين لهم الحق ، وفي الواقع فقد كان الاختلاف الاول نابعاً من قصور الناس والثاني من تقصيرهم .

على اية حال فيستفاد من الآية اعلاه ان محاربة الاختلاف والدعوة بدله

الى الوحدة ومن مختلف الجهات كانت من بين الاصول العامة لدعوة الانبياء .

١٤ - الدعوة الى الاصلاح والنهي عن الفساد : تعد ايضاً من البرامج الرئيسية لدعوة الانبياء ، وبعبارة اخرى فالاديان الالهية وبالاضافة الى المسائل الشخصية ، كانت ترقب عن كثب وضع المجتمع ايضاً وتدعو الكل للمشاركة في اصلاحه ومحاربة الفساد .

ولذا تُسَمُّ من الآية « الرابعة عشرة » من بحثنا حالة من الاعتراض العام على الاقوام السابقة التي ابتليت بالعذاب الالهي ، حيث يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ (لم يكن العلماء في الامم التي قبلكم متصددين للحكم ولذا شاع بينها الفساد واستحقت عذابنا) إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ .

« اولوا بقية » اي « اصحاب ارث واثبات » ، وحيث ان الانسان يدخر عادة الاشياء النفيسة ويحتفظ بها ، فقد ورد هذا التعبير بحق اولئك الذين يمتلكون ثروة نفيسة اي اصحاب العلم والشخصية والقدرة والنفوذ ، ومثل هؤلاء هم الذين يتمكنون من الوقوف بوجه الفساد ويساعدون على بقاء الامم .

على اية حال يتبين من هذا التعبير ان التكليف بالامر بالمعروف ، ومحاربة الفساد خصوصاً على مستوى العلماء واصحاب القدرة والنفوذ ، كان موجوداً في كل الاديان الالهية وان الكثير من الامم قد استحق العقاب الالهي نتيجة الانحراف عن هذه المهمة .

١٥ - التسليم لامر الحق تعالى : الاصل الاخر الموجود في كل الاديان ، والحاكم عليها هو اصل التسليم المطلق لامر الله ، لذا نقرأ في اخر آية من البحث : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ .

اجل فروح كل الاديان محاذية للحق ولامر الخالق وللقوانين الالهية وجميع الحقائق ، ونظراً لكون دين بني الاسلام ﷺ من افضل الاديان الالهية فقد اختير له اسم الاسلام والافبالامكان اطلاقه على كل الاديان السماوية .

وبناءً على هذا فالاية لا تعني ان دين نبينا هو الاسلام (وان كان هذا هو الواقع) ، بل المراد ان الاسلام كان الدين الحقيقي في كل العصور ، لان التسليم امام العقيدة الواقعية في مقام العمل بالاحكام الالهية كان موجوداً في كل الاديان الالهية ، وبناءً على هذا فالاديان الالهية وان كانت قد بدأت بابتساشكالها الى ان انتهت باكملها الى دين محمد (ص) ، لكن روحها كلها واحدة الا وهي التسليم المطلق المشار اليه اعلاه ، ولا تباين ابداً بينها من هذه الناحية .

كما يقول تعالى في مكان اخر : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ ﴾ (والتسليم لامر الله) دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

ثمرة البحث :

هذه الاصول الخمسة عشر هي من اهم الاصول المشتركة بين كل الاديان الالهية ، وبعبارة اخرى فانها تشكل العمود الفقري لكل المذاهب السماوية وجميع تعاليم الانبياء ، كما ان بالامكان تشخيص الاديان الحقيقية من المذاهب المختلفة والانحرافية عن طريقها .

كما ان التدقيق فيها يعكس من جهة اخرى تلك القيم السامية لتعاليم

الانبياء وعلى مر القرون والاعصار ، بالاضافة الى كونها لوحدها من الادلة على
صدق دعوتهم وحقانية دينهم .

الانبياء
في
القرآن المجيد

الانبياء في القرآن المجيد

تمهيد :

سيتم في هذا البحث الاجابة على عدة اسئلة مهمة تدور حول الانبياء

الالهيين :

١ - عدد الانبياء في القرآن .

٢ - اولو العزم من الانبياء وكتبهم السماوية .

٣ - الفرق بين الرسول والنبي .

٤ - لماذا ظهر الانبياء في الشرق ومن منطقة خاصة ؟

٥ - تكامل الاديان مع الاشارة الى مسألة الخاتمية .

القرآن هو محور كل هذه الابحاث بطبيعة الحال ، وعلى اساس التفسير

الموضوعي ، اي انه سيتم البحث في هذه الجهات على ضوء القرآن اولاً ، ومن

ثم نبحث على حدة باقي المسائل المستفادة من الروايات الاسلامية ، والتواريخ

والادلة العقلية ، لتتضح مختلف ابعاد هذه المباحث .

نعود اولاً الى عدد الانبياء في القرآن ونتمعن في آياته :
نقرأ في سورة (المؤمن / ٧٨) : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ .

يتضح من هذه الآية عدم مجيء اسماء فريق من الانبياء والرسل الالهيين في القرآن المجيد (على الاقل في السور النازلة قبل سورة المؤمن) ^(١) ، وان عددهم يزيد على المذكور في القرآن .

نظير هذا المعنى جاء في سورة (النساء / ١٥٤) ، حيث يقول تعالى :
﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ^(٢) .

طبعاً لم يتضح عدد الانبياء الالهيين من خلال تعرض آيات القرآن لذكر العدد ، لكن استفاد من بعض الآيات ان عددهم كان كبيراً جداً ، كما نقرأ في سورة (فاطر / ٢٤) : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ .

مع الاخذ بنظر الاعتبار عنواني ﴿ بَشِيرًا ﴾ و ﴿ نَذِيرًا ﴾ ، الواردين في حق النبي الاكرم ﷺ في صدر الآية ، يتضح ان المراد من كلمة « نذير » ، في ذيل الآية هم الانبياء الالهيون ايضاً ، كما استفاد من عموم مفهوم الآية ان هناك نبياً الهياً كان قد ظهر بين كل امة من الامم فيما مضى وانه قام بتحذيرهم . وتفسير بعض المفسرين لكلمة « نذير » هنا بالمعنى الاوسع الشامل لكل الفقهاء والعلماء الذين ينذرون الناس ويحذرونهم ، يخالف ظاهر الآية بطبيعة الحال .
وبهذا يتضح جيداً ان عدد الانبياء من وجهة نظر القرآن عدد هائل !

(١) سورة المؤمن وطبقاً لقول هي السورة السابعة والخمسون النازلة على النبي ﷺ .

(٢) سورة النساء طبقاً لرواية هي السورة الثانية والتسعون النازلة على النبي ﷺ .

سؤال :

وهنا يرد هذا السؤال : وهو انه كيف يُمكن الجمع بين مضمون الآية اعلاه وبعض الآيات القرآنية التي تخاطب نبي الاسلام ﷺ بالقول : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ (سبا / ٤٤) . وكذا في سورة (يس / ٥ و ٦) : ﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ - لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (١) .

الجواب :

الظاهر ان المراد من الـ « نذير » في هذه الآيات هم الانبياء الكبار خصوصاً الانبياء اولي العزم ، الذين تتعدد سيرتهم ودعوتهم من كافة الجهات ، والا فهناك حجة الهية في كل زمان للمشتاقين والطالبيين طبقاً لمختلف الادلة العقلية والنقلية التي بحوزتنا ، ولو اعتبرت الفترة ما بين المسيح ﷺ ونبي الاسلام ﷺ فترة ركود وجمود ، فانما هي من باب عدم ظهور نبي عظيم ومشهور ، لا عدم وجود حجة الهية مطلقاً .

ولذا يقول الامام علي عليه السلام حول هذا الشيء : « ان الله بعث محمداً ﷺ وليس احد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدعي نبوة » (٢) .

على اية حال يستفاد من مجموع ما قيل بان عدد الانبياء الالهيين وعلى

(١) ذهب معظم المفسرين الى ان « ما » في جملة ﴿ مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ « نافية » ، لجملة ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ ، والآية الثالثة من سورة السجدة : ﴿ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ، خير شاهد على هذا المدعى ، في حين اعتبر البعض الاخر « ما » موصولة او مصدرية ، لكن كلا هذين الاحتمالين ضعيفان حسب الظاهر ، والذي قيل اعلاه انما على اساس المعنى الاول .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ٣٣ و ١٠٤ .

طول التأريخ كان كبيراً جداً ، وان القرآن لم يشخص لهم رقماً بالخصوص .
عدد الانبياء الذين صرح القرآن باسمائهم يبلغ (٢٦) فرداً فقط وهم عبارة
عن : آدم ، نوح ، ادريس ، صالح ، هود ، ابراهيم ، اسماعيل ، اسحاق ، يوسف ،
لوط ، يعقوب ، موسى ، هارون ، شعيب ، زكريا ، يحيى ، عيسى ، داود ،
سليمان ، الياس ، اليسع ، ذو الكفل ، ايوب ، يونس ، عزيز ، ومحمد (صلوات
الله وسلامه عليهم اجمعين) .

وجاء في سورة (الانعام / ٨٢ - ٨٦) اسم ثمانية عشر منهم ، يقول تعالى :
﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا اِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ اِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ وَهَبْنَا لَهُ اِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَ نُوْحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ
وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ اَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ وَ كَذٰلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيٰى وَ عِيسٰى وَ اِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصّٰلِحِينَ ﴾
وَ اِسْمَاعِيْلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُوْنُسَ وَ لُوطًا وَ كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

وجاء في سورة (الانبياء / ٨٥) اسم كل من ادريس وذا الكفل :
﴿ وَ اِسْمَاعِيْلَ وَ اِذْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصّٰلِحِينَ ﴾ .

واشير في سورة (هود / ٨٩) الى اثنين اخرين منهم (هود و صالح) :
﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِ مِنْكُمْ شِقَاقِي اَنْ يُّصِيبَكُمْ مِّثْلُ مَا اَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ اَوْ قَوْمَ
هُودٍ اَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾ .

واشير في سورة (العنكبوت / ٣٦) الى شعيب : ﴿ وَ اِلَىٰ مَدْيَنَ اٰخَاهُمْ
شُعَيْبًا ﴾ .

واشير في سورة (التوبة / ٣٠) الى العزيز : ﴿ وَ قَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ
اللّٰهِ ﴾ .

ونقرأ في سورة (آل عمران / ٣٣) : ﴿ اِنَّ اللّٰهَ اصْطَفٰى اٰدَمَ وَ نُوْحًا وَ اٰلَ

إِبْرَاهِيمَ وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ .

اخيراً وفي آخر آية من سورة الفتح ، ورد اسم خاتم الانبياء ﷺ :
« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » .

وهذا هو مجموع اولئك العظماء الستة والعشرين في مقاطع خاصة من آيات القرآن .

لكن علاوة على هذا فهناك ٢٦ نبياً عظيماً اخر اشير اليهم في القرآن دون التعرض لذكر اسمائهم مثل : اشموئيل ^(١) الذي اشير اليه في سورة (البقرة / ٢٤٧) تحت عنوان : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ... ﴾ .

ويوشع الذي اشير اليه في سورة (الكهف / ٦٠) تحت عنوان : ﴿ وَاذْ قَالِ مُوسَى لِفَتَاهُ ... ﴾ ، اذ يعتقد الكثير من المفسرين ان المراد به هنا هو يوشع بن نون .

و « أرميا » الذي ذكر في سورة (البقرة / ٢٥٩) تحت عنوان : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ ... ﴾ ، وان اعتبره البعض « العزيز » او الخضر ، لكنه ورد في رواية الامام الباقر عليه السلام باسم « أرميا » .

« الخضر » الذي جاء في آيات متعددة من سورة الكهف من جملتها الآية (٦٥) تحت عنوان : ﴿ عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ، وان لم يرد اسمه صريحاً في هذه الآيات ، لكن طبقاً للمشهور فهو ايضاً من الانبياء الالهيين ، وهناك قرائن متعددة على ذلك في آيات من سورة الكهف .

كما يستفاد من الآية ١٦٣ من سورة النساء ان الوحي كان ينزل على « اسباط بني اسرائيل » ، حيث يقول تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

(١) قال البعض ان اسمه « يوشع » ، وذهب غيرهم الى انه « شمعون » ، لكن المشهور بين المفسرين هو نفس « اشموئيل » (مجمع البيان الجزء ١ و ٢ الصفحة ٣٥٠) .

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ ﴿١﴾ .

«الاسباط» جمع سبط (على وزن سَنَدٌ) تعني هنا قبائل بني اسرائيل التي كان لكل واحدة منها نبياً ، خلاصة القول هي أن عدد الانبياء الذين اشار الله الي قصصهم وحياتهم في القرآن يتجاوز الـ ٢٦ نبياً ، لاختصاص هذا العدد بمن صرح القرآن باسمائهم فقط .

١ - عدد الانبياء في الاحاديث الاسلامية :

هناك في الروايات الاسلامية بحث واسع حول عدد الانبياء الالهيين ، من جملتها ما جاء في رواية مشهورة ان عددهم هو ١٢٤ الف ، كما بلغ عددهم في بعضها (٨) آلاف نبي فقط اربعة آلاف منهم من بني اسرائيل واربعة آلاف من غيرهم^(١) .

جاء في حديث عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام ان النبي الاكرم ﷺ قال : « خلق الله عز وجل مائة الف نبي واربعة وعشرين الف نبي ، انا اكرمهم على الله ولا فخر (لان ذلك من لطف الله) ، وخلق الله عز وجل مائة الف وصي واربعة وعشرين الف وصي ، فعلي اكرمهم على الله وافضلهم »^(٢) .

ونقرأ في حديث اخر للنبي الاكرم ﷺ ، عن أبي ذر (رحمه الله) ، قلت : يا رسول الله كم النبيون ؟ ، قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي . قلت كم المرسلون منهم ؟ قال ثلاث مائة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً^(٣) .

وفي حديث اخر ينقل الامام الباقر عليه السلام عن النبي الاكرم ﷺ أنه قال : « كان عدد جميع الانبياء مائة الف نبي واربعة وعشرين الف نبي ، خمسة منهم

(١) نور الثقلين الجزء ٤ الصفحة ٥٣٧ .

(٢) بحار الانوار الجزء ١١ الصفحة ٣٠ (الحديث ٢١) .

(٣) نفس المصدر الصفحة ٣٢ (الحديث ٢٤) .

اولو العزم: نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ^(١) .

٢ - الانبياء اولو العزم في القرآن :

تمت الاشارة في القرآن المجيد الى الانبياء اولي العزم وذلك في سورة (الاحقاف / ٣٥) ، حين كان الخطاب موجهاً الى نبي الاسلام ﷺ : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ .

عن هوية اولي العزم من الانبياء هناك كلام طويل للمفسرين حول هذا الموضوع ، واحتمالات وتفسيرات متعددة يفتقر معظمها الى الدليل .
من جملتها :

١ - الانبياء كلهم اولو عزم لتمتعهم بعزم راسخ و ارادة قوية ! لكن هذا التفسير إنما يصح حينما تكون « مِنْ » في جملة « من الرسل » بمعنى البيان في حين ان ظاهر الآية يدل على كونها تبعية ، وقد نقل المرحوم الطبرسي في مجمع البيان هذا الكلام عن اكثر المفسرين ^(٢) .

٢ - الانبياء اولو العزم ٣١٣ نبياً ، كما جاء في الدر المنثور عن جابر بن حيان (مرسلاً) انه قال : « بلغني ان اولي العزم من الرسل كانوا ثلاث مائة وثلاثة عشر » .

٣ - ويقول البعض بأنهم أولئك الثمانية عشر نبياً المذكورة اسمائهم في الآيات ٨٣ - ٨٦ ذكر الاليتين في سورة الانعام ^(٣) .

(١) نفس المصدر الصفحة ٤١ (الحديث ٤٣) .

(٢) مجمع البيان الجزء ٩ و ١٠ الصفحة ٩٤ .

(٣) روح البيان نقل هذا التفسير عن الحسن بن الفضل (الجزء ٢٦ الصفحة ٣١) .

٤ - أنهم أولئك الانبياء الذين تحمّلوا مزيداً من الصبر امام اذى اقوامهم ، وواجهوا كثيراً من الشدائد والمشاكل ، وهم تسعة : نوح ، ابراهيم ، اسماعيل ، يعقوب ، يوسف ، ايوب ، موسى ، داود ، عيسى عليه السلام ^(١) .

لكن من الواضح ان الانبياء الذين صمدوا امام المشاكل والمصاعب لم ينحصروا بهؤلاء ، اذ الكثير منهم ذاق مشاكل ومصاعب اقسى وامر ، فضلاً عن عدم كون الابتلاء بالمشاكل دليلاً على كونهم من اولي العزم .

٥ - انهم كانوا انبياء صبروا امام اذى الاعداء ، وهم ستة : نوح وابراهيم واسحاق (اسماعيل) ويعقوب ويوسف وايوب .

لكن وكما قلنا فالانبياء الصابرون لا ينحصرون بهؤلاء ، بل ان انبياء مثل لوط ويحيى وجرجيس وامثالهم تحمّلوا ضغوطاً واذى كثيرة .

٦ - انهم كانوا انبياء مأمورين بالجهاد ومحاربة الاعداء اعلاءً لدين الله ، وكانوا ستة : نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان .

سقم هذا التفسير واضح ايضاً اذ لم يقاتل الاعداء كل هؤلاء الستة كما لم يتخل عن القتال غيرهم مطلقاً ^(٢) !

٧ - افضل تفسير ورد حول اولي العزم في القرآن المجيد هو انهم انبياء جاءوا بشريعة جديدة ، وكانوا اربعة من السابقين (نوح وابراهيم وموسى وعيسى) حيث يكتملون بنبي الاسلام ﷺ خمسة ، والتعبير باولي العزم انما هو لاجل ان الانبياء اصحاب الشريعة الجديدة تقع على عاتقهم مسؤولية خطيرة ، وبالتالي يحتاجون الى العزم والارادة لادائها ، هذا المعنى نقل من

(١) نفس المصدر .

(٢) الاقوال والتفاسير اعلاه نقلت بشكل رئيسي من تفسير مجمع البيان وروح المعاني والدر المنثور ذيل الآية ٣٥ من سورة الاحقاف .

حديث عن « الامامين الباقر والصادق » « عليهما السلام » .

المرحوم الطبرسي نقل هذا القول في مجمع البيان عن ابن عباس ، كما جاء هذا التفسير في « روح المعاني » عن الامامين العظمين اعلاه ، وكذا عن ابن عباس ، كما ينقل عن المفسر المعروف السيوطي ان هذا من اصح الاقوال ، وينقل عن بعض الأكابر ان الأسماء المقدسة لهؤلاء الانبياء الخمسة قد ذكرت ضمن هذا البيت الشعري :

اولو العزم نوح والخليل الممجد

وموسى وعيسى والحبيب محمد ﷺ (١)

٣ - الكتب السماوية للانبياء :

بديهي أن لكل واحد من الانبياء اولو العزم (طبقاً للتفسير الاخير الذي ذكرناه) كتاباً سماوياً حيث أن اسم البعض منها معروف بالكامل ، فالقرآن المجيد هو الكتاب السماوي لنبي الاسلام ﷺ والإنجيل كتاب المسيح عليه السلام والتوراة كتاب موسى عليه السلام .

لكن ما هو اسم الكتاب السماوي لنوح وابراهيم ؟ ، بالامكان الاستنتاج من الآية ١٩ من سورة الاعلى (صفح ابراهيم وموسى) ان اسم كتاب ابراهيم هو الـ « صفح » ، بالضبط كما ذكروا اسم الـ « صفح » لكتاب نوح ايضاً .
كما ورد اسم البعض من الكتب الاخرى في القرآن من جملتها الـ « زبور » الذي انزله الله على داود ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (النساء / ١٦٣) .

الظاهر أن الاسم الآخر للزبور هو المزامير (جمع مزمو راي الاشعار

الروحية بالصوت الخلّاب) .

« الزبور » لم يكن كتاباً سماوياً حاوياً على الاحكام والشرعية الجديدة .

وبعبارة اخرى فالكتب السماوية النازلة على الانبياء على ضربين :

١ - الكتب السماوية الحاوية على الاحكام التشريعية الجديدة ، والتي

تعلن عن دين جديد كالكتب الخمسة النازلة على الانبياء الخمسة اولي العزم .

٢ - الكتب الخالية من الاحكام الجديدة ، المشتملة على النصائح

والمواعظ والوصايا والادعية والمناجاة ، كتاب « الزبور » او الكتاب المنسوب

لـ « ادريس » عليه السلام هو من هذا القبيل .

نختم هذا البحث برواية عن النبي الاكرم ﷺ :

يقول ابوذر : قلت يا رسول الله كم الانبياء ؟ فقال : مائة الف نبي واربعة

وعشرون الفاً . قلت كم المرسلون منهم ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر .

ثم يضيف قائلاً : فسألته : كم انزل الله من الكتب السماوية ؟ قال : (١٠٤)

كتب ، (١٠) كتب على ادم و (٥٠) كتاباً على شيث و (٣٠) كتاباً على ادريس

و (١٠) كتب على ابراهيم (التي يبلغ مجموعها مائة كتاب) والتوراة والانجيل

والزبور والفرقان ^(١) .

٤ - الفرق بين الرسول والنبي :

« نبي » من مادة « نبأ » بمعنى « الرسالة » او « الرسالة المهمة » ، وأتما يطلق

« النبي » على الانبياء الالهيين ، نظراً لا يصلحهم رسالة الله الى الخلق ، وقيل احياناً

ان هذه المفردة مأخوذة من مادة « نَبَّوْه » (على وزن حمزة) بمعنى الرفع

والسمو ، وإطلاق هذه المفردة على الانبياء انما هو لعلو مقامهم ومرتبتهم .
 « رسول » هي في الاصل من مادة « رِسل » (على وزن فَعَلَ) التي اصلها الانبعاث على التؤدة والسكينة على حد قول الراغب في المفردات ، وحيث ان المبعوثين من قبل الله مأمورون بمعاملة الناس بهدوء وسكينة فقد اطلقت لفظة « رسول » عليهم ، لكن لكلمة « الرسول » معنىً واسعاً شاملاً لكل من الملائكة وكذلك الانبياء الالهيين ، وقد استعمل كلا المعنيين في القرآن بشكل مكثف .
 على اية حال فاستعمال كل من لفظتي « نبي » و « رسول » ومشتقاتهما مطرد جداً في القرآن . وحول الفرق بينهما اي من الذي يسمى نبياً ومن يسمى رسولاً ؟ الحديث طويل .

جاء في روايات متعددة منقولة عن اهل البيت عليهم السلام انهم قالوا في معرض الاجابة على السؤال عن الفرق بينهما : « النبي الذي يرى في منامه (ويستلم الوحي الالهي عن هذا الطريق) ويسمع الصوت (صوت الملك) ولا يعاين الملك ، والرسول الذي يسمع الصوت ، ويرى في المنام ، ويعاين الملك » ^(١) .
 كما يعتقد البعض ان « النبي » هو الذي يستلم الوحي ، سواء كان مكلفاً بابلاغه ام لا ، لكن لو سألوه فسيجيب حتماً . اما الرسول فهو صاحب شريعة ، ومأمور بابلاغها دون انتظار للسؤال او الطلب .

وبعبارة اخرى فـ « النبي » هو كالطبيب الماهر الذي يقابل المرضى في عيادته ، فهو لا يذهب وراء المرضى ، اما لو راجعه احدهم فلن يقصر في

(١) هذا هو الحديث الذي نقله المرحوم الكليني عن زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام (اصول الكافي الجزء ١ الصفحة ١٧٦) كما نقل نفس هذا المضمون في رواية اخرى عن الامام علي ابن موسى الرضا عليه السلام (بتغيير بسيط) ، وورد نفس هذا المضمون في روايتين اخريين احدهما عن الامام الباقر والاخرى عن كلا الامامين (الباقر والصادق عليهما السلام) في اصول الكافي بتفاوت بسيط (نفس المصدر الصفحة ١٧٦ و ١٧٧) .

علاجه ، اما الرسول فهو كالطبيب السيار الذي يطوي المدن والقرى والجبال والسهول والصحاري ، ويتوجه الى كل مكان ليتعرف على المرضى ويشرع في علاجهم ، اذ هو في الحقيقة عين نابعة تسعى وراء العطاشى ، وليس كمخزن الماء الذي يبحث عنه الظمثان !

الجمع بين هذا المعنى والذي سبقه هو في غاية السهولة ، اذ كلما كانت المسؤولية اكبر كلما كان استلام الوحي اوضح - وبعبارة اخرى فهناك تناسب طردي بين حجم المسؤولية وبين وضوح استلام الوحي - ، فالنبي يرى في المنام فقط او يسمع صوت الملك ، اما الرسول فيعاين الملك في اليقظة ايضاً .
كما اعتبر البعض الرسل اصحاب شريعة جديدة اما الانبياء فليس من الضروري ان تكون لهم شريعة .

التأمل في آيات القرآن يبين ان مقامي « النبوة » و « الرسالة » قد جمعا في كثير من الموارد في شخص واحد ، مثل نبي الاسلام ﷺ الذي اعطي له كل من عنواني النبي وكذلك الرسول في الآيات القرآنية (١) .

وكذلك الكثير من الانبياء الالهيين الاخرين كانوا يتمتعون بمقامي النبوة والرسالة ، (وبناءً على هذا فالذين يقولون بوجود نسبة العموم والخصوص المطلق بينهما ، انما ينطلقون من هذه الآيات) .

لكنهما ظهرا في بعض الآيات كمعنيين متقابلين وكأنهما مفهومان متغايران ، كما جاء ذلك في سورة (الحج / ٥١) حيث يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ... ﴾ ، اذ يجب ان يكون الرسول والحالة

(١) نقرأ في سورة (الاعراف / ١٥٧) حول نبي الاسلام : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِينُ ﴾ ، وجاء في سورة (الاحزاب / ٤٥) : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ، وَمُبَشِّراً وَنَذِيرًا ﴾ ، ونقرأ في سورة (مريم / ٥١) حول موسى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ... ﴾ ، اذ يبدو من هذه الآيات ان كلا هذين المفهومين قد جمعا في شخص واحد .

هذه مكلفاً بالسعي لبلاغ الرسالة الالهية الى الخلق والانذار والبشارة دون « النبي » .

نستنتج من هذا البيان ان لكل من هاتين المفردتين معنيين اثنين ، تجمعان في احدهما وتتقابلان في الاخر .

لماذا ظهر الانبياء الكبار من منطقة خاصة ؟

يثار احياناً السؤال عن ظهور الانبياء اولي العزم اصحاب الشريعة والكتاب السماوي من الشرق الاوسط طبقاً لصريح تواريخهم ، فقد ظهر نوح عليه السلام في ارض العراق ^(١) ، وكان مركز دعوة ابراهيم عليه السلام العراق والشام كما سافر الى مصر والحجاز .

وظهر موسى عليه السلام في مصر ثم جاء الى فلسطين ، وكان مركز ولادة وظهور ودعوة المسيح عليه السلام الشام وفلسطين ، وظهر نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم في الحجاز .
كما عاش الانبياء الآخرون غالباً في هذه المناطق وبشكلٍ بحيث يمكن القول بان : منطقة الشرق الاوسط كانت مركزاً لظهور الانبياء في العالم !
فما هو السبب وراء ظهور كل اولئك من هذه المنطقة من العالم بالذات ؟ وهل ياترى كانت المناطق الاخرى في غنى من بعثة الانبياء او قبولهم ؟

(١) نقرأ في حديث عن الامام الصادق (ع) انه قال : « كانت الكوفة ومسجدها في زمن نوح (ع) وكان منزل نوح وقومه في قرية على متن الفرات مما يلي غربي الكوفة » (تفسير العياشي ، تفسير سورة هود ، الحديث ١٩) .

الجواب :

التأمل في كيفية نشوء المجتمعات البشرية وظهور حضارتها لا يبقى هناك من هذه المسألة ما يبعثُ للدهشة ، اذ ان اقطاب مؤرخي العالم يصرحون بان الشرق (خصوصاً الشرق الاوسط) كان مهداً للحضارة الانسانية ، وان المنطقة التي يطلق عليها اسم الهلال الخصيب (الهلال الخصيب اشارة الى المنطقة التي تبدأ من وادي النيل وتمتد الى مصب دجلة والفرات وشط العرب ، و تظهر في الخارطة على شكل هلال كبير) هي مهد الحضارات العظيمة في العالم . حضارة مصر القديمة التي تعد اقدم حضارة عرفت البشرية ، وحضارة بابل في العراق وحضارة اليمن في جنوب الحجاز ، وكذلك حضارة ايران والشامات ، كلها نماذج للحضارات البشرية المعروفة .

والآثار التاريخية الباقية في هذه المناطق والكتابات الحجرية ، كلها شواهد حية على هذا المدعى .

إنّ عودة الحضارة الانسانية في هذه المناطق الى سبعة آلاف سنة او اكثر من جهة ، والملازمة الشديدة بين الحضارة البشرية وبين ظهور الانبياء الكبار ، نظراً للحاجة الماسة للناس المتحضرين الى الاديان الالهية اكثر من غيرهم ، ضماناً للقوانين الحقوقية والاجتماعية ، وتفجيراً لطاقات فطرتهم الالهية ، مع الحد من الاعتداءات والمفاسد من جهة اخرى ، دفعتنا للقول بان حاجة إنسان اليوم الى الدين خصوصاً في الدول الصناعية المتطورة هي اكبر من اي زمان آخر .

الاقوام المتوحشة او البعيدة عن الوان المدنية ليس لها ذلك الاستعداد لتقبل الاديان ، بل ليس لها القدرة على نشرها على فرض تقبلها لها . لكن حينما يظهر الدين في المراكز المتحضرة لا يلبث ان يمد بجذوره

ليشمل باقي النقاط ، وذلك لاستمرارية تردد الآخرين على مثل هذه المناطق ، املاً في حل مشاكلهم فضلاً عن تركز وسائل الدعاية والاعلام فيها اكثر من غيرها .

يمكن ان يقال : اذن فلماذا ظهر الاسلام الذي هو اكبر الاديان السماوية في منطقة متأخرة حضارياً ؟

لكن لو دققنا النظر في الخارطة الجغرافية لرأينا ان هذه المنطقة المتأخرة اي « مكة » كانت في الواقع همزة وصل بين آثار خمس حضارات كبيرة وعريقة ، بل هي بمثابة مركز الدائرة بالنسبة لتلك الحضارات .

ففي الشمال حضارة الروم الشرقية والشامات ، وفي الشمال الشرقي حضارة ايران و الكلدانيين و الآشوريين ، وفي الجنوب حضارة اليمن ، وفي الغرب حضارة مصر القديمة .

ولنفس هذا السبب بالضبط وضع الاسلام وضمن مرحلة انتشاره واتساعه كل امتدادات هذه الحضارات الخمس تحت سيطرته واذابها في بودقته حيث اخذ ايجابياتها والغي سلبياتها ، كما اضاف اليها مسائل عقائدية وعملية مهمة حتى اشرقت شمس الحضارة الاسلامية على كل هذه المناطق من اقصاها الى اقصاها .

الخلاصة هي انه ومع الاخذ بنظر الاعتبار لما ذكرناه سابقاً يتضح السبب وراء بعث الله الحكيم لانبيائه الكبار من منطقة الشرق الاوسط ، ولماذا كان مشرق الارض قاعدة لانطلاق الاديان الالهية الكبيرة ؟

تحقيق تاريخ الانبياء

جزء

من تاريخ الاديان

تحقيق تاريخ الانبياء جزء من تاريخ الاديان

تعرض القرآن وفي آيات عديدة لبيان تاريخ الانبياء ومن هنا سميت الكثير من سور القرآن بأسماء الانبياء الكبار او اسماء امهم ، حتى ان تاريخ نبي عظيم مثل موسى بن عمران عليه السلام تم التعرض له احياناً في عدة سور و من مختلف الابعاد .

بديهي ان ذكر هذه التواريخ وبهذه الكثافة ليس لقضاء الوقت أبداً ، بل لاجل ان الكثير من مميزات الاديان السماوية والافكار والاخلاق الدينية والمعارف الالهية ، يمكنها ان تتجسد بشكل حي بين ثنايا هذه التواريخ وان تنعكس امثلتها الحية من خلالها .

من هنا يمكن القول ولغرض التعرف على مسألة النبوة ، والحقائق المتعلقة بالانبياء والرسل الالهيين ، ينبغي التحقيق في تواريخهم بدقة ، او بعبارة اخرى فان التحقيق في تاريخ الانبياء يعد قسماً من تاريخ الاديان والمسائل المتعلقة بالنبوة .

لا شك ان هذا التحقيق يمكنه ان يكمل ما ورد في مختلف فصول هذا الكتاب ، بل وان يجسد المسائل العلمية المعقدة امام الانظار .
لكن نظراً لسعة الابحاث المتعلقة بتاريخ الانبياء في القرآن المجيد ، ولتطلبها لتخصيص العديد من المجلدات لذلك ، فستجنب الخوض فيها فعلاً ، وسنعرض « تاريخ الانبياء في القرآن المجيد بشكل موضوعي » عند اتاحة الفرصة انشاء الله ، وهو بحث مفيد وجذاب .

تكامل الاديان :

كما قيل في الابحاث المتقدمة فاصول الاديان السماوية إنما وجدت واحدة ، والتفاوت انما يكمن في الفروع والجزئيات فقط .
نفس هذا الامر يشير هذا الاستفسار التالي ، انه لماذا ظهر الانبياء اولو العزم واحداً بعد الاخر بين المجتمعات البشرية بكتب واديان جديدة ؟ ما الحاجة الى الاديان الجديدة مع وجود الاديان السابقة ، حينما تكون الاصول واحدة ؟ ! بل لماذا يعلن اخيراً عن الخاتمية بحيث لا يظهر في المجتمع بعد ذلك نبي جديد بدين جديد ؟ !

الاجابة على هذا السؤال تتضح من خلال التمعن في مضمون الاديان الالهية ، صحيح انهم جميعاً قد جعلوا من التوحيد اساساً للدين ، لكن من البديهي ان ادراك الاقوام البدائية لهذه المسألة لم يكن كادراك الذين واجهوا المسألة بعدهم بآلاف السنين .

او بعبارة اخرى فالجزئيات المتعلقة بالتوحيد في الذات والافعال وفي العبادة والخالقية والحاكمية ليست بذلك الشيء الذي يتناسب والمستوى

الفكري للأقوام الاولى ، اذ كانوا يقتنعون بمفاهيم بسيطة واجمالية عن مسألة التوحيد ، ولم يخوضوا ابداً في هذه الجزئيات المعقدة .

ونفس هذا الشيء يمكن ان يقال بالنسبة للمسائل الاخرى المتعلقة بـ«المعاد» و«مقامات الانبياء» و«اوصافهم» ، وكذلك الجزئيات المتعلقة بـ«العبادات» ، اذ كلما زادت معرفة اهل الارض بهذه المسائل ، ونمت القابليات جيلاً بعد جيل تم تلقينهم بمزيد من الجزئيات .

فضلاً عن ان التطور الحضاري كان قد عقد الحياة البشرية يوماً بعد اخر ، وهذا التعقيد استلزم بدوره سن قوانين جديدة لحل المشاكل الناتجة عن ذلك ، ولذا ظهر الانبياء للوجود واحداً بعد الاخر انقذاً للناس وحلاً للمشاكل .

هذه المسألة يمكن بيانها بشكل افضل من خلال هذا المثال : خذ بنظر الاعتبار المراحل الدراسية للأطفال والفتيان والشباب ، بدءاً بالمرحلة الابتدائية والمتوسطة وانتهاءً بالمرحلة الجامعة ، ومرحلة التخصص اذ العلوم المختلفة التي تدرّس في هذه المراحل ثابتة تقريباً ، لكنها مختلفة بحسب المستويات ، فالطلبة كلهم يدرسون درس الرياضيات مثلاً ابتداءً بطلبة المدارس الابتدائية مروراً بطلبة الاعداديات وانتهاءً برسالة الدكتوراه في الرياضيات ، في حين ان مستوياتها متفاوتة كثيراً ، اذ كلما زاد استعداد الطالب كلما ارتفع مستوى الدروس اكثر ، ومن هنا تأتي المراحل الدراسية الخمس (الابتدائية والمتوسطة والاعدادية والجامعية والدكتوراه) .

والاديان الخمسة التي بعثها الله للبشرية شبيهة ببعض الشيء بهذه المراحل ، نوح عليه السلام كان مسؤولاً عن تربية وتعليم الناس في اول مرحلة ، ابراهيم عليه السلام في المرحلة الاخرى وكذلك موسى وعيسى ، كان كل واحد منهم معلماً واستاذاً لاحدى هذه المراحل ، لتصل النوبة الى اخر مرحلة ويتكفل

خاتم الانبياء محمد ﷺ بالتعليم فيها .

ومن هنا يتضح الجواب على السؤال الثاني الذي كان حول كيفية امكان تكامل الاديان في منطقة واحدة والاعلان عن خاتمتها ؟ !

الدليل واضح اذ كما ان الانسان يصل في مراحل الدراسة الى ما يطلق عليه بـ « التخرج » ، او بعبارة اخرى انه يصل الى المستوى الذي يكون قد استلم فيه الاصول العامة والنهائية من معلمه ، بحيث يتمكن لوحده من حل المسائل المستحدثة في ظل تلك العموميّات .

فنبى الاسلام ايضاً قد جاء بتعاليم واصول تُحل عن طريقها كافة المشاكل المستقبلية ، كما يمكن للمسلمين مواصلة طريق تكاملهم في ظل تلك الاصول والتعاليم ، و القرآن المجيد ذلك الكتاب الذي يكشف التمعن فيه عن حقائق جديدة متناسبة مع متطلبات كل عصر .

هذا الكلام لا يعني ان انسان عصرنا قد بلغ مرتبة تغنيه عن الانبياء كما يتوهمه بعض المغفلين ، بل على العكس فهو يعني ان اصول تعاليم خاتم الانبياء ﷺ واسعة جامعة و بشكل بحيث يمكن من خلالها التغلب على مشاكل العصر ومساائله .

لا بد انك تسأل لماذا لم تعط هذه الاصول لنوح عليه السلام من الاول ؟ نقول بدورنا ذلك لنفس السبب الذي لم تدرّس دروس مرحلة الدكتوراه في المرحلة الابتدائية وذلك لعدم القابلية لتلقيها .

وسياتي انشاء الله شرح اوفى لهذه المسألة في بحث الخاتمية من مباحث النبوة الخاصة .

وهنا تصل المباحث الكلية للنبوة (النبوة العامة) ، نهايتها شاكرين الله على هذا التوفيق .

ربنا ! اجعلنا من الاتباع الحقيقيين الخُصّ
المخلصين لانبيائك العظام .

إلهنا : ايقظ امم العالم المغفلة من سباتها
العميق لتجتاز بسلوكها طريق الانبياء والاولياء
ومشاكل الحياة الجمّة وتنال سعادة الدارين ولتتيقن
بان طي هذا الطريق مرهون باتباع الوحي والايمان
بالله ورسائل الانبياء .

إلهنا : وفقنا لنشر تعاليم الاسلام ، وخاتم
الانبياء التي تنضح بالنشاط والحيوية في كل ارجاء
المعمورة بوسائل الاتصال المتطورة لنطفيء ظمأ
العطاشى بزالال تعاليمهم

آمين يا رب العالمين والحمد لله اولاً وآخراً .

الفهرس

الفهرس

المقدمة

- ٧ ماهو التفسير الموضوعي؟
٩ مزايا «التفسير الترتيبي»



فلسفة بعثة الانبياء في المنظور القرآني

- ١٣ القرآن الكريم والهدف من ارسال الرسل
١٦ تفسير وفذلكة (عشرة اهداف للبعثة)
١٦ ١ و ٢ - التربية والتعليم
٢١ ٣ - إقامة القسط والعدل
٢٢ ٤ - حرية الانسان
٢٥ ٥ - النجاة من الظلمات
٢٧ ٦ - البشرى والانذار
٢٨ ٧ و ٨ - إتمام الحجة ورفع الخلاف
٣١ ٩ - التذكير (بالنسبة للبديهيات والمستقلات العقلية)
٣٤ ١٠ - الدعوة الى الحياة الانسانية
٣٥ ثمرة البحث
٣٧ توضيحات
٣٩ الغاية من بعث الرسل في منظار العقل
٣٩ الف - عزز الانسان عن التقنين الدقيق
٤٢ ب - التنسيق بين التكوين والتشريع
٤٤ ج - التربية العلمية
٤٦ اسلوب المخالفين

الخصائص العامة للانبياء ﷺ

- تفسير وفذلكة ٥٧
- ١ - صدق الحديث ٥٧
- ٢ - الالتزام بالمهود والمواثيق ٥٨
- ٣ - الامانة ٦٠
- ٤ - الرغبة والشفقة الفائقان ٦١
- ٥ - الاخلاص والايثار الكامل ٦٢
- ٦ - البر والاحسان ٦٤
- ٧ - عدم الخشية من غير الله تعالى ٦٥
- ٨ - التوكل المطلق على الله تعالى ٦٧
- ٩ - الاخلاص المنقطع النظر ٦٨
- ١٠ - الليونة والمحبة وحسن الخلق ٦٩
- ١١ - الفوز في المحن الشاقة ٧١



شرائط الرسالة

- ١ - التقوى والعصمة... تمهيد ٧٧
- تفسير وفذلكة ٨٠
- كيف يكون المذنبون دعاة للتقوى؟ ٨٠
- الاجابة على سؤال ٨٨
- من هم أهل البيت؟ ٩١
- ثمرة البحث ١٠٠

تنزيه الانبياء ﷺ

- ١ - آدم ﷺ ١٠٥
- ٢ - نوح ﷺ ١١١

- ٣ - ابراهيم عليه السلام ١١٣
- ٤ - يوسف عليه السلام ١١٩
- ٥ - موسى عليه السلام ١٢٣
- ٦ - داود عليه السلام ١٣٢
- ٧ - سليمان عليه السلام ١٣٦
- ٨ - يونس عليه السلام ١٤٢
- ٩ - نبي الاسلام ١٤٥
- ١٠ - الانبياء السابقون بشكل عام ١٦٠
- نقد الروايات المرتبطة بأسطورة الغرائق ١٦٥
- ثمرة البحث ١٧٠



اقوال وآراء حول عصمة الانبياء عليهم السلام

- الادلة العقلية على عصمة الانبياء : ١٧٨
- ١ - العوامل الداخلية - النفسية - ١٧٨
- ٢ - دليل الاعتماد ١٨٢
- ٣ - نقض الغرض وبقاء اهداف البعثة عقيمة ١٨٤
- ٤ - الاغراء بالجهل والتشجيع على الخطأ ١٨٥
- ٥ - عدم لياقة غير المعصوم لتلقي الوحي ١٨٧
- ٦ - ادلة اخرى ١٨٨



اسئلة متعددة

- ١ - هل لعصمة الانبياء صفة «جبرية»؟ ١٨٩
- ٢ - هل تلازم مسألة العصمة مع التقية؟ ١٩٣

المقام العلمي للانبياء ﷺ

٢٠٠	ما هو علم الاسماء؟
٢٠٥	ملاحظات
٢٠٥	١ - حدود علم الانبياء ﷺ
٢٠٧	٢ - القرآن والعلوم الاخرى للانبياء
٢١٧	منابع علم الانبياء ﷺ



الانبياء ﷺ وعلم الغيب

٢٢٧	تمهيد
٢٢٩	تفسير وفذلكة
٢٣٣	النتيجة... القسم الثاني
٢٣٦	هنا يثار سؤالان
٢٣٧	الجواب
٢٤٣	الثمرة من مجموع آيات علم الغيب
٢٤٦	روايات علم الغيب
٢٥١	حدود علم الغيب وكيفيته
٢٥٩	اثبات علم القادة الالهيين عن طريق العقل



العلوم الاخرى للانبياء في القرآن المجيد

٢٦١	١ - تعلم موسى من الخضر
٢٦٢	٢ - اطلاع داود على اعداد وسيلة دفاعية
٢٦٣	٣ - معرفة يوسف بتفسير الحلم
٢٦٥	٤ - العلم بمنطق الطير

طرق معرفة سفراء الله

٢٧١	تمهيد
٢٧٤	تفسير وفذلكة
٢٧٤	«الاعجاز اول دليل على النبوة»
٢٨٢	ثمرة البحث
٢٨٢	١ - ماهي حقيقة الاعجاز
٢٨٩	٢ - العلاقة بين الاعجاز والنبوة
٢٩١	٣ - التفاوت بين معجزات الانبياء عليهم السلام
٢٩٣	٤ - السحر لا يضاهي المعجزة
٢٩٩	٥ - منطق منكري الاعجاز
٣٠٩	«التحقيق في مضمون دعوة الانبياء عليهم السلام »
٣١٣	«جمع القرائن»
٣١٤	روحية المتهم وسوابقه
٣١٦	ارشادات القرآن حول هذين الدليلين
٣٢٣	«شهادة الانبياء السابقين»



مسألة الوحي

٣٢٩	«كيفية الارتباط بعالم الغيب»... تمهيد
٣٣١	تفسير وفذلكة
٣٣١	طرق الارتباط بعالم الغيب
٣٣٦	توضيحات
٣٣٦	١ - اقسام الوحي وكيفيته في الروايات الاسلامية
٣٣٩	٢ - الوحي في كلمات الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين

انتقادات... هذه الفرضية قابلة للنقد من عدة جهات ٣٤٠



الاصول العامة لدعوة الانبياء ﷺ

تمهيد ٣٤٧

تفسير وفذلكة ٣٥١

وحدة المسير لدى الانبياء جمعياً ٣٥١

ثمرة البحث ٣٦٤



الانبياء في القرآن المجيد

تمهيد ٣٦٩

سؤال وجواب ٣٧١

١ -- عدد الانبياء في الاحاديث الاسلامية ٣٧٤

٢ - الانبياء أولو العزم في القرآن ٣٧٥

٣ - الكتب السماوية للانبياء ٣٧٧

٤ - الفرق بين الرسول والنبي ٣٧٨

لماذا ظهر الانبياء الكبار من منطقة خاصة؟ ٣٨١

الجواب ٣٨٢



تحقيق تاريخ الانبياء

تكامل الاديان ٣٨٨

الفهرس ٣٩٥

